المدن الأندلسيّة في شعر عصر ملوك الطوائف

" القرن الخامس الهجري "

إعداد

انتصار خليل محمد النجّار

تعتمد كلية الدراسات العليا
هذه النسخة من الرسالة
التوقيع.........التاريخ:١٠/٧/٢٠٠٠

المشرف

الدكتور: محمد علي أبو حمدة

قدّمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في

" اللغة العربية وآدابها "

كليّة الدراسات العليا

الجامعة الأردنية

آب ٢٠٠٠م

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قرار لجنة مناقشـــــــــــــــــة

نوقشت هذه الرسالـــة بتاريـــخ ٢٠٠٠/٨/١٧ وأجيـــــــــــــــزت

أعضاء لجنة المناقشة		*التوقيع*
■ الدكتور محمد علي سعيد أبو حمده	(مشرف)	
■ الأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي	عضوا	
■ الدكتور حمدي ناجي منصور	عضوا	
■ الدكتور فايز عبد النبي القيسي	عضوا	

٥٣٥٣٠٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإهـــــداء

إلـى من أمر المولى عـز وجل بطاعتـها ووضعـت الجنـة تحت أقـدامها

إلـــى الغاليــة الـــتي زرعـــت وآن لهـــا أن تجـــني ثمرة جهد سنين طوال، إليــكِ يـــا أمّـــــــــــي

إلـى والـــدي الحنـــــون وأخـــوتـــي وأخـــواتـــي

إلـى نور قلبي وفلذة كبـدي أميرة وملاك

إلـى كــــل الأحبـــــة والأصــــدقـــــاء

أهـــدي هـذا العمـل المتـواضـع

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشكر

بعد شكر المولى عزّ وجل لا يسعني إلا أن أزجي شكري خالصاً إلى الدكتور محمد علي أبو حمدة وأثنّي بالتحية إلى أستاذيّ الفاضلين الأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي صاحب الفضل العظيم ،الذي ما فتئ يمدني بالنصح والإرشاد ويغرس في نفسي كل معان العطاء والدكتور حمدي منصور الذي كان خير معين لي، اذ استطاع ان يزيل العديد من العقبات التي واجهت هذا البحث، وكذلك أتقدّم بالشكر الجزيل إلى الدكتور فايز القيسي.

وأتقدّم بالشكر الوافر إلى الأستاذ الدكتور صلاح جرار الذي أعطاني من علمه ووقته ما أعانني على إتمام هذه الدراسة.

وإلى كل من ساندني وكان إلى جانبي خالص شكري وعظيم امتناني.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المحتوى

الموضوع	الصفحة
قرار لجنة المناقشة	ب
الإهداء	جـ
الشكر والتقدير	د
فهرس المحتويات	هـ
الملخص باللغة العربية	و
المقدمة	ز – ط
الفصل الأول	
وصف المدن الأندلسيّة في شعر عصر ملوك الطوائف	
١. وصف المدن الأندلسية	١
٢. وصف القصور	١٤
٣. وصف الحمامّات	٣٣
٤. وصف حصون المدن وأبوابها	٣٧
الفصل الثاني	
الحنين إلى المدن الأندلسيّ	٤٠ – ٨٥
الفصل الثالث	
رثاء المدن الأندلسيّة	
رثاء المدن الأندلسيّة في أعقاب الفتنة البربرية	٨٦
رثاء المدن الضائعة على يد العدو	١٠٠
رثاء الدول الزائلة	١١١
الفصل الرابع	
الدراسة الفنية	
اللغة والأسلوب	١١٦
الصورة الشعرية	١٤٧
الخاتمة	١٦٦
المصادر والمراجع	١٦٨
الملخص باللغة الإنجليزية	١٧٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مُلَخص

المدن الأندلسيّة في شعر عصر ملوك الطوائف " القرن الخامس الهجري "

إعداد

انتصار خليل محمد النجّار

المشرف

الدكتور: محمد علي أبو حمدة

تناولت هذه الدراسة موضوع المدن الأندلسيّة في شعر القرن الخامس الهجري، هادفةً إلى الكشف عن كُنه تلك العلاقة التي تربط بين المدن الأندلسية ومن سكنها من خلال ديوان شعر ذلك العصر.

وقد جاءت الدراسة في مقدمة وأربعة فصول تناولت في الفصل الأول وصف المدن الأندلسية، أما الفصل الثاني فقد عرّج على موضوع الحنين إلى المدن الأندلسية، وخصّص الفصل الثالث لدراسة شعر رثاء المدن الأندلسية، أما الفصل الرابع فقد جاء دراسة فنية تناولت فيها الأسلوب واللغة والصورة الشعرية.

ومن خلال استقراء ما تمّ رصده من شعر هذا العصر برزت المدينة بشكل ميّزها عمّا سواها، إذ كانت النماذج الشعريّة مؤشّراً يعلي من قيمة المدينة ويجعل منها وطناً لمن وُلِد ونشأ بين حناياها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بسم الله الرحمن الرحيم

المُقَـدِّمَـة

تعود صلتي بالأدب الأندلسي إلى أيام دراستي الجامعية الأولى حيث درسته على أستاذي الدكتور/ صلاح جرّار الذي حبّبه إلى نفوسنا ورغبنا فيه، فضلاً عمّا وجدناه في الأدب الأندلسي من صدىً لجراحات الحاضر، فالأندلس مهد حضارة ومدنية إسلامية عظيمة تنزع النفس إليها لما يربط بين الأندلس - التي ما عادت تذكر إلا في دواوين الشعر بعد أن كانت شمس البلاد - وبين الأرض الحبيبة فلسطين - أعادها الله - من روابط قوية تعكس صلة خفية تجتث من عمق النفس ألماً حاضراً.

لهذا عقدت العزم على القيام ببحث حول تلك العلاقة التي تجمع الشاعر الأندلسي بأرضه التي نشأ من ترابها، لا سيّما أننا نقف في الشعر الأندلسي على الكثير من القصائد التي تصف المدن من زوايا مختلفة كالتغني بالمدينة ومحاسنها، أو الحنين إلى المدينة أو رثائها.

وارتأيت أن أحصر موضوع الدراسة في عصر ملوك الطوائف لبروز هذا الموضوع في ديوان شعر هذا العصر بشكل ميّزه عمّا سواه، وخاصة في عصر الانقسام السياسي الذي أعقبه وجود المنافسة بين الدويلات المختلفة، وقد توّج التنافس بين الحكّام بوسائل التخليد والتمجيد من عمارة وأدب.

ولدى طوافي على مصادر الشعر واقتناص لكل ما يتصل بموضوع المدن الأندلسيّة من قصائد ومقطوعات ونتف لشعراء عصر ملوك الطوائف شعرت بأنّي تجاوزت حدود الزمان والمكان إذ استطاعت تلك القصائد أن تنقلني إلى رياض الأندلس من خلال إبداع شعري هو آيات خالدة تحمل عبق الأندلس الزاهية الزاهرة وترنيمة حزن يتجدّد ما تجددت الأيّام. ولشدّ ما حزّ في نفسي ما كان من نهاية مؤلمة لتلك الحضارة العظيمة التي قامت في الأيكة الأندلسيّة فما بقي منها إلا آثار تنبينا عن عظمة ما أقامه أجدادنا من مدنية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد شهد عصر ملوك الطوائف تألّقاً في الشعر الذي تناول مدن الأندلس، إذ نبع من عاطفة الإعجاب والانتماء المتجذّر في نفس أهل الأندلس، فقد اهتمّ شعراء ملـــوك الطوائف بتخليد مدنهم اهتماماً كبيراً، إذ بلغت المدينة مكاناً تميّزها وترتقي بها إلى ذروة الكمال المكاني فبرع شعراؤها في تحويل ما تشهده أعينهم من عمارة، وما يتصل بتـنها من أحداث شعراً بلغ على أيديهم حدّاً متميّزاً في جودته وصدق عاطفته التي تنبع مـــن تلك الصلة الحميميّة بالأوطان الأندلسيّة.

وقد حشد عصر ملوك الطوائف عدداً من الشعراء المجيدين الذين كان لهم ســهم صائب ودور ملحوظ في رفد ديوان الشعر الذي يدور في محيط المدن الأندلسية، فتجلّى ذلك بما نجده من غزارة في المادة الشعريّة المبثوثة في العديد من المصادر من مثـــل: كتاب نفح الطيب للمقري، وكتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسّام، فضـــلاً عن العديد من الدواوين الشعريّة مثل: ديوان ابن زيدون وديوان ابن خفاجة وديوان ابن الزقّاق، وديوان ابن درّاج.

فكانت دواوينهم تظهر آثار العشق والإعجاب وفرط الإحســـاس لمـــا قـــد يلـــمّ بأوطانهم من فواجع، وأجادوا في مختلف مواضيع شعر المدن إجادةً محكمة، فصـــوّروا المدينة من زوايا متباعدة في الزمان والتجربة الشعريّة والعاطفـــة، إذ خلّـــدوا حســـنها وحنّوا إليها، ورثوا آثارها وإقفارها، ممّا زاد ديوان شعر المدن قيمةً أدبيّة وتاريخيّـــة، فقد جاد بتصوير الأندلس وتفصيل ملامحها العامّة والخاصّة.

ولعب ملوك الأندلس دوراً هاماً فيما نجده من غزارة في المادة الشعريّة التـــي تطرق موضوع وصف المدن والقصور، إذ كان الحكّام يتجاذبون كبار شعراء الأندلس، ويسعون للوصول إلى دواوينهم تخليداً لذكرهم وتمجيداً لمآثرهم المعماريّة التي تدلّ على عظم شأنهم وتميّزهم، فقد اهتمّ الملوك بالمدينة عمارة وتحسيناً لجعلـــها فـــي مصـــاف نظائرها من المدن الأندلسيّة، فأداروا فيها يد الإبداع المعماري واسترفدوا إلى البـــلاط من يمثّل اللسان الناطق باسم تلك الدولة من الشعراء الذين لبّوا النداء فأحسنوا الوصـــف والتخليد.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد جاءت هذه الأطروحة في أربعة فصول تناولت في الفصل الأول وصف المدينة الأندلسيّة في شعر هذا العصر وما جاء من تغنّي بعمارتها وقصورها ومرافقها العامّة. فضلاً عن بعض المقطوعات التي تناولت طبيعة الأندلس لما يشكّله هذا الموضوع من جزء متمّم لصورة المدينة الأندلسيّة.

أمّا الفصل الثاني فقد عرّج على موضوع الحنين إلى المدن الأندلسيّة، فعرّف الحنين لغة ثمّ عرض لدوافع الرحيل عن المدينة وما يرافق ذلك من صراع نفسيّ يمتدّ في مرافقته للشاعر أثناء الرحلة ويتجدّد بعد مواجهة الغربة في مدينة أندلسيّة جديدة أو في أرض تتجاوز حدود الأندلس. إذ تنزع نفس الشعراء إلى مدينة المنشأ وتحنّ إلى ذلك العهد الذي مضى فيصدر الشاعر ما في نفسه من حرقة وشوق شعراً معبّراً يتغنّى بالمدينة ويبوح بعواطف أبنائها.

وفي الفصل الثالث كان رثاء المدينة موضوعاً أطال الشعراء في تناوله، فقد بدأ هذا العصر بالفتنة البربريّة التي أعقبت دماراً حلّ بالعديد من المدن الأندلسيّة، فاشتعلت النفوس حزناً وألماً لتندب أطلال مدينة قرطبة الغرّاء ومدينة إلبيرة وغيرها من المدن، ثمّ تتابعت الفواجع التي اجتاحت أرض الأندلس على يد الأعداء، وفي هذا الفصل محاولة لرصد كلّ ما قاله الشعراء في رثاء المدن في أعقاب ما حلّ بها من دمار في عصر ملوك الطوائف واستقراء ما جاء فيه.

وقد تناولت في الفصل الرابع شعر المدن الأندلسيّة في دراسة فنيّة، حاولت من خلالها أن أرصد أهم السمات الأسلوبية واللغويّة التي تميّز بها شعر المدن. وعرضت لأهم الروافد التي أسهمت في تشكيل ثقافة الشاعر فيما يتّصل بموضوع البحث. ولعلّ الصورة الشعريّة اتّخذت شكلاً ميّزها في شعر المدن، فجعل منها ركناً هامّاً في الدراسة الفنيّة، فقد ظهرت صورة المدينة مؤثّرة في شتّى المواضيع واستعان الشاعر في إثراء مشهد المدينة بالعديد من الصور البيانيّة من تشخيص وكناية واستعارة وتشبيه. واستعان بالصور الحواسيّة الخمسة، من بصريّة وشميّة وسمعيّة إلى غير ذلك.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

وصف المدن الأندلسيّة

في

شعر عصر ملوك الطوائف

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وصف المدن الأندلسيّة

الأندلس جزيرة تحفّ بها الأشجار، وتجري في أرضها الأنهار، فتثمر خصباً يشع جنانٌ " ويشقها أربعون نهراً كبيراً "[١]، مما جعلها أرضاً معمورة، فحيثما يخصب المكان ويحسن، تنمو الحضارة وتزدهر. ولأن الأندلس عروس تزدان بكل ألوان النعيم، فإن هذا زاد من تعلّق أهلها بها، فأدركوا جمال طبيعتها، لينعكس ذلك على نفوسهم حباً للجمال، وسعياً لإتمام أسباب النعيم الإنساني من خلال تشييد المدن العامرة بأبنية تزهو بالزخارف ذات الألوان البهيجة، فكان ما في فن العمارة من الاتقان يرتقي بالأندلس حسناً وبهاء. وقد ذكر أنّ " بالأندلس ثمانين مدينة من القواعد الكبار، وأزيد من ثلاثمائة من المتوسطة، وفيها من الحصون والقرى والبروج ما لا يحصى كثره، حتى قيل: إنّ عدد القرى التي على نهر إشبيلية اثنا عشر ألف قرية، وليس في معمور الأرض صقع يجد المسافر فيه ثلاث مدن وأربع من يومه إلا بالأندلس "[٢].

وقد اهتمّ أهل الأندلس بتبييض بيوتهم لتزداد حسناً في عيون من يشهد تراميها بين جنان الأندلس. فهي كما قال ابن الحمارة فيها:[٣]

لاحَتْ قُراها بينَ خُضْرَةِ أيْكِها كالدُرِّ بينَ زبرْجَدٍ مَكْنونِ

وهذا وصف ينطبق على جميع المدن الأندلسية، إذ جمعت بين حسن الطبيعة وفيض سحرها وبين جمال العمارة وترامي المباني على مساحاتٍ واسعةٍ فيها.

وقد نعُمَ أهل الأندلس بسحر الطبيعة فأكثر الشعراء من التغنّي بالأندلس وذكر محاسنها ومباهجها، وقلّما يخلو ديوان شاعر من وصف لها وتفضيل على سواها. ومن مشهور ما قيل في وصف الجزيرة الأندلسيّة واثبات تميّزها قول ابن سِفر المريني متغنّياً بفضلها:[٤]

---

[١] المقري، أحمد بن محمد "ت ١٠٤١هـ" - نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ط١ ، تحقيق إحسان عبّاس، دار صادر - بيروت، ١٩٨٨م. ج١، ص٢٢٦.

[٢] المصدر نفسه، ج١، ص٢٢٦.

[٣] المصدر نفسه، ج١، ص٢٠٥.

[٤] المصدر نفسه، ص٢٠٩-٢١٠ وص٢٢٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فــي أرْضِ أندلُــسٍ تُلتــذُ نَعْمــاءُ ... ولا يُفـارِقُ فيـها القَلْـبَ سَـرّاءُ
ولَيْـسَ فـي غَيرِهــا بـالعَيْشِ مُنْتَفَــعٌ ... ولا تَقـومُ بِحَـقِ المــاءِ صَـهباءُ
وأيْـنَ يُعـدَلُ عـنْ أرضٍ تحُـضّ بـها ... علـى الشـهَادَةِ أزواجٌ وَأبْنـاءُ
وكَيْـفَ لا تُبْــهجُ الأبْصَـارَ رؤيَتُـها ... وكُلّ أرْضٍ بِها في الوَشْـي صَنْعـاءُ
ولِلــهواءِ بِــها لُطْـفٌ يَـرُقّ بـهِ ... مـنْ لا يَـرِقُ، وتَبْـدُو مِنـهُ أهْـواءُ
لَيْـسَ النّسـيمُ الـذي يَـهفو بِـها سَـحَراً ... ولا انتِشَـارُ لآلـي الطـلّ أنـداءُ
وإنّمـا أرَجُ النّـدّ اسـتَثارَ بِـها ... في مـاءِ وَرْدٍ فطـابَتْ مِنْـهُ أرْجـاءُ

لقد بدت الأندلس في هذه الأبيات ذات رونقٍ وبهاء، فالشاعر يتنقّل بين لطـف المنـاخ، وخصوبة الأرض وكثرة الخيرات ليصل إلى القول:(١)

وأيْـنَ يَبْلُـغُ مِنْـها مـا أصَنّفُـهُ ... وكيفَ يحوي الذي حازَتْـهُ إحصَـاءُ

ولعلّ في قصيدة المَريني ما يشبه الوصف الجغرافي لأرض الأندلس فـي ثـوبٍ مـن الإبداع الشعري. إذ يقول:(٢)

قَدْ مُـيّزتْ مـنْ جِـهاتِ الأرْضِ ثـمّ بـدَتْ ... فريـدةً وتَولّـى مَيْزَهـا المـاءُ
دارَتْ عليْـها نِطاقـاً أبْحُـرٌ خَفَقَـتْ ... وجْداً بِـها إذ تبَـدّتْ وهـي حسْـنَاءُ
لِـذاكَ يبْسِـمُ فيـها الزّهْـرُ مـن طَـرَبٍ ... والطّيْرُ يشْـدو وللإغصَـانِ إصغـاءُ
فيـها خَلَعـتُ عـذاري مَـا بِـها عِـوَضٌ ... فهي الرّياضُ وكلّ الأرضُ صَحـراءُ

وقد وصل الانبهار لدى شعراء الأندلس غايته، ليجعلوا من قصائدهم صوراً تحاكي مـا ترفدهم به الحواس من بديع حسن الجزيرة الأندلسية، فظهرت الأندلس في شعرهم بأتمّ نضارتـها ورونقها.

ومن شعراء هذا القرن الذين كان لهم باع طويل في وصف طبيعة الأندلـس، والتغنّـي بجمالها ابن خفاجة الذي عشق الأندلس بكلّ ما حوت فوصف الشجر ووصف الثمر والريـاحين ورنّمت قصائده لحن جمال طبيعتها الصامتة والصائتة، وما أبدعته اليد الإنسانيّة مـن القصـور

(١) المقري – النفح، ج١، ص٢٢٧.
(٢) المصدر السابق.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمصانع والبرك والحمامّات، فاغترف من ينبوع الجمال المتدفّق في أرض الأندلس ليسقي الآذان المتعطشة لسماع صور الأندلس شعراً يضاهي ما تراه العين، فكان أن هتف واصفاً جمالها واجداً فيها جنّة الله في أرضه. فقال:[١]

يَا أهْلَ أنْدُلُسٍ للهِ دَرّكُمُ ... مَاءٌ وظِلٌّ وأنْهارٌ وأشْجارُ
ما جنّةَ الخُلْدِ إلاّ في ديَارِكمُ ... وهذهِ كُنْتُ لو خُيّرْتُ أخْتَارُ
لا تَتّقُوا بَعْدَها أنْ تَدْخُلُوا سَقَرا ... فَلَيْسَ تُدْخَلُ بَعْدَ الجنّةِ النّارُ

هذا ابن خفاجة شاعر الطبيعة، الذي جعل من ديوانه رياضاً تنبض بنعيم الحياة الأندلسيّة، يفرد العديد من القصائد للوصف، دون التعريج خلالها على موضوعات شعريّة أخرى، فكان بحق أعظم وصافي الأندلس.

لقد استطاع شعراء القرن الخامس الهجري تخليد معظم المدن الأندلسيّة في أشعارهم وتبيان محاسنها في قصائدهم ومقطعاتهم. فهذا ابن عَطيّة[٢] يخصّ مدينة قُرْطُبَة بالجمال والبهاء ويفضّلها على غيرها. يقول:[٣]

بِأرْبَعٍ فَاقَتِ الأمْصارَ قُرطُبَةٌ ... مِنهنّ قنْطَرةُ الوادي وجَامِعُها
هاتَانِ ثِنْتانِ، والزّهراءُ ثالِثَةٌ ... والعِلْمُ أعْظمُ شَيءٍ وهُو رابِعُها

وحقّ لابن عطيّة المفاخرة بهذه المدينة الأندلسيّة العريقة في مجدها وعظمتها، فشهرة هذه المدينة تغني عن التفصيل في وصفها، وذلك لأنّ ما قد يذكر في وصفها لا يحوز شيئاً من فضلها الذي يفوق قول اللسان، فهي مدينة عظيمة الشأن، تفنّن ملوك الأندلس في عمارتها، فشيّدت فيها معالم حضارية منيفة على ما أقامته اليد الإنسانية، فضلاً عمّا فيها من امتداد معماريّ جعل منها " أمّ المدائن فقد كان عدد شرفاتها أربعة آلاف وثلاثمائة، وكانت عدّة الدور في القصر الكبير أربعمائة دار ونيفاً وثلاثين، وكانت عدّة دور الرعايا والسواد بها الواجب على

---

[١] ابن خفاجة، أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة، "ت ٥٣٣ هـ" – الديوان، ط٢، تحقيق السيد غازي، منشأة المعارف – الاسكندرية، ١٩٧٩م. ص٣٦٤.

[٢] ابن عطية: القاضي أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عبدالرحمن بن عطية المحاربي، " ت سنة ٥٤٩هـ ". انظر في ترجمته: المقري – النفح، ج١، ص٦٧٩.

[٣] المقري – النفح، ج١، ص١٥٣. وأعاد ذكرها ص٦١٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أهلها المبيت في السور مائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار، حاش دور الوزراء، وأكابر النـــاس والبياض ".[١]

وابن عطيّة عندما وصف قرطبة في البيتين السابقين اكتفى بالإشارة إلى بعض معالمـــها لإثبات امتلاكها لدلائل التميّز، فذكر قنطرة الوادي التي شيّدت على نهر قرطبة، فكانت عجيبـــةً من عجائب الأندلس لما حوته من فنون معماريّة، ودروب هندسيّة، جعلت منها " إحدى غرائـــب الأرض في الصنعة والإحكام ".[٢]

وكم كان ابن عطيّة مختزلاً في قوله " وجامعها "، ذلك الصرح الحضاري الـــذي شـيّده عبدالرحمن الداخل فلم يتمّ بناؤه حتى امتدّ إبداعه المعماري على يد نحو الثمانيـــة مـــن الخلفـــاء الذين جاؤوا بعد عبدالرحمن الداخل، فكان كلّ واحد منهم يضيف إليه ويزيد من فضل مبناه حتـى بلغ ذروة الكمال المعماري.[٣]

ولعلّ تمتّع به هذا الجامع من شهرة في ذلك الوقت سبباً من الأسباب الداعية لإعـــراض الشعراء عن الوصف المفصّل لما حواه من إبداعٍ قلّ نظيره، إذ لا نجد في شعر هذا القـــرن إلا إشارات عابرة. من مثل قول ابن شهيد:[٤]

وَالجَـامِعِ الأعْلَـى يَغُـــصّ بكـــلّ مَـــنْ ... يَتلــو ويَســمَعُ مــا يَشــاءُ ويَنْظُـــرُ

وفي هذا الوصف الذي جاء في رثاء قرطبة ما يفسّر تقصـــير شـــعراء عصـــر ملـــوك الطوائف في وصف هذا المركز العلمي العظيم الذي كان يعجّ بأهل العلم والمعرفة؛ ليرفد وفـــود طلبة العلم بكلّ عظيم من علوم الدين والدنيا. إذ أنّ الفتنة التي حلّت في أرض الأندلس أطـــاحت بالعديد من المدن بما أحدثته من تدمير وتخريب، وقد كانت قرطبة دار الخلافة في مقدمـــة تلـــك المدن، فأصبحت توصف بمعالمها الباقية التي تشهد على فضلها.

---

(١) المقري – النفح، ج١، ص٥٤٠.

(٢) المصدر نفسه، ص٤٦. انظر: ص٤٨٠.

(٣) المصدر نفسه، ص٥٤٥.

(٤) ابن شهيد – أبو عامر أحمد بن عبدالملك " ت ٤٢٦هـ " – الديوان، ط١، تحقيق يعقوب زكي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، "د.ت". ص١١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد وصفت قرطبة على الرّغم ممّا لحق به على أثر الفتنة معشوقة تفوق مدن الأندلس مكانة في النفوس. فها هو ابن شهيد يشكو تباريح الهوى. فيقول:[١]

عَجُوزٌ لَعمْرُ الصِّبا فانِيَةْ ... لها في الحشا صُورةُ الغَانِيَةْ
زَنَتْ بالرِّجال على سِنّها ... فيا حبّذا هي من زانِيَةْ
تُريكَ العقُولُ على ضَعْفِها ... تُدارُ كما دارت السّانيَةْ
فقد عَنِيَتْ بِهَواهَا الحُلُومُ ... فهي براحَتِها عالِيَةْ
تَقَاصَرُ عن طُولِها قَونكةٌ[٢] ... وتَبْعُدُ عن غَنْجِها دانِيَةْ[٣]
تَرَدَّيْتُ من حُزْنِ عَيْشي بها ... غَراماً فيا طولَ أحزانِيَةْ

لقد اتخذ ابن شهيد وجهاً جديداً يصف من خلاله عظم مدينة قرطبة وأزليّتها، فهي من بنيان الأوائل[٤]، وقد أضحت فاقدة لنضرتها وقوّتها بعدما حل بها من أحداث أتت على معالم حسنها، لتترك آثار السنين على مُحيّاها فجعلها ابن شهيد عجوزاً معشوقة، تمتلك من النّفوذ المتجذّر فيها ما يمكّنها من الإحاطة بالعقول والقلوب، ليعلن ابن شهيد عشقه لها، الذي يمتدّ من صورة محفورة في ذاكرته لقرطبة في مجدها وشبابها قبل الفاجعة. صورة تمثّل رمزاً لحكم جذّر وبنى، فكانت آثاره المعماريّة دالة على عِظَم شأنه في نظر من يشهده بعد زمن.

إنّ هذه الآثار المعماريّة التي بقيت حيّةً على الرّغم من تعاقب الأحداث الجسيمة عليها تحقّق في وجودها أماني من شيّدها وعمّرها من الملوك في الأندلس. فقد ذكر ان واعظاً وعظ الناصر باني الزهراء " وهو مكبّ على الاشتغال بالبنيان، فأنشد عبدالرحمن الناصر:[٥]

هِمَمُ الملوكِ إذا أرادوا ذِكْرَها ... مِنْ بَعدِهِم فبألْسُنِ البُنيانِ
أوَ ما ترى الهرَمَيْنِ قَد بقيا وكَم ... مِلكٍ محاهُ حوادِثُ الأزْمانِ
إنّ البناءَ إذا تَعاظَمَ شَأنُهُ ... أضحى يدلّ على عَظيمِ الشأنِ

---

[١] ابن شهيد – الديوان، ص١٦٨.

[٢] قُونَكة: ويقال قونقة وهي مدينة قديمة تقع إلى الشمال الغربي من مدينة بلنسية ويمر بها نهر شقر. انظر: محمد عبد حتاملة – موسوعة الديار الأندلسية، ط١، عمان، ١٩٩٩، ج٢، ص٩٠٤.

[٣] دَانِيَة: مدينة أندلسية تقع على ضفة البحر شرقاً، مرساها عجيب يُسمى السّمّان وكانت قاعدة ملك أبي الجيش مجاهد العامري. انظر: ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله الحموي الرومي البغدادي، "ت ٦٢٦"– معجم البلدان، ط١، ٥م، دار صادر – بيروت، ١٩٨٦م. ج٢، ص٤٣٤

[٤] المقري – النفح، ج١، ص٤٦٠.

[٥] المصدر نفسه، ج١، ص٥٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والزهراء ثالثة المعالم المميّزة لقرطبة الغرّاء في بيتي ابن عطيّة، وهي معلم حضاري " أنشأه أبو المظفر عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله الملقّب الناصر، سنة ٣٢٥هـ، وقد أقام بها مَن العمارة ما يفوق الوصف، ويكفي أن نعلم أنّ عدد أبوابها قد تجاوز خمسة عشر ألف باب، وأنّ الناصر كان ينفق في عمارتها ثلث جباية البلاد "[١]، لنستطيع تصوّر عظمتها واستحقاقها للوصف والتخليد.

وقد تغنّى بها شعراء ملوك الطوائف، فصوّروا بهجة منظرها. ومن الشعراء الذين فتنوا بتألّق طبيعتها ابن زيدون الذي وافاها في فصل الربيع، وقد اكتست بأجمل الحلل، فأثار مشهدها حنيناً متوقداً إلى محبوبته ولاّدة[٢]. فقال قصيدة وصف فيها الزهراء:[٣]

إنّــي ذَكَرتُـك بـالزّهراءِ مُشْـتاقاً … والأُفقُ طَلْقٌ وَمرأى الأرْض قد رَاقَـا
وللنَّسيمِ أعتِـلالٌ فـي أصَائِلِـهِ … كأنّـهُ رَقّ لـي فـاعتَلّ إشْـفاقَا
والـرُّوْضُ عَـنْ مَائِـهِ الفِضّـيّ مُبْتَسِـمٌ … كما شَـقَقْتَ عـن اللَّبّـاتِ أطْواقَـا[٤]
نَلْـهُو بِمَـا يَسْـتَحيلُ العَيْـنَ مِـنْ زَهَـرٍ … جال النّدى فِيـهِ حتّـى مـالَ أعناقَـا
كـأنّ أعيُنَـهُ، إذ عَـايَنَتْ أرقـي … بَكَتْ لِمَا بـي فجـال الدَّمْـعُ رقراقـا
وردٌ تـألّقَ، فـي ضـاحي مَنابِتِـهِ … فازداد مِنه الضُّحى في العَيْنِ إشـراقا
سَـرَى يُنَافِحُـهُ نَيْلوفـرٌ عَبِـقٌ … وسْنانُ نَبَّـه مِنْـهُ الصُبْـح أحْدَاقَـا[٥]

وفي هذه القصيدة ينثني ابن زيدون معانقاً جماليات الزهراء متلّمساً مواضع التمازج بين نفسه وهذا المكان الموصوف. وإذا كان وصف ابن زيدون للزهراء قد جاء في سياق شوقه لمحبوبته، فإنّ رحيله عن الزهراء قد أشعل جذوة الشوق إلى المكان. فقال:[٦]

ويَـا حَبَّـذا الزّهْـراءُ بَهْجَـةُ مَنْظَـرِ … ورَقّـةُ أنفـاسٍ وَصِحـةَ جَوْهَـرِ

---

(١) المقري – النفح، ج١، ص٥٢٤.

(٢) ولاّدة: هي بنت محمد بن عبدالرحمن بن عبدالله الناصر المستكفي، الذي تولى الخلافة عام ٤١٤هـ، وقد تعشّقها ابن زيدون فخلّد ذكرها في قصائده. انظر في ترجمتها: الذخيرة، ج١، ص٢٦٨-٢٧٠.

(٣) ابن زيدون، أبو الوليد أحمد بن عبدالله بن أحمد بن زيدون المخزومي الأندلسي "ت٤٦٣هـ" - ديوان ابن زيدون ورسائله، ط١، تحقيق علي عبدالعظيم، دار نهضة مصر للطباعة – القاهرة، – ١٩٥٧م. ص٣٩٨-٣٩٩.

(٤) اللبّات: جمع لبّة، وهي موضع القلادة من الصّدر.

(٥) نافحة ينافحه غالبه في نشر الطيب والجمال – النيلفور: نبات مائي. انظر الديوان.

(٦) ابن زيدون، ص٢٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَنَــاهيكَ مِــن مَبْـدا جَمـــالٍ ومَحْضَــرِ　　وجَنَّــةِ عَـدْنٍ تطَّبيــكَ[١] وكَوثَـــرِ

من الملاحظ أن وصف جمال الزّهْرَاء في شعر ابن زيدون يدور فـي نطـاق وصـف طبيعتها الساحرة دون ذكر لعمارتها التي عرّج عليها بعض ما قيل من شعر هذا العصـر رثـاءً وندباً. ويؤكّد باحث حديث أهمية مدينة قُرْطُبَة وعظم شأنها على الرغم من أنّها تراجعـت فـي القرن الخامس لتحتل المرتبة الثانية بعد مدينة إشْبِيلِيّة حاضرة بني عبّاد[٢].

وقد استعادت قرطبة شيئاً من مجدها إثر تولّي المعتمد بن عبّاد حكمـها إذ أعـاد إليـها أضواء المجد بعد أن طُفِئَت. يقول الحُصَري[٣] في وصف ما آلت إليه قرطبة:[٤]

دانَــتْ بَغـــدادُ لقُرطُبـــةٍ　　وخلائفُـــها للمُعتَمـــدِ
طُفِئَـــتْ أنـــوارُ أميّـــةَ فـــي　　قَصْـرِ الخُلَفـــاءِ فقلـتَ قِــدِ
نَافَسْـــتَ بقصرِهِـــمُ إرمـــا[٥]　　فكـــأنّ أميّـــةَ لــم تَشِــدِ
مُـــرْ وافْتَـــح بَـــاقيَ أندلــس　　مـا فــي صَبَـبٍ أو فــي صَعَـدِ
ولعـــلّ بـــلادك لـــي وَطَـــنٌ　　فـأخُطّ الرَّحـل عـــن الأجُـــدِ[٦]

لقد مدح الحُصري المعتمد فأعلى من شأن مدينته قرطبة التي دانت لــها إحـدى مـدن الشرق العظيمة، وهي بغداد – كما يرى –، وفي هذا التفضيل ضربٌ من المبالغة إذ قورن بقـول صاحب النّفح عن قرطبة: " ويزعم قوم من أهلها أنّها كأحد جانبي بغداد، وإن لـم تكـن كـأحد جانبي بغداد فهي قريبة من ذلك ولاحقة به"[٧]. ولم يكتفِ الحُصَري بتفضيل قرطبة على بغـداد، بل نافس بها إرما ذات العماد. وقد صوّرت المدينة تابعاً للممدوح ترتدي ثوباً من صفاته فدخول

---

[١] تطّبيك: تدعوك. انظر الديوان، ص٢٢٤.

[٢] هنري بيريس – الشعر الأندلسي في عصر ملوك الطوائف "ملامحه العامة وموضوعاته الرئيسية وقيمته التوثيقية"، ط١، ترجمـة أحمـد مكي، دار المعارف، ١٩٨٨. ص١١١.

[٣] الحُصَري، أبو الحسن علي عبدالغني الفهري المقري، أديب وشاعر مفلق دخل الأندلس بعد سنة ٤٥٠هـ، وكان ضريراً، وتوفي سـنة ٤٨٨هـ. انظر في ترجمته: ابن بسّام – الذخيرة، ج١، ص١٨٤.

[٤] ابن بسّام، علي بن بسّام الشنتريني "ت ٥٤٢هـ" – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ط١، ٢م، تحقيـق سـالم مصطفـى البـدري، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨. ج٤، ص١٥٨.

[٥] وهو قصر قرطبة: قصر أوليّ تداولته ملوك الأمم من لدن عهد موسى النبي عليه السلام، وفيه المباني الأولية والآثار العجيبـة لليونـان وللروم والقوط والأمم السالفة ما يعجز الوصف، ثم ابتدع الخلفاء من بني مروان فيه البدائع الحسان. انظر: النفح، ج١، ص١٥٨.

[٦] الأجُد: الناقة القوية الموثقة الخلق. انظر : اللسان مادة (أجُد).

[٧] المقري – النّفح، ج١، ص٤٦٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحاكم إلى المدينة يزيدها حسناً، فتستحقّ إذ ذاك الوصف والتخليد. ومما قيل في مدينة قرطبة بعد أن صارت إلى المعتمد إثر خلع ابن جَهوَر[1]، قول ابن القصيرة[2] في مدح المعتمد بن عبّاد:[3]

فَأحْرَزتَ فَضْلَ السّبقِ عَفْوا	وكَفُّهُ على رَغْمِهِ ممّا تَوهّمَهُ صِفْرُ
ويا شدّ ما أغرَتْهُ قُرطبةٌ وقَد	أبْشَرتها خَيْلُنا فكان لكَ الدُّرُّ
أتَتْكَ وقد أزرَى ببهجَةِ حُسْنِها	ولا لأنّها من جَوْرِ مالكِها طِمْرُ
فألْبَسْتَها من سَابغِ العَدلِ حِلّةً	زهاها بِها تيهٌ وغازلَها كِبْرُ
وجَاءتْك مِتْفالاً[4] فضمَّخ حَيّها	وازْدانها من ذِكْرِك المُعْتَلي عِطْرُ
وأجْرَيْتَ مَاءَ الجُودِ في عَرَصاتِها	فروّضَ حتّى كادَ أن يُورِقَ الصّخْرُ
وطَابَ هَوا أفقِها فكأنّها	تهبُّ نسيماً فيه أخلاقُكَ الزُّهْرُ
وما أدْرَكتْها في هَواكَ هَوادَةٌ	وما ائْتَمروا إلا لِما أمَرَ البِرُّ

لقد أكّد الشاعر الأندلسي ابن القصيرة موضوع تبعية المدينة للحاكم، الذي قد يزري ببهجتها، وقد يزيدها سنا وتألّقا، ويعرض ابن القصيرة لصورة المدينة قبل دخول المعتمد ليقارنها بما آلت إليه بعد تولّي المعتمد لأمرها، فقد بلغت قرطبة غاية عظمتها على يد المعتمد، وارتدت ثياب العزّ والذّكر الطيّب، فازدادت حسناً وتيها. وفي هذه القصيدة شُخّصت قرطبة بصورة المرأة الحسناء التي تحاول جذب الممدوح لتسوقه لدخولها وخوض المعارك لأجلها.

على أنّ الشاعر إذ يرى أن وقوع قرطبة تحت حكم من خمل ذكره زرايةً لها، وتقليلاً من شأنها على الرّغم من بهجتها وعظم مكانتها الثابت على الدوام، وبهذا يكون ابن القصيرة قد عرّض بالحاكم الذي أزرى بالمدينة في مقابل تمجيده للمعتمد.

(1) ابن جَهور: الوزير أبو الحزم جَهوَر بن محمد بن جَهوَر الذي استولى على قرطبة بعد الفتنة، فأعادها آمنة "ت ٤٣٥هـ". انظر في ترجمته: النفح، ج١، ص٣٠٢.

(2) ابن القصيرة، أبو بكر محمد بن سليمان بن القصيرة، كاتب الدولة اللمتونية، مدح ابن عبّاد، "ت ٥٠٨هـ". انظر في ترجمته: ابن الخطيب، لسان الدين السلماني، "ت ٧٧٦هـ"- الإحاطة في أخبار غرناطة، ط٢، تحقيق محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي - القاهرة، ١٩٧٣، ج٢، ص٥١٧.

(3) المصدر السابق، ج٢، ص٥١٧-٥١٨.

(4) مِتفالاً:

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا فإنّ موضوع الوصف يتقاطع مع مواضيع شعرية أخرى، فالشاعر المادح الذي يمجّد الحاكم أو يزفّ إليه التهاني، قد يمدحه بالإعمار وإعلاء البنيان، وقد يصف مدينته في حلّة جديدة من صفات ممدوحه، والشاعر الراثي لمصاب المدينة أو الدولة الزائلة يسجّل في شعره وصفاً لما كانت تتمتّع به المدينة في مجدها ليستشهد من خلال مقابلة بين واقعها وماضيها على ما لحقها من تبدّل وتحوّل. والشاعر المغترب الذي فعلت الغربة فعلها في نفسه، تعنّ في خاطره صور كثيرة لأماكن كان يألفها في مدينته، ولكنّه بات يفتقدها في ديار الغربة فيلجأ إلى استعادة صورها من الذاكرة وبثّها شعراً واصفاً لعهدها الحبيب. يقول ابن زيدون من قصيدة في وصف قرطبة حنيناً وشوقاً:[1]

أَقُرْطُبَةُ الغرّاءُ، هل فيكِ مطمَعُ ... وَهَل كبدٌ حرّى لَبِينكِ تُنْقَعُ
وَهَل لِلّيَاليكِ الحَمِيدَةِ مَرْجِعُ ... إذا الحُسنُ مَرْأى فيك واللّهو مَسْمَعُ

وَإِذ كَنَفُ الدُّنيا لَدَيْكِ مُوَطّأ[2]

أَأَنْسَى زَمَانَا " بالعُقَاب " مُغَفّلا؟ ... وَعَيْشا بأَكْنَاف " الرّصافة " دَغْفَلا[3]
وَمَغْنىً - إزاءَ " الجَعْفَرِيّةِ " أقبلا ... لَنِعْمَ مَرَادُ الأُنْسِ رَوْضا وَجدولا[4]

وَنِعْمَ مَحَلُّ الصّبْوةِ المُتَبَوّأُ

ويا رُبّ مَلْهىً " بالعقيق " ومَجْلِسِ ... لدى تُرْعَةٍ ترنو بأحداقِ نَرْجِسِ
بِطَاحُ هواءٍ مُطمِعِ الحالِ مُؤْيِسِ ... مَغيمٍ - ولكِنْ مِنْ سَنَا الرّاحِ - مُشْمِسِ

إذا ما بَدَت - في كأسِها - تَتَلألأُ

وقد ضَمّنَا مِن " عَينِ شُهدَة " مَشْهَدُ ... بَدَأْنَا وَعُدْنَا فيه، والعَوْدُ أحمَدُ
يَزُفّ عَرُوسَ اللّهو أَحْوَرُ أغْيَدُ ... لَهُ مَبْسِمٌ عَذْبٌ وخَدٌّ مُوَرّدُ

وكفٌّ - بِحِنّاءِ المُدامِ تُقَنّأُ

وكائنْ عَدَنا - مُصعِدين عَلَى " الجِسْرِ " ... إلى "الجَوْسَقِ النّصريّ" بين الرُّبى العُفْرِ[5]
ورُحنا إلى الوَعْسَاءِ من شاطئ النّهْرِ ... بحيث هُبوبُ الرّيحِ عاطرةُ النّشرِ[6]

على قُضُبِ النُّوارِ فهي تكفّأ[7]

---

[1] ابن زيدون - الديوان، ص١٣٣-١٣٤.

[2] الكنف: الناحية أو الظل، موطأ: ممهد ومهيأ.

[3] دغفل: عيش واسع مخصب.

[4] المغنى: المترل.

[5] كائن: كم. الجوسق: القصر . العفر: جمع عفراء، وهي الأرض البيضاء لم توطأ.

[6] الوعساء: رابية من رمل لينة.

[7] تكفأ: أي تتكفأ: تمور متحركة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي هذه الأبيات يعتصر ابن زيدون مخزون ذاكرته، فيجرّد منها مادّة حاضرة شاخصة يستعين بها في وصف مدينة قرطبة، كأنّما يعيش مشهداً حاضراً، راسماً بذلك صورة ناطقة لأهم المعالم المحفورة في ذاكرته، وهكذا تنبثق روعة التصوير من رهافة الإحساس وشدّة الشوق، فيجيء التصوير راقياً بديعا، يرسمه بمداد قلبه وذاكرته التي حفظت ما تممه عليه المكان من الأنس والنعيم، فذكر من تلك الأمكنة العقاب، والجعفرية، والرصافة[1]، وهذا الحشد من أسماء الأمكنة ذات الفضل في مدينة قرطبة يوحي بعظم ما تحويه قرطبة من مساحات الجمال الذي يشكّل رافداً قوياً لقصائد الوصف، فقد وقفت العديد من القصائد على تخليد معظم تلك الأمكنة وخصّها بالموفور من السحر، وإذا كان ابن زيدون قد عمد إلى الإحاطة بمرابع النعيم بقرطبة ليبني قصيدة ذات طابع تعميمي، فإنّ من الشعراء من جاءت قصيدته من وحي مكان محدّد في قرطبة فخصّه بالفضل والجمال، فهذا ابن بُرْد[2] يصف مدينة الرّصافة بالحسن والبهاء. استمع إليه يقول:[3]

سَقَى جَوفَ الرُّصافَةِ مُسْتَهِلٌّ ... تُؤلِّفُ شَمْلَه أيْدِي الرِّيَاحِ
مَحَلَّ مَا مَشَيْتُ إليهِ إلاّ ... مَشَى فيَّ ابْتِهَاجِي وارْتِيَاحِي
كأنَّ تَرَنُّمَ الأطْيَارِ فيه ... أغَانٍ فَوقَ أوْتَارٍ فِصَاحِ
كأنَّ تَثَنِّي الأشْجارَ فيهِ ... عَذارى قَد شَرِبْنَ سُلافَ راحِ
كأنَّ الجَدولَ المُنسَابَ نَصْلٌ ... صَقِيلُ المَتْنِ هُزَّ إلى كِفَاحِ
كأنَّ رِياضَهُ أبْرادُ وَشْيٍ ... تَعطَّفُ فوقَ أعطافِ مِلاحِ

يقدّم ابن برد في هذه الأبيات لوحة فنية للرّصافة تخاطب الحس الفني المرهف؛ إذ تجمع بين المرئي والمسموع بما يزيدها بهاءً وروعة.

---

(١) الرّصَافة: رصافة قرطبة وهي مدينة أنشأها عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان، وقد تغنّى بها الشعراء لفضلها وحسنها. انظر: معجم البلدان، ج٣، ص٤٨ ؛ محمد بن عبدالمنعم الحميري، "ت -٧هـ" - الروض المعطار في خبر الأقطار، ط٢، تحقيق إحسان عبّاس، مكتبة لبنان - بيروت، ١٩٨٤م. ص٣٤٩.

(٢) ابن برد: أحمد بن محمد بن أحمد بن برد الأصغر أبو حفص، وهو من أهل بيت الرياسة، فقد كان جدّه أبو حفص الأكبر أديباً وشاعراً، ولابن برد الأصغر كتاب سر الأدب وسبك الذهب. انظر في ترجمته: الذخيرة، ج١، ص٣٠٢.

(٣)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا يمضي عدد من شعراء قرطبة المجيدين في تخليدها شعرا محكما ينم عن تفوقهم في حسن النظم وجودة السبك. لنجد الشاعر الأندلسي مقرا بفضلهم وإن لم يكن من أهل قرطبة. يقول ابن السيد البطليوسي[١] في فضل شعراء قرطبة:[٢]

وهل بطليوس في نظم مناظرة ... يوما لقرطبة في حكم ذي نظر

لقد أشار البحث إلى كثرة المدن والحواضر في الأندلس في عصر ملوك الطوائف، فكانت كل مدينة مميزة في نظر شعرائها يباهون بها وينافسون غيرها من مدن الأندلس. يقول ابن الزقاق البلنسي في وصف مدينته:[٣]

بلنسية[٤] إذا فكرت فيها ... وفي آياتها أسنى البلاد
وأعظم شاهدي منها عليها ... بأن جمالها للعين بَاد
كساها ربنا ديباج حسن ... لها علمان[٥] من بحر وواد

يؤكد ابن الزقاق على فضل مدينة بلنسية، ودلائل حسنها الذي يظهر للعين دون جهد في البحث، ويجعل في الشعر مرآة تعكس ما تميزت به مدينته من حسن يسلب العقول، بعد مخالطته أحاسيس الشاعر وتدفقاته الفكرية والعاطفة.

وقد امتدت منافسة الشعراء بمدنهم فاجتازت الحدود الزمانية والمكانية لتشمل مدن الأرض العظيمة في شتى البقاع والعصور. ومثل هذه المنافسة بين المدن تعكس أبعادا سياسية

---

[١] البطليوسي: أبو محمد عبدالله بن محمد ابن السيد "ت ٥١٢هـ". انظر في ترجمته: ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبدالله قيس الإشبيلي، "ت ٥٢٩هـ" – قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ط١، ٢م، تحقيق حسين يوسف خريوش، مكتبة دار المنار، الزرقاء، ١٩٨٩. ج٤، ص٦١٥ ؛ الذخيرة، ج٣، ص٥٨٤ ؛ النفح، ج١، ص٦٤٣.

[٢] المقري – النفح، ج١، ص١١٦.

[٣] ابن الزقاق البلنسي، أبو الحسن علي بن إبراهيم بن عطية الله بن مطرف اللخمي، توفي في حدود سنة ٥٢٨هـ – الديوان، ط١، تحقيق عفيفة محمد ديراني، دار الثقافة – بيروت، ١٩٦٤م. ص١٣٩.

[٤] بلنسية: مدينة سهلية ساحلية تطل على البحر الأبيض المتوسط، شرقي الأندلس وهي مدينة أندلسية مشهورة، وتعرف بمدينة التراب، تقع على نهر جار، وتمتاز بالخصب والعمارة، ملكها الروم سنة ٤٨٧هـ، وأحرقوها عند خروجهم منها سنة ٤٩٥هـ، ومن أشهر معالمها الرصافة ومنية ابن أبي عامر. انظر: الروض المعطار، ص٩٧ ؛ معجم البلدان، ج١، ص٤٩٠ ؛ النفح، ج١، ص١٧٩.

[٥] علمان: خطتان وطريقتان في الثوب. انظر الديوان، ص١٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويكثر وصف المدينة الأندلسيّة في أعقاب تبدّل الأحوال فيها، إن كان نصراً على العدو، أو غلبة لأحد حكّام الأندلس عليها، فإذا ما دخل الحاكم الجديد المدينة فإنّه يفتح أبوابه لاستقبال ما قد يزفّه إليه المهنئون من قصائد المدح، التي تمجّد انتصاره وتخلّد بطولته، وهي قصائد لا تكاد تخلو من وصف للمدينة. يقول ابن سارة الإشبيلي في مدح الأمير يحيى بن إبراهيم، وقد قدم على غرناطة[١] والياً:[٢]

اليومَ أخْمَدَتِ الضَّلالَةُ نارَهَا ... فاسْتَرجَعَتْ دارَ الهُدَى عُمّارَهَا
واسْتَقْبَلَتْ حَدَقُ الوَرَى غِرناطَةً ... وَهْيَ الحَدِيقَةُ فوَّفَتْ أزْهَارَهَا
وكَأنّ نَشْرَ نَبَاتِها نَيْسَانُ إذ ... يكسُو رُباها وَرْدُهَا وبَهَارَها

لقد دخل ابن سارة في جملة من الشعراء الذين قصدوا الوالي الجديد فمدحه ووصف مدينة غرناطة وقد استعادت عمارتها، فزادت حسناً وفضلاً، والحديث عن غرناطة يفضي إلى القول: إنّ شعراء هذا القرن قد جعلوا – أحياناً – من وصف المدينة ركناً أساسياً تقام عليه قصائد المديح.

وعلى الرغم من ترامي موضوع الوصف على مساحات واسعة من الفنون الشعرية المختلفة، إلا أنّه يمتلك سماتٍ خاصة تجعل منه فناً شعرياً قائماً بذاته، فقد أفرد العديد من شعراء هذا القرن قصائد خاصة بوصف المعالم المعماريّة الأندلسيّة. ويُعدّ شعر وصف المدن سجلاً يخلّد جماليات الأندلس وما حوته من مظاهر عمرانية تتميز بها عن غيرها.

---

[١] غرناطة: "دمشق" بلاد الأندلس، مدينة محدثة من مدن إلبيرة، وقد مدّنها وحصّن أسوارها حَبّوس الصنهاجي ثمّ خلفه باديس بن حبوس. انظر: النفح ج١، ص١٧٦ ؛ الرّوض المعطار، ص٤٥-٤٦.

[٢] العماد الأصفهاني – الخريدة، ق٤، ج٢، ص٢٧١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد تردّد في شعر هذا القرن وصف لمظاهر المدينة المختلفة، وتصوير لأبرز ما يميّز فنّ العمارة والبناء وما رافق ذلك من فنون هندسيّة وزخرفيّة؛ فالشّاعر في هذا القرن يشكّل جزءاً من مدنيّة عريقة، يستقي منها مفردات العديد من قصائده، فقد احتلّت المدنيّة مكانة تُميّزها في شعر الوصف، ولكن هذا لم يحدّ من تلك العلاقة المستمرّة التي تربط الشّاعر بالطبيعة، وذلك لأنّ الشّاعر الأندلسي لم يعش قطّ خارج حدود هذا المزيج المتجانس من الطبيعة الخلاّبة والعمارة المتقنة البديعة.

• وصف القصور الأندلسيّة:

اهتم الشعراء الأندلسيّون في القرن الخامس الهجري في وصف القصور الأندلسيّة التي استحوذت على مخيّلة العديد منهم، فقد كانت مثار إعجاب، لما حوته من فنون تفوق الوصف، إذ أنفق أصحابها الكثير من الجهد والمال في سبيل الوصول بها إلى غاية الاتقان، والتميّز، والحسن، فكثرت تلك القصور، لتتير أرض المدن الأندلسيّة، فيهتدي إليها الشّعراء من كلّ مكان. يقول عيسى بن وكيل[١] في وصف مدينة طليطلة[٢] بطبيعتها وعمارتها:[٣]

زادت طُلَيطلةٌ عَلَى مَا حَدّثوا ... بَلَدٌ عليه نضَارَةٌ ونَعيمُ
الله زَيّنهُ، فوشّحَ خَصْرَهُ ... نهرُ المجرّةِ والقُصور نُجُومُ

كانت مدينة طُلَيطلة على الغاية من الحسن، بها بساتين محدقة، ويجري فيها نهر تاجة، وتكثر فيها الرّياض والجنان[٤]، وتترامى بين تلك الجنان قصور تزدان بالسّحر والحسن، تستفزّ من يبصرها، فهي مدينة تفوق في حُسنها كلّ ما جاء في وصفها. ومن قصور طُلَيطلة التي ذاع

---

[١] عيسى بن وكيل: أبو بكر عيسى بن الوكيل، الكاتب في غرناطة في الدّولة اللمتونيّة (المرابطين). انظر في ترجمته: ابن سعيد، علي بن موسى بن محمد بن عبدالملك الغرناطي الأندلسي "ت ٦٨٥هـ" – المغرب في حلى المغرب، ط١، ٢م، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٩٩٧م. ج٢، ص١١١ ؛ أبو عبدالله محمد بن عبدالله القضاعي المعروف بابن الأبار، "ت ٦٥٨ هـ"، تحقيق صالح الأشتر، ط١، مطبوعات مجمع اللغة العربية – دمشق، ١٩٦١، أعتاب الكتاب، ص٢٢٤.

[٢] طُليطلة: مدينة تقع في أواسط الأندلس، فتحت على يد طارق بن زياد، فيها آثار عربية فخمة، وكانت دار مملكة ذي النون من ملوك الطوائف، وتسمى مدينة الأملاك لأنها فيما يقال ملكها اثنان وسبعون ملكاً، وتطل هذه المدينة على نهر تاجة. انظر: (النفح، ج١، ص١٦١ وص١٩٢ ؛ البكري، أبو عبيد البكري "ت ٤٨٧هـ"، ط١، تحقيق عبدالرحمن علي الحجة، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت، ١٩٦٨م. ص٨٦.

[٣] ابن سعيد – المغرب، ج٢، ص١١١ ؛ المقري – النفح، ج١، ١٧٠.

[٤] المقري – النفح، ج١، ص١٦١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذكرها، قصر بناه المأمون يحيى بن ذي النّون صاحبها، وهو قصر أنفق فيه مالاً كثيراً، فكان قصراً يبهر الفكر، ويسحر الألباب، وفيه يقول صاحب النّفح: " صنع المأمون فيه بحيرة، وبنى في وسطها قبّة، وسيق الماء إلى رأس القبة على تدبير أحكمه المهندسون، فكان الماء ينزل من أعلى القبّة حواليها، محيطاً بها متّصلاً بعضه ببعض، فكانت القبّة في غِلالة من ماء سكب لا يفتر، والمأمون بن ذي النون قاعد فيها لا يمسّه من الماء شيء، ولو شاء أن يوقد فيها الشّمع لفعل ".[١]

وقد وصف الشّعر الأندلسيّ هذا القصر، يقول أبو محمد المَصريّ[٢] في وصف قصر طليطلة:[٣]

قَصْرٌ يُقَصِّرُ عن مَداهُ الفرقَدُ	عَذُبَتْ مصادِرُهُ وطَابَ المَوْرِدُ
نَشَرَ الصّباحُ عليه ثوبَ مَكارِمٍ	فَعَلَيْهِ ألوِيَةُ السّعادةِ تُعقَدُ
وكأنّمَا المَأمونُ في أرْجَائِهِ	بَدْرٌ تَمام قابلَتْهُ أسْعُدُ
وَكأنّما الأَقْداحُ في رَاحاتِهِ	دُرٌّ جَمادٌ ذَابَ فيه العَسْجَدُ

يدير أبو محمد المصريّ أوصافه حول فكرة تخليد بديع ما بناه المأمون في قولٍ موجزٍ يتمازج فيه وصف القصر بمدح صاحبه الذي يشكّل النّور الكاشف لجماليات المكان، ونلحظ هذا الاقتران بين وصف القصر وصاحبه حتّى عند وصف المصريّ لبركة ذلك القصر. إذ يقول:[٤]

شَمْسِيَّةُ الأنسابِ بدرِيّةٌ	يحَارُ في تَشْبِيهِها الخَاطِرُ
كأنّما المَأمونُ بَدرُ الدُّجَى	وَهْيَ عَلَيهِ الفَلَكُ الدّائِرُ

وهناك شعر غير قليل يصف القصور، ويفصّل في تصويره لما حوته على لسان شعراء أفذاذ برعوا في وصف قصور الأندلس، وباروا بأوصافها ومعالمها أعظم القصور على مرّ

(١) المقري – النفح، ج٤، ص٣٥٣.

(٢) أبو محمد المصري: أبو محمد عبدالله بن خليفة القرطبي، المعروف بالمصري لطول إقامته بمصر، اشتهر بالطبّ ورواية الشّعر، توفي سنة ٤٩٦هـ، انظر في ترجمته: ابن بسّام – الذخيرة، ج٤، ص٢٠٤.

(٣) ابن بسام – الذخيرة، ج٤، ص٢١٢ ؛ المقري – النفح، ج١، ص٥٢٩.

(٤) المصدران السابقان.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التاريخ، فكان لها السّبق والأفضليّة عندهم. يقول ابن الحدّاد[١] في وصف قصر أبي يحيى[٢] بن معن الصمادحي:[٣]

فنجومُهُ زُهُرٌ ثوابتُ لَمْ يَرِمْ ... تَعديلَها زيجٌ ولا قانونُ
والمَجْلسان النَّيران تآلفا ... هَذا لهذا في البَهاءِ قَرينُ
كالمُقْلتينِ أو اليَدينِ تأيَّدا ... والحُسْنُ يَعْضُدُ أمرَهُ التَّحسينُ
عُطِفَتْ حَنَاياهُ وضُمِّنَ بَعْضُها ... بَعْضاً وسِحْرٌ ذلكَ التَّضمينُ
كتَقَاطُعِ الأفلاكِ إلا أنَّهُ ... متباينان: تَحرّك وسُكونُ
فَلَكيّةٌ لَو أنّها حَرَكيّةٌ ... لاعتد منها الرأس، والتِّنّيِنُ
تتَعاقَبُ الأعْصارُ فيه، وجُوهُ ... أبَداً بِهِ آذارُ أو تِشْرينُ
سَمَحَتْ فلا تُخْنَى سَواريها لَها ... كَلا ولا تَرْمي بِها فَتَبِينُ
مُتلألئٌ فكأنّما سَالَ المَها ... فيه وذابَ اللؤلُؤُ المَكنُونُ
وكأنَّ مُبْيَضَّ الخُدودِ وضّاءَةً ... صَحْنٌ لَه لا المَرْمَرُ المَسنونُ

إنّ من يُمعن النظر فيما جاءت به قصيدة ابن حدّاد من أوصاف، يكاد يظنّ أنّه يقف بين جنبات القصر متمتعاً بصوره الساحرة الوضّاءة، وللنور سحره في تلك القصور، فقد تناول ابن الحدّاد المجلسين النيّرين، فأعمل ريشة الشاعر فيهما مصوّراً النواحي الهندسيّة وما أعقبها من اعتدالٍ في جوّ المكان إذ لا حرّ فيه ولا برد. ويتابع وصفه للقصر قائلاً:

تَغْشَى بمُذْهَبِ لمْعِهِ، فكأنّما ... أبْدى لديه كنوزَه قارونُ
هو ثالث القَمرينِ في ضوءيهما ... فبِهِ تُضيءُ لنا الليالي الجُونُ
هو جَنّةُ الدُّنيا تَبوّأ نُزْلَها ... ملكٌ تَمَلَّكَهُ التُّقى والدِّينُ
فكأنّما الرّحمنُ عَجّلها لَهُ ... لِيَرى - بما قَدْ كَانَ - ما سَيَكونُ
دَعْني أسِر بَيْنَ الأسِنّة والظُّبا ... فَالقَلبُ في تِلْكَ القِبابِ رَهينُ

---

[١] ابن الحدّاد، أبو عبدالله بن الحدّاد الأندلسي الواد آشي، يعرف بابن الحدّاد، قضى أكثر عمره عند المعتصم بن صمادح ملك المريّة، كانت وفاته في حدود سنة ٤٨٠هـ. انظر في ترجمته: الذخيرة، ج١، ص٤٥٢ ؛ المغرب، ج٢، ص١١٧، المطمح، ص٦٣٦.

[٢] أبو يحيى بن معن الصمادحي التجيبي، حاكم المريّة، وكانت مدّة امارته أربعين سنة، توفي سنة ٤٨٤هـ. انظر في ترجمته: ابن بسّام - الذخيرة، ج١، ص٤٤٣، النفح، ج٧، ص٢٦ أو ٤٠.

[٣] ابن الحدّاد - الديوان، تحقيق منال منيزل، ط١، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٩٨٥، ص٨٤ ؛ العماد - الخريدة، ق٤، ج٢، ص١٩٠-١٩٢ ؛ ابن سعيد - المغرب، ج١، ص١١٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَلعلّــهُ يَــروي صَـداي بلَحْظَــةٍ ... وَجْـهٌ بِـه مَـاءُ الجَمَـالِ مَعِيـنُ
أنـتَ الـهَوى لَكِـنّ سَـلوانَ الـهَوى ... قَصر ابن معـنٍ والحديـثُ شُجونُ
فالحُسـنُ أجمُـع مَـا يُريـكَ عيانُـه ... لامـا أرتْـهُ سَـوالِفٌ وعيـونُ
والـرُّوضُ مَـا اشْتَمَلَتْ عَلَيـهِ سُـهولُه ... لا مَـا أرتْـهُ أبَـاطحٌ وحُـزونُ
قَصْـرٌ تَبَيّنـتْ القُصـور قصورهـا ... عنـه وفَضْـلُ الأفضَلَيْـن يَبيـنُ
فَمِـن ابـن ذي يـزنٍ ومـا غُمَدانُـهُ ... النّقـل شـكٌّ والعيـانُ يقيـنُ

إنّ من يمعن النّظر فيما جاءت به قصيدة ابن الحدّاد من أوصاف يكاد يظنّ أنّه يقف بين جنبات القصر متمتّعاً بصوره السّاحرة الوضّاءة وللنور سحره في تلك القصور، ولعلّ في ذلك النور ما يومي إلى أبعاد نفسية فهذا القصر يشكّل بحاكمه أملاً ينير الليالي الجون لمن ضاقت به السّبل، إذ أصبح محطّ آمالٍ للعديد من الشعراء.

ولهذه القصيدة أهمية أدبيّة وتاريخيّة، إذ تقدّم للمتلقي تفاصيل معمارية مفصّلة وجامعة للعديد من سمات هذا البناء وميّزاته، ليصاغ لوحة نابضة بالحياة تفتن الحواس وتأسر العقول. ويسير ابن الحدّاد في وصفه للقصر في بناء هرمي قاعدته تتمثّل في وصف جماليات القصر وأسباب فضله ودلائل عظمته ثم يرتقي به نحو الفلك ليصل به إلى ذروة الهرم ليتمثّل جنّة الدّنيا التي توازي جنان الخلد.

ويتكرّر الربط بين القصر والجنّة في العديد من القصائد والمقطوعات الشعرية ومن هذا القبيل، قول ابن اللبّانة في وصف قصر الشراجيب[1] مادحاً لصاحبه:[2]

أمَـا عَلِـمَ المعتـدُ بـاللهِ أنّنـي ... بِحَضْرَتِـهِ فـي جَنّـةٍ شَـقَّهَا نَـهرُ؟
وَمَـا هُـوَ نَـهرٌ أعْشَـبَ النّبـتُ حولَـهُ ... ولكنّـهُ سَـيفٌ حَمَائِلُـهُ خُضْـرُ

وقد تمتّعت قصور الأندلس بنصيب وافرٍ من دلائل العظمة في البناء، والفرش، والأثاث، ولم يغفل شعراء هذا القرن عن اثبات ما تقرّ به العيون من أنواع الفرش، وألوانه، فإذا بهم "يعيدون الحياة إلى قصور الأندلس"[3] من خلال قصائد الوصف التي تحفل بالصّور والتّشبيهات

[1] قصر الشراجيب: قصر يمتاز بالبهاء والإشراق في مدينة شلب قاعدة ولاية الغرب. انظر: القلائد، ج١، ص١١٢.

[2] ابن خاقان – القلائد، ج١، ص١١٣.

[3] هنري بيريس – الشعر الأندلسي في عصر ملوك الطوائف، ص١٠٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المنمّقة بألوان الجمال وضروبه. ومن ذلك قصيدة كتب بها عبدالله بن مطروح إلى الخليفة "زهير"[١] عند احتفاله في عُرسه. يقول فيها:[٢]

وكَفَاكَ تَشْريفاً وفَخْراً أن تَرى ... بـ "الجَعفري" مؤهلاً لبناء
قَصْر غَدَا فيهِ السّرورُ مُعرساً ... يَغشى العيونَ بساطع اللألاء
تطَا الدَّمَقْسَ بأرْضِهِ أقْدَامُنا ... عِوَضاً مِن الآجر والبوغاء[٣]
ونَرى نَمارِق صُوِّرتْ مَصفوفَة ... موشيّة الأقْطارِ والأرْجاء
مِن أبْيَض في أحمرٍ قَد أشْبَها ... صِلفَ الغُواة وخَجلةِ العَذْراء
أرْض دَحاها حُسنَها مِن سُنْدُسٍ ... مُتَهلّل كَالرُوضَةِ الغنّاء
بُنيتْ على أرْضِ الدَّمَقْس ستوره ... في خالص العِقيانِ خيرَ سَماء
لَولا تَناهي حُسنَه لَمْ نَختلِف ... أنّا حَلَلنا مِنهُ في صَنْعاء

لقد اكتنفت مشاعر الغبطة والسّرور أبيات القصيدة، فجاء وصف القصر بهجا يسرّ النّفس، فالأرض قد فرشت بالدّمقس، وقد زيّنت النمارق أرجاء القصر بما تحويه من وشيٍ وألوانٍ موحية مشرقة. وإذا كان صاحب القصر هو من يعمد إلى البناء والتّزيين في محاولة لبلوغ ذروة المجد من بما عمّر وشيّد رغبة في تخليد الذّكر وتعظيم الشأن، وامتلاك أسباب السّعادة من نعيم الدّنيا، فإنّ الشّاعر الذي يصف القصر يمثّل العين التي ترى لكلّ من لم تُتح له فرصة المشاهدة والتفحّص، لبعدٍ في المكان أو لاختلاف في الزّمان، فالشّاعر يشيّد القصر في قصيدته، ويبنيه في مخيّلة المتلقّي.

وقد تنافس الكثير من الشّعراء في الأندلس وصولاً إلى أعلى درجات الإبداع في وصف القصور، كُلٌ يحاول الإحاطة بآيات الجمال وطرحها في قصيدته التي تعظّم انجازات الحاكم المعماريّة وتثبت فضلها وتفوّقها وتبرز هذه المنافسة في العديد من القصائد على نحو ما جاء

---

(١) زهير: هو أبو القاسم الصقلي العامري حاكم المريّة بعد وفاة أخيه وصاحبها خيران "ت ٤١٩هـ"، وحكم مرسية وأوريولة، وامتدّ حكمه حتّى شاطبة شرقاً وحتى بياسة وقرطبة شمالاً. انظر: ابن عذارى، محمد المراكشي، "ت ٦٩٥هـ" - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج.س كولان، و إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة - بيروت، ١٩٨٣. ج٣، ص١٦٩-١٧٢.

(٢) أبو عبدالله بن مطروح السرقسطي – روضة المحاسن وعمدة المحاسن، تحقيق منجد مصطفى بهجت، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٨م. ص٨٥.

(٣) البوغاء: التراب عامة. انظر: اللسان مادة (بوغ).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عند أبو الحسن الحُصَري في قصيدة له في المعتمد.[١]

فالشاعر يعبّر عن نزعة التنافس، والرغبة في التفوّق في نفس الحاكم، وهو يحقّق للحاكم رغبته من خلال التأكيد على عظم مدينة قرطبة التي تدين لها بغداد، ثم ينتقل من الأعمّ إلى الأخص، إذ يتناول القصر الذي ينافس إرما ذات العماد، ويفوق قصور بني أميّة وأبنيتهم، ومن هذا القبيل في الوصف والتّفضيل قول الحُصري من قصيدة أنشدها المقتدر حين غلب علي بن مجاهد العامري على دانية:[٢]

فتَحتَ معاقِلاً لو أبصروها ... لقَالوا أنْتَ لُقمانُ بنُ عادِ
وفي سَرَقُسطةٍ[٣] لك دارُ مُلكٍ ... زَرَيْتَ بها على ذاتِ العِمادِ

وإذا كان القصر الموصوف عند العديد من الشّعراء يفوق غيره من القصور والأبنية العظيمة، فقد يلجأ الشاعر أحياناً إلى الحطّ من قدر تلك القصور وتهوين أمرها والتقليل من شأنها، كل ذلك كي يميّز قصره عمّن سواه من القصور العظيمة والأبنية الفخيمة على نحو ما صنع أبو بكر بن عمّار[٤] لمّا وصف قصر الدمشق جاعلاً منه، وقد نام فيه ليلة مفخرة الدنيا، فقد أحاطت به الحدائق بأزاهيرها المختلفة الأشكال والألوان، وتضوّع أريج الرياحين ففغم الأنوف بعطره، ورقّ خرير الماء بموسيقاه العذبة، وتفتّق الفجر عن شفق أحمر يطرد ظلمة الليل، فبدا القصر عند الشروق وسط الخمائل باسقاً أشمّاً يبهر الناظر. يقول:[٥]

كُلّ قَصْرٍ بَعْدَ الدّمَشْقِ[٦] يُذَمُّ ... فيه طابَ الجَنَى وفَاحَ المَشَمُّ
مَنْظَرٌ رائقٌ ومَاءٌ نَميرٌ ... وثَرىً عَاطرٌ وقَصْرٌ أشَمُّ
بِتُّ فيه واللّيْلُ والفَجْرُ عندي ... عَنْبَرٌ أشْهَبٌ ومِسْكٌ أحَمُّ

---

[١] ابن بسّام – الذخيرة، ج٤، ص١٥٨.

[٢] المصدر نفسه، ج٤، ص١٥٩.

[٣] سرقسطة: مدينة كبيرة تعدّ من قواعد الأندلس، امتازت بحسن مساكنها، وسعة شوارعها، ولها سور بحارة حصينة، وفيها جسر عظيم. انظر: الروض المعطاء، ص٣١٧.

[٤] أبو بكر بن عمّار، محمد بن عمّار بن الحسين بن عمّار المهري ذو الوزارتين، أصله من قرية تعرف بشنبوس، قتل على يد المعتمد بن عبّاد. انظر في ترجمته: الذخيرة، ج٢، ص٢٢١ ؛ الحلّة السيراء، ج٢، ص٤٧١ ؛ القلائد، ج١، ص٢٥٥ ؛ النفح، ج١، ص٤٧٠.

[٥] النفح، ج١، ص٦٧١.

[٦] دمشق: قصر عظيم شيّده بنو أميّة فأبدعوا في صنعه، وهو في مدينة قرطبة. انظر: النفح، ج١، ص٦٧١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إنّ حواسّ ابن عمّار تنطق معبّرة عن عبق القصر، وعظمة منظره، فما قصر سواه يروق حسنه لابن عمّار الذي شهد بين جنباته لحظات خالدة مترعة بكلّ أسباب السّرور.

ويلحظ الباحث أنّ الشّاعر الأندلسي قد خصّص العديد من المقطوعات الشعريّة، والقصائد المطوّلة التي تصوّر ما تلتقطه عينه الباصرة، المكتنفة بمشاعر الإعجاب والتقدير من صور للقصور الأندلسيّة. ليقينه – غالباً – أنّ وصفه للقصر قد أصابَ موضع الرّضى والقبول لدى الحاكم الممدوح، إذ لعب الحاكم أو صاحب القصر دوراً بارزاً في شعر وصف القصور، فالحاكم الذي جعل من التميّز المعماري هاجساً له، وفتح أبواب قصوره للشّعراء فأكرم مثواهم، وشجّعهم على تعظيم ملكه، وتخليد مواضع الحسن فيه، استطاع أن يغزو بما شيّد قصائد الوصف، ويحتلّ مكانة مرموقةً بين حكّام الأندلس. ومن أشهر ملوك الطّوائف الذين جمعوا بين عظم الملك وتقدير الشّعراء واستقطابهم المعتمد على الله محمد بن عبّاد، الذي جرت لقصوره وأبنيته أوصاف طار ذكرها في الآفاق شهرةً. يقول أبو محمد بن وهبون[١] وقد دقّق في وصف أحد قصور المعتمد[٢]:

مَحَلُّ ألبَسَ الدُّنيا جمالاً ... وإنْ فَضَحَ المقاصِرَ والخِلالا
بِنَاهُ كَما بَنَى العَلْيَاءَ بَانٍ ... تُشِيدُ مآثراً ويُبيدُ مَالا
وللزّاهي الكَمالِ سَناً وحُسناً ... كما وسِعَ الجلالَةَ والكمالا
يُحاطُ بشكلِهِ عرضاً وطولاً ... ولَكِن لا يُحاطُ بِهِ جمالا
تَواصَلَتْ المحاسِنُ فيهِ شتّى ... فوفدُ اللّحظِ ينتقِلُ انتقالاً
وَقورٌ مِثلُ رُكنِ الطّوْدِ ثَبْتٌ ... ومُختالٌ مِنَ الحُسْنِ اختيالا

يصف ابن وهبون بإحساس مرهف أحد قصور المعتمد في مدينة إشبيليّة وهو قصر الزّاهي الذي يعدّ من مآثر المعتمد بن عبّاد، ويعطي ابن وهبون صورة بديعة لهذا القصر، إذ يبرز فضله من خلال، تصويره لمشاهد بأعيانها تمثّل ذروة الكمال والحسن، فنجد في هذه القصيدة صوراً بالغة الدّقة تحرّك الحوّاس، وتدفع المخيّلة إلى الارتقاء لتصوّر ذلك القصر المختال في وقاره وحسنه.

---

[١] أبو محمد بن وهبون: هو أبو محمد عبدالجليل بن وهبون المرسي، توفي في حدود عام ٤٨٠هـ. انظر في ترجمته: الذخيرة، ج٢، ص٣٠٥ ؛ المطرب، ص١٠٨.

[٢] ابن بسّام – الذخيرة، ج٢، ص٣٠٥-٣٠٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تَدافَعَ مِن جَوانِبِه ائتلافاً ... فكادَ المُستبينُ يقولُ مالا
فلَوْ أدنو حرامَ السّحْرِ مِنْهُ ... لأضحى يعبدُ السّحرَ الحلالَ
سَماءٌ ترتمي بعُبابِ بَحرٍ ... كأنَّ بها إكاماً أو تلالا
فَقَدْ كَادَ اللبيبُ يُهالُ مِنهُ ... ويَحسبُ أنَّ بَحرَ الجَوِّ سَالا
وللبَهوِ البَهيِّ سَماءُ نورٍ ... تُمثِّلَ شَكْلَها حلَقاً دِخالا
مُزَخرفَةٌ كَأنَّ الوَشْيَ ألقَى ... عليها من طرائقِهِ خيالا
ومَا خِلتُ الهواءَ يكونُ روضاً ... ولا سَقفاً يَكونُ كَذاكَ آلا
بلى حَقَقْتُ أنَّ النّارَ كانَتْ ... لَه ظِئراً وعُنصرُهُ زلالا
فلَم أعْدِلْ بِجَامِدِه مُذابا ... ولم أنكر لندوته اشتعالا
وكُلَّ مصوّرٍ حيٌّ جمادٌ ... تبين فيه زهوا أو دلالا
له عَملٌ وليسَ لهُ حَراكٌ ... وافهام وما أدى مقالا
ويُفرِغ فيه مِثلَ النّصلِ بِدعٌ ... من الأفيال لا يشكو ملالا
رَعى رَطِبَ اللجَيْنِ فجَاءَ صَلداً ... وقاحا قلما يخشى هزالا
كأنّ به على الحيوانِ عَتْباً ... فلم يرفع لرؤيتها قذالا

يظهر القصر في هذه القصيدة، وقد زين بالزخارف والتماثيل الحية الناطقة بالإبداع، ويقف بصر الشاعر عند تلك التماثيل الفضية التي أحاطت بالبركة متمعنا فيها لتتمكن ريشته من الإحاطة بتفاصيل ما يصوره في لوحة الكمال. فبين القصور وما فيها من برك وتماثيل تتداعى أوصاف الشعراء وصورهم. ووقوف الشاعر عند ذلك المشهد المشتمل على البركة والتماثيل يشي باقتدار على الإبداع وتمكنه من أدواته الفنية، وبلوغه ما يريد في وصف ما افتتن به. ومما يؤكد استحقاق ذلك المشهد لما قيل فيه من وصف ما نجده عند شاعر أندلسي آخر، قد استحوذ سحر تلك البركة على مخيلته، وأدهشه منظر الماء وهو يجري من الفيل المصنوع من الفضة، وقد أوقدت شمعتان من جانبيه. فيقول أبو بكر بن الملح[1] بديهة مقطوعات في ذلك منها[2]:

ومشعلين من الأضواء قد قرنا ... بالماء والماء بالدولاب منزوف
لاحا لعيني كالنجمين، بينهما ... خط المجرة ممدود ومعطوف

---

(1) أبو بكر بن الملح هو الوزير الفقيه أبو بكر محمد بن إسحاق اللخمي الإشبيلي من أهل شلب يعرف بابن الملح وابن الملاح. انظر في ترجمته: (القلائد، ج٢، ص٥٥٩ ؛ النفح، ج٤، ص٢٦٤ ؛ ابن سعيد المغرب ج١، ص٣٨٣).
(2) ابن بسام – الذخيرة، ج٢، ص٨٣ ؛ المقري – النفح، ج٤، ص٢٦٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد وقف ابن الملح من هذا المشهد وقفة المستلهم الحائر بين بريق الواقع، وتعدّد انعكاساته في المخيّلة التي تدفّقت صوراً بديعة من وحي ذلك النبع الثرّ، الذي انسحبت عليه أذيال الإبداع والجمال.

ويجد الباحث في شعر وصف القصور والبرك أنّ ابن حمديس يبرز في طليعة من كان لهم طول باعٍ في هذا الميدان، فقد تفنّن في صياغة القصور شعراً استاغته الأذان، وهتفت به الألسنة، فبلغ غاية الإبداع في فنّ الوصف. يقول ابن حمديس في وصف دارٍ بناها المعتمد بن عبّاد[٣]:

ويا حبّذا دارٌ يدُ الله مَسّحَتْ ... عَلَيْها بتجديدِ البقاءِ فما تبلى
مُقَدّسَةٌ لو أنّ موسى كليمَهُ ... مَشَى قَدَماً في أرضها خَلَعَ النّعلا
وما هي إلا خطةُ الملِكِ الّذي ... يحطّ لَدَيْه كُلّ ذي أمَلٍ رَحْلا
إذَا فَتَحت أبوابُها خلتَ أنّها ... تقولُ بترحيبٍ لداخلها: أهلا
وَقَدْ نَقَلتْ صُنّاعُها من صفاته ... إليها أفَانيناً فأحْسَنتِ النّقلا
فمن صدره رحباً ومن وجهه سناً ... ومن صيته فرعاً، ومن حلمه أصلا
وأعلتْ بها في رتبةِ الملك ناديا ... وقلّ له فوق السماكَيْن أنْ يُعلى

إنّ الشاعر يرى أنّ القصر خالدٌ باقٍ؛ لأنّ مشيئة الله هي التي شيّدته وجددّت له البقاء، ولذلك استحقّ القداسة والطهر، فحري بمن يدخله أو يسير بين جنباته وعرصاته أن يخلع نعليه. وقد ظهر القصر غايةً للشعراء وقبلة للأدباء يأتون إليه وافدين من كل مكان؛ لعظم مكانة صاحبه. حيث أضحت محطّا للآمال، ترحّب بقاصدها، فينال فيها مبتغاه وفي هذا الوصف توظيف شائق لما يطرحه ابن حمديس من صفات للدّار المعتمديّة في مدح المعتمد، فقد أسقط عليها ما يتوخّاه في المعتمد من صفات، ووفّق في مزجه بين مدح المعتمد ووصفه لداره. ويتابع ابن حمديس قائلاً:

كأنّ عُيُونَ السّحْر نافذةٌ له ... على كلّ بانٍ غايةً منه أو فضلا
تجوزُ له الأمواهُ بركةَ جدولٍ ... تخالُ الصّبا منه مُشطّبةً نصلا
إذا اتّخذَتْها الشمسُ مرآة وجْهِها ... أحالتْ عليها من مداوِسِها صَقْلا
ترى الشمسَ فيه ليقةً تستمدّها ... أكفٌ أقامتْ من تصاويرها شكلا

[٣] ابن حمديس، أبو محمد عبدالجبار بن حمديس الصقلي، "ت ٥٢٧هـ" - الديوان، تحقيق إحسان عبّاس، دار بيروت للطباعة والنشر، دار صادر - بيروت، ١٩٦٠م. ص٣٧٨-٣٨٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لـها حركـاتٌ أُودِعَـتْ فـي سُـكونها ... فما تَبِعَـتْ فـي نقلـهنّ يَـدٌ رِجْـلا
وقـد تـوّج البـهو البـهيّ بقبّـةٍ ... فقلْ في عروسٍ في جلابيبـها تُجلى
تجمعـتِ الأضـدادُ فيـها مصانعـاً ... ولم أرَ خَلقـاً قبلـها جَمَـعَ الشّـمْلا

وتكثر في هذه القصيدة صور الحسن المفعمة بمختلف أشكال الإبداع ، إذ وصـف ابـن حمديس صورة البركة ، وما يحيط بها من تصاوير تُشيع الحياة في أرجاء المكان لما توحي بـه من حركات ناطقة. ويعرج ابن حمديس على البهو وقبته بتصوير يوحي بأجواء البهجة والسرور فقد جعل من البهو عروساً قد زيّنت بالقبّة تاجاً يزيدها حسناً ومكانةً، ولم يقف ابن حمديس عنـد هذا الحسن طويلاً، إذ نجده ينتقل إلى صورةٍ جديدة، فيقول:

وأغـربُ مـا أبصـرتُ بعـد مليكـها ... بها مُتْرَعٌ يعـدي الشـجاعة والبـذلا
تنـادمُ فـي غنّـاءَ غنّـت حَمَامُـها ... فـوارسَ أغصـانٍ ترجّحـها حمْـلا
إذا شَـربتْ وُدّ المؤيّـد صـيّرَتْ ... خلائقَـهُ راحـاً ورؤيَتَـهُ نُقْـلا
كـأنّ مـها الأخـداج حلّـت سـماءَها ... وإن لـم تكـن إلا حنياتـه بُـزلا
كـأنّ سـهاما أُرْسِـلَت عـن قسّـيها ... فَما عَدِمتْ عينُ الحسودِ بـها سَـمْلا
ومـا شـئتُ ممـا لـو عُنِيـتُ بِوَصْفِـهِ ... سـلكتُ إليـه كـلّ قافيـةٍ سـبلا
فتحسـبُ مـا فـي الأرض مـن حيوانـها ... رَقَى شَرَفاً فيه إلـى الفلـكِ الأعلـى
ولمّـا عَشـينا مِـنْ تَوَقّـد نورهـا ... تَخِذْنَـا سَـنَاهُ مـن نَوَاظِرنـا كُحْـلا
فيـا دارُ أغضـى الدّهـرُ عنـك وأكـثرت ... أسودُكِ نسـلا فيـه يختتـل النّسـلا

وليس أدلّ على إبداع ابن حمديس في وصف الأبنية من هذه القصيدة التي وصـف بـها قصر المعتمد فأجاد في وصفه. وقد أشاد صاحب " النّفح " بوصف ابن حمديس للمباني والـبرك، وذكر فضله وتميّزها في هذا الموضوع خصوصاً[1]. إذ استطاع أن يفتن المتلقّـي بحسـن مـا يصف من دارٍ تفوق بصنعها كل وصف وتسمو على ما بناه الأنس والجنّ، فجعل من قصيدتـه سجلاً دوّن فيه ما يراه من مآثر هذا القصر. وقد أكّد ابن حمديس على إيجازه فيما وصف مـن دلائل حسن هذا القصر التي لو عني بوصفها " لاتّخذ من كُل قوافي الشعر سبيلاً لذلـك ". ولـن تضيق بابن حمديس سبل الوصف، فقد ضمّ ديوانه قصائد تُعدّ من عيون الشّعر الذي جـاء فـي وصف القصور.

---

[1] المقرّي – النّفح، ج١، ص٤٩٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبرز في شعر وصف المدن ذلك القدر العظيم من اهتمام شعراء هذا القرن بوصف البرك والتماثيل التي اتخذت أشكالاً متنوعة، فقد ازدانت بها القصور والحدائق والمتنزهات، فتبوأت مكانة مميزة في نفس من يشاهدها. يقول أبو الحسن بن هارون:[1]

وحديقةٍ شَرِقَتْ بغَمْرِ نميرها ... يَحكي صفاءُ الجوّ صَفْو غديرِها
تُجْري المياه بها أسُود أُحكِمَتْ ... مِن خالِصِ العِقيانِ في تصويرها
فكأنّها أسُدُ الشّرى في شكلِها ... وكأنّ وقع الماءِ صوت زئيرِها

لقد اصطبغ ذلك المشهد بألوان شتّى من ضروب الجذب، فلفت الأنظار، واستثار المخيّلة، فكانت القصائد التي تثبت روعة ذلك المشهد من خلال طرحها لصفاتٍ تدور في محاور متقاربة، تبرز قدرة الشاعر ودقته في التصوير. وقد دارت الأوصاف حول مادّة الصّنع التي تتمثّل – غالباً – بالمعادن الثّمينة من ذهبٍ أو فضّة، أو قد تشكّل من الرخام. يقول التطيلي في وصف أسد من الرخام يرمي الماء على بحيرة:[2]

أسدٌ ولَو أنّي أنَا ... قِشْهُ الحِسابَ لَقُلْت صخرة
وكَأنّ أسَدُ السَما ... ءِ يَمُجّ مِنْ فيهِ المجرّة

لقد عُني الشاعر بالصورة الضوئيّة وما للرخام والماء من بريق، فربط صورة ذلك المشهد بصورةٍ فلكية زادتها سحراً، وألقت أنوارها على ذلك التّمازج الموحي بين التّمثال والمياه المتحرّكة أو المتدفّقة منها.

هذا وقد تنوّعت أشكال تلك التصاوير، فقد تجد تصاوير حيوانات قويّة مثل: الأسود، أو الأفيال، وقد يجمع المشهد بين الحيوانات المختلفة.

وعلى الرّغم من تحريم الإسلام لتلك التصاوير، إلا أنّ شعراء الأندلس في هذا القرن لا يجدون حرجاً في التغنّي بدقّة صنعها، فنجد أن بعض الشعراء قد فاخر بفضل تصاوير الجمادِ على الحيوان، وارتقى بها إلى أعلى درجات الكمال في تصوّره.

---

[1] أبو الحسن بن هارون الشنتمري، وهو علي بن محمد بن سعيد بن هارون أبو الحسن، كان بارع النظام، سهل الكلام. انظر في ترجمته: الذخيرة، ج٢، ص٣٧٦ ؛ المغرب، ج١، ص٣١٥.

[2] النفح، ج٣، ص٤٠٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد كان لفنّ التّصوير لذّة قويّة في عيون الشّعراء، ونفوسهم ولا يقف فنّ التّصوير الّذي شاع في الدّيار الأندلسيّة عند ما ذكر من تماثيل، بل يتعدّاه ليشمل الزّخارف، والنّقوش الّتي توشّت بها القصور والمجالس. يقول البَطَلْيَوسي، وقد حضر مجلسا عند الظافر بن ذي النّون[1] فوصفه[2]:

وَمَجلسٍ حَمّ الملاهي أزهَرَا ... ألذّ في الأجفان من طَعْم الكَرَى
لم تَرَ عين مثله ولا ترى ... أنفسَ في نَفسي وأبهى مَنْظَرا
إذا تَرَدّى وشْيَه المُصَوّرا ... من حَوكِ صنعاء وحوك عبقرا
ونسج قرقوب ونسج تُسترا ... خِلْتُ الرّبيعَ الطّلق فيه نَوّرا

يصف البطليوسي حسن ذلك المجلس الذي قلّ نظيره، لما حواه من وشي فيه تصاوير باهرة الإبداع، فكأنّها نسجت على أيدي أمهر الصّنّاع وأحذقهم، لما توحيه من نضارة الرّبيع وبهجة منظره.

لقدِ أحاطت القصيدة الأندلسيّة بوصف القصور بما تختال به من فنونٍ عامرة بالذّوق الرّفيع تروق لناظرها، ويجد الباحث أنّ ما جاء من شعر في وصف قصور الأندلس يتراوح بين قصائد وصف رائقة لا تخلو من ذكر لصاحب القصر، وبين قصائد مدحٍ توظف ما تعرض له من وصف لحسن القصر وفضله لإبراز مآثر الممدوح، يقول عبدالجليل بن وهبون:[3]

فَيا أيُّها القصر "المبارك"[4] ... وأنت جديد الحلّتين قشيبُ
ويا أيّها الملكُ المؤيّد دُم بِهِ ... ليُترَعَ[5] كوبٌ أو يثارَ عكوب
أسِمْ فيه سَرْحَ اللحظ من طَرْف باسل ... مَرادُ الوغى في ناظريه عشيبُ
ستظأره أُمّ النجومِ تخاله ... لها كوكباً لا حان منه غروبُ[6]
مُحيطٌ بِمَا أخبَئتَ مِنْ كُلِّ صُورَةٍ ... تروقُكَ حتّى شَكلُهُنّ قريبُ

---

(١) الظافر بن ذي النّون: هو الظافر بن عبدالرحمن بن عبيدالله بن ذي النّون.

(٢) المقري – أزهار الرّياض، ج٣، ص١٢٧؛ المقري – النفح، ج١، ص٦٥٠.

(٣) ابن بسّام – الذخيرة، ج٢، ص٣١٠.

(٤) المبارك: قصر المبارك أحد قصور المعتمد بن عبّاد في مدينة قرطبة. انظر: النفح، ج١، ص٤٦٣.

(٥) يترع: يملأ. انظر: جمال الدين محمد بن منظور المصري – لسان العرب، ط٣، دار صادر – بيروت، ١٩٩٤م. مادة (ترع).

(٦) ستظأره: من الظئر: وهي العاطفة على غير ولدها. انظر: اللسان (ظئر).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومـــن حُبُـــكٍ دون السُّـــموك كأنّـــــها أفاريدُ رَوْضِ الحَزنِ وهـــو هضيـب
إلـى طُـــرَرٍ تحكـــي أصـــائلَ ملكــه تكـادُ بـأنداء النضـــار تصــوبُ
ومِـنْ مرمــرٍ أحـــذاهُ رونقـــهُ المـــها فأخطأ فيـــه اللحـظُ وهـو مصيـب
وبحـــرٍ عليـــه للريـــاحين فيئـــة كيمنـاك مخضـرّ الـبرود لحـوبُ

وقد وظّفت القصور في بعض القصائد لأداء دور مغاير لما ذكر آنفاً. يقول ابن زيدون مشوّقاً المعتمد إلى تعاطي الحميّا في عدد من قصوره:(١)

أمّـــا "الثُّريّـــا" فالثُّريّـــا نَصبَـــةٌ وإفـــادَةً وإناقـــةً وجَمَـــالا
قـــد شـــاقها الإغْبَـــابُ حَتّـــى إنَّـــهَا لو تَسْـتطيعُ سَـرَت إليْـكَ خَيَـالا(٢)
رِفْـــهُ وُرُودِكَـــهَا لِتَغْنَـــمَ رَاحَـــةً وأَطِـلْ مَزَارَكَـــهَا لِتَنْعَـمَ بَـالا
وتَمثَّـــل القَصْـــرَ "المُبَـــارَكَ" وَجَنَّـــةً قـد وُسِّـطَتْ فيـها "الثُّريّـا" خـالا
وأَدِرْ هُنَـــاكَ مِـــنَ المُـــدَامِ أتَمَّـــها أرَجـاً زكَـا وأشَـفَّهَا جِرْيَـالا(٣)
قصـــرٌ يُقَـــرُّ العيـــن مِنْـــهُ مَصنَـــعٌ بَهِجُ الجَوَانـب لـو مَشَـى لاختـالا
لا زِلْـــتَ تَفْـــتَرِشُ السُّـــرور حَدَائِقـــا فيـه وتَلْتَحِـفُ النَّعيـمَ ظِـلالا

لقد أفاد ابن زيدون من وصفه لقصور المعتمد بن عبّاد في سياق دعـوة وجهـها إلـى صاحب القصور للحلول فهيا، فمنحها من خلال وصفه لمحاسنها، وجهاً جاذباً يشوّق من خلالـه المعتمد إلى ما فيها من أسباب النعيم والسّرور. وقد جعل ابن زيدون من القصور لساناً يعبّر عـن رغباته وتطلعاته، إذ أسقط عليها ما في نفسه من شوق إلى لقاء المعتمد بن عبّاد. ومن هذا القبيل قول المعتمد بن عبّاد:(٤)

حســدَ القَصْـــرُ(٥) فيكُـــم الزّهـــراءَ ولعَمـــري وعمرُكُـم مـــا أسَـــاءَ!
قَـدْ طَلعتُـــم بـــها شُمُوســـاً صَبَاحـــاً فـاطلعُوا عندنـا بُـدُوراً، مسـاءَ

---

(١) ابن زيدون – الديوان، ص٥٢٠-٥٢١.

(٢) الإغباب: الترك. انظر: الديوان، ص٥٢٠.

(٣) النفح: من المدام كؤوسها وأتمّها، واشفّها جريالا.

(٤) المعتمد بن عبّاد – الديوان، ص٤٨؛ ابن خاقان – القلائد، ج١، ص٦٦.

(٥) القصر: هو قصر البستان بباب العطارين بقرطبة، وهو من قصور المعتمد المتميّزة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد عبّر المعتمد عن رغبته في قدوم ابن سرّاج[١] الذي حضر مع الوزراء والكتّاب بالزّهراء إلى قصره فوظف القصر للتعبير عن تلك الرغبة.

لكنه لم يصف القصر ولم يُشِد بحسنه كما فعل ابن زيدون، وهنا لا بدّ من التنويه إلى أن هناك اختلافاً بين تناول الحاكم الشّاعر لقصوره وأبنيته، وبين ما جاء من وصف لتلك القصور على ألسنة الشّعراء، فالقصر الّذي يدهش من يَفِدُ إليه من الشّعراء، ويدفعهم إلى التغنّي بحسنه، لا يَعد كونه المنزل المألوف للحاكم، وإن أدرك فضله وحسنه، وسعى إلى السموّ به إلى غاية الإبداع، فالألفة تلغي ذلك الشّعور الغامر بمواطن الجمال وما يرافقه من دهشة وانبهار يتدفّق قصائد شعريّة تتألّق حسناً.

ولذا نجد مقداراً من التّفاوت في القصائد التي قيلت في وصف القصور تبعاً لطبيعة الحياة الّتي عاشها الشّاعر، فالشّاعر الذي عاش في القصور وألف نعيمها يختلف في وصفه عن الشّاعر الذي واجه عبوس الحياة فما أدرك فيها دار نعيم ثم حلّ في قصر تمثّل له جنّة الفردوس. فاندفع في وصفه شغفاً بما رآه من إبداع وإتقان ورغبة في إرضاء صاحب المكان الذي يتمثّل أملاً منشوداً له.

يقول أبو الحسن غلام البكري[٢] في وصف بعض المصانع السلطانية المعتمديّة[٣]:

أقَرنُ الغزَالةِ أم مَعقِلُ ... يكادُ الجمادُ به يَعقِلُ
قرارةُ أُنسٍ تُبِنُ الظبَاء ... به والضراغمةُ البسَّلُ
وتجرّدُ أفواهُها في الصفَا ... سُيوفاً بِشمسِ الضُّحى تُصقَلُ
ولَيسَتْ سُيوفاً ولَكنّها ... لضَامي الثّرى مَنْهَل سَلسَلُ
تَشقّ المِياهَ بِهنّ المياهُ ... كَما شقّ في اللأمةِ المَنْصلُ
مَحاسِنُ للروضِ فيّاضةٌ ... بِها تَضعُ الأرضُ ما تحملُ
تُرضّعُ أطفالَ أشْجارِها ... ضروعُ مثاعِبِها[٤] الحفّلُ
يَلي الحَوضَ مِذْنَبُه مِثلَما ... حَنا الرّدف واندمَجَ الأيْطلُ[٥]

---

[١] ابن سرّاج، هو الوزير الفقيه أبو الحسن ابن سرّاج. انظر في ترجمته: المغرب، ج١، ص١٩٤.

[٢] أبو الحسن غلام البكري، أديب وشاعر محسن من شعراء الدّولة العبادية. بغية الملتمس ص٢٤٠ وفي موسوعة شعراء العرب ٢/٨٢٢).

[٣] ابن بسّام – الذخيرة، ج٢، ص٣٣٥-٣٣٧.

[٤] المثاعب: مفردها مثعب، وهو مسيل الماء من الحوض، وغيره، أو الميزاب.

[٥] الأيطل: الخاصرة كلها. انظر: اللسان مادة (أطل).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تَلُــفُّ الـــثّرى فـــي بـــرودِ الرّبيـــعِ   إذا عـــزّتِ الرَوضَـــةَ الشـــمألُ

يطالعنا البكري في قصيدته بمشاعر الدهشة التي تحيط بنفسه أمام هذا البناء العظيم، وقد وظّف دهشته لتقوية عنصر التشويق لدى المتلقي الذي يقوده الشطر الأول من البيت الأول إلى تلمّس مواطن الإبداع وانتظار ما يُعزّز من وقعها في النفوس.

ولا شدّ ما يلفت انتباه الشعراء ما في القصور من تصاوير للحيوانات والنباتات، فها هو البكري يبدأ بوصفها، متّخذاً من صور الطبيعة سبيلاً لنقل لوحته الشعريّة بأبهى حلّة. ويقول متابعاً:

كَـــأنّ تَمـــاثيلَ جُدرانِـــهِ   عَلَـــى مَـــنْ يُقابِلـــها تُقْبِـــلُ
تُبيـــن بِفَصْـــلِ الخِطـــابِ الفَصيـــح   لَديـــكَ وإنْ أخـــرسَ المقـــولُ
وتَرْنـــو مَـــا راقَـــهَا مَنْظـــرٌ   وتُصغـــي ومَـــا رابَـــها أزْمَـــلُ
تَـــودُّ الكَواكِـــبُ لـــو أنّـــهُ   لَـــها يَعْتلـــي أو لَـــه تَـــنزلُ
ولَـــو ظَفَـــرتْ بِـــالمُنى لَـــمْ تَـــزَل   حَفافيـــهِ تَطلُـــعُ أو تـــأفُلُ
يَنـــمُّ سَـــماهُ بِإسْـــرارِهِ   فَتعلَـــمُ عينُـــكَ مـــا تجْـــهلُ
ويَجْـــري عَلَيـــها فرِنْـــدُ الحَبـــورِ   فكُـــلّ كئيـــبٍ بـــه يَجْـــذَلُ
وتكـــرِعُ فـــي مَـــاءِ لألائِـــهِ   ظمـــاءُ العُيـــون ولا تَنْـــهَلُ

لقد ثارت دهشة البكريّ أمام عظمة ما يراه في أبنية المعتمد، فأخمدها من خلال قصيدة بثّ فيها ما يتوهج في مخيلته من دفقات تبوح بعمق الأثر الذي تتركه تلك المباني في نفسه، ووصف البناء وبركته، ومجلسه، فأتى على ما فيه من حُسن وسموّ ينيف به على كواكب السّماء.

وقد تناول شعراء القرن الخامس موضوع وصف المجالس في شعرهم ومزجوا – كما هو الحال في وصف القصور – بين وصف المجلس ومدح صاحبه، فقد كان حلول الممدوح في أحد مجالسه – أحياناً – يمثل دافعاً قوياً يحرّك مخيلة الشعراء فتتدفق القصائد واصفة حُسن المكان كاشفةً عما يستجليه الشاعر من أسرار الجمال في عمارته وطبيعته.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقول ابن السّيد البَطَلْيَوسي في وصف مجلس الناعورة في المنية، بعد أن حضر مع المأمون بن ذي النّون فيها:(١)

يا مَنْظَراً إنْ نَظَرْتُ بَهْجَتَهُ … أذْكَرَني حُسْنَ جَنَّةِ الخُلْدِ
تُرْبَةُ مِسْكٍ، وجَوُّ عَنْبَرةٍ … وَغَيْمُ نَدٍّ، وطَشُّ مَا وَرْدِ
والماءُ كاللاّزَوَرْدِ قَدْ نَظَمَتْ … فيه اللآلي فَواغِرُ الأسْدِ
كأنّما جَائِلُ الحَبَابِ بِهِ … يَلْعَبُ فِي جانِبَيْهِ بِالنَّرْدِ
تَرَاهُ يَزْهُو إذا يَحُلُّ بِهِ الـ … ـمَأمونُ زَهْوَ الفَتَاةِ بِالعِقْدِ
كأنّما أُلْبِسَتْ حدائِقُهُ … ما حَازَ مِنْ شِيمَةٍ ومِنْ مَجْدِ
كأنّما جادَها فَرَوَّضَهَا … بوابِلٍ مِنْ يمينِهِ رَغْدِ
لا زَالَ فِي رِفْعَةٍ مُضاعَفَةٍ … متمَّمِ الرِّفْدِ وَارِيَ الزَّنْدِ

لم ينقطع شعر وصف القصور والمجالس من ذكر لطبيعة الأندلس السّاحرة الّتي أحاطت بالمنشآت فمنحتها منظراً يُذكر حسن جنان الخلد وابن السيّد يبسط بين يدي المتلقّي صوراً تُعدُّ نماذج للحسن. فيصف المجلس بحدائقه المتألّقة، وبتربتها المسكيّة، وجوّها المعتدل، ومياهها العذبة المتدفّقة من أفواه الأسد. وقد راوح ابن السيّد بين مدح المأمون، ووصف المجلس الذي يزهو بالمأمون وأمجاده.

وقد عُني أثرياء القرن الخامس ببناء المجالس، وتفنّنوا في تزيينها أسوةً بمن سبقهم من الحكّام والسلاطين. وقد دوّنت بعض الأشعار التي قيلت في ذكر تلك المجالس، ومن ذلك أنّ "ابن زيدون لمّا ورد إشبيليّة، ونزل في دار أبي عامر بن مسلمة(١)، وهو ينشئ فيها مجلساً صنع أبياتاً يقول فيها:(٢)

عُمِّرَ مَنْ يَعْمُرُ ذا المَجْلِسَا … أطْوَلَ عُمْرٍ يُبْهِجُ الأنْفُسَا
وبَعْدَ ذا عَوَّض عَنْ دارِهِ … عدنا، ومِنْ ديباجِهِ السُّنْدُسَا

---

(١) المقرّي – النّفح، ج١، ص٦٣٤ ؛ شهاب الدين المقرّي الترمساني "ت ١٠٤١هـ" – أزهار الرّياض في أخبار عيّاض، ط١، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبدالحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٧٨. ج٣، ص١٠٧.

(١) أبو عامر بن مسلمة: هو ذو الوزارتين الكاتب أبو عامر بن عبدالله بن محمد بن مسلمة، علم من أعلام إشبيلية.

(٢) ابن زيدون – الديوان، ص٢٠٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذكر ابن زيدون المجلس بديباجه في ثوبٍ من الدّعاء لصاحبه، وهكذا فإنّ الشّعر الـــذي ازدان بصور العمارة، قد وظف – أيضاً – لتزيينها.

إنّ غزارة الإنتاج الشّعري الذي يصف أبنية الأندلـــس وقصورهـــا، ووفـــرة القصـــائد المفصلة لدقائق ما حوته تلك القصور، يشير بوضوحٍ إلى مستوى التّرف والبذخ عليه الحكّام فـــي هذا العصر. ويتبدّى القصر في شعر الوصف وقد أُكسب ثمرة الإبداع فـــي قصـــائدٍ دارت فـــي فلكه، وأدركت وجوه حسنه، وفي مقابل هذا الخصب في وصف العمارة الفخمة يجـــد الـــدارس جدباً في الإنتاج الشعري الذي وصف ما ترامى في أرض الأندلس من بيوت، وفنادق، وأســـواق، وكأن الذي يستحق الوصف في المدينة الأندلسية لا بدّ وأن يخرج عن دائرة المألوف في الحيـــاة العامّة ويمتلك من أسباب الفضل ما يُرضي أذواق الشعراء ويبلغ معايير الحسن لديـــهم. وحتـــى بيوت الشعراء المتواضعة لم تحظَ بمكانة في أشعارهم وإن وصفت –أحيانا– من قبيل الشـــكوى، يقول ابن عبدون: "وقد أنزله المتوكل على الله بدار وكفت عليه فكتب إليه يصف تلك الدار":[1]

أيـــا ســـامياً مـــن جانبيـــه إلـــــى العُلـــــى ... سُمُوّ حَبَابِ الماءِ حـــالاً علـــى حـــالِ

لِعَبْـــدِكَ دَار حَـــــلَّ فيـــــها كَأَنَّـــــها ... ديارٌ لســـلمى عافيـــاتٌ بـــذي خـــالِ

يقـــولُ لـــــها لمّـــا رأى مـــــن دثورهـــا ... ألا عِم صباحـــاً أيّـــها الطّلـــلُ البـــالي

فقـــالت ولـــــم تعبـــأ بـــــردّ جوابـــــهِ ... وهل يعمن مَن كانَ العُصُـــــر الخـــالِ

فُمـــرْ صـــاحِبَ الإنـــزال فيـــــها بفـــاضلٍ ... فـــإنّ الفتـــى يَـــهدي وليـــسَ بفعّـــالِ

---

[1] ابن خاقان – القلائد – ج٢، ص٤٢٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والشّاعر في وصفه لداره البالية يتلطّف، إذ يجري الوصف النّاقد في ثوبٍ من الفكاهة، تأدّباً مع المتوكّل الذي أنزله فيها، واستجلاباً لعطفه وفضله.

وقد فضّل بعض الشّعراء تواضع المسكن وبساطته لزهدهم بنعيم الدّنيا الزائل. فقد زارَ أبا إسحاق الإلبيري – وهو على فراش الموت – أحد وزراء غرناطة، فرأى ضيق مسكنه، فقال له: " لو اتخذت غير هذا المسكن لكان أولى بك ". فقال الإلبيري:[1]

قَالوا: ألا تَستَجِدُّ بَيْتاً تَعْجَبُ مِنْ حُسْنِهِ البُيوتْ
فَقُلْتُ: مَا ذَلِكُمْ صَوابٌ حَفْشٌ كَثِيرٌ لِمَنْ يَمُوتْ
لَولا شِتاءٌ ولَفْحُ قَيْظٍ وَخَوفُ لِصٍّ وحِفْظُ قُوتْ
ونِسْوَةٌ يبتَغِينَ سِتْرَا بَنَيْتُ بُنْيَانَ عَنْكَبُوتْ
وأيُّ معنىً لِحُسْنِ مَغْنىً لَيْسَ لأربابِهِ ثُبُوتْ

فقيمة البيت تكمن فيما يمنحه لساكنه من خصوصيّة وأمن، ومناخٍ يعين على الاستمراريّة والبقاء. وقد استطاع الإلبيري أن يختزل وظيفة البيت في هذه الأبيات، وأسباب بنائه، ليعلن من خلال مسلكه في حياته عن نظرة مختلفة لما شاع في هذا العصر من تمجيد للقصور والأبنية العظيمة. إذ يقول:[2]

ما أوعَظَ القَبْرَ لو قَبِلْنا مَوعِظَةَ النّاطِقِ الصَّمُوتْ
يُوحِي إلى مُمْتَطي الحَشايا ما لَكَ مِنْ مَضجعي عَمِيْتْ

---

(1) أبو إسحاق الإلبيري، إبراهيم بن مسعود بن سعد التجيبي، "ت ٤٦٠هـ" – الديوان، ط٢، تحقيق محمد رضوان الدّاية، دار قتيبة، ١٩٨١م. ص٦٠.

(2) أبو إسحاق – الديوان – ص٦٠-٦١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نسِــــيْتَ يَومِــــي وطُـــــولَ نَومِــــي | وسَــوفَ تُنســـى كمــا نَسِــيتْ
وشِيْـــدتَ يَـــا هـــــادِمي قُصُـــوراً | نَعِمْـــتَ فيـــهنّ كيـــفَ شِيـــتْ
مُعْتَنِقـــــاً للحِســـــانِ فيــــــها | مُسْتَنْشِـــقاً مِسْـــكَهَا الفَتِيْـــتْ
تَسْـــحَبُ ذَيـــلَ الصّبـــا وتَلْـــهُو | بانِســـــاتٍ يَقُلْـــنَ هيْـــتْ
فــاذكُرْ مِــهادِي إلـــى التّنـــادي | وامْـــهَدْ لـــهُ قبـــلَ أنْ يفـــوتْ
فَعَـــنْ قَرِيـــبٍ تكُـــونُ طَعْمِـــي | سَـخِطْتَ يـا صـاحِ رأم رضيَــتْ

ومن قبيل هذه النّظرة الزّاهدة النّاقدة ما سمعه ملك طليطلة المأمون وهو مع جواريه في القصر: إذ سمع منشداً ينشدُ:(١)

أتَبنِـــي بِنــاءَ الخَـــالدينَ، وإنّمـــا | بقـاؤكَ فيـها لَــو علِمـتَ قليـــلُ
لقَـد كَــانَ فــي ظِــلّ الأراكِ كِفايَـــةٌ | لِمـن كُـلَّ يَـومٍ يَقتضيـهِ رَحيـــلُ

لقد استطاع هذا الصّوت أن يصل إلى مسامع أحد ملوك الطوائف الذين آثـروا حسن القصور على حسن الخاتمة.

---

(١) المقرّي – النّفح، ج٣، ص٥٢٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وصف الحمّامات:

عاش أهل الأندلس في مدنهم تستهويهم طبيعتها حيناً، وتستحوذ عليهم مظاهر المدنيّة أحياناً أخرى. ومن المظاهر المدنيّة السائرة في الأندلس الحمّامات التي زخرت بها مدن الأندلس، فشيّدت في القصور، وفي الأحياء الشعبيّة، ولعلّ فيما ذكره صاحب النّفح عن مدينة (المريّة التي كانت تحوي من الفنادق والحمّامات نحو الألف)[١] مثالاً يثبت تلك الكثرة في الحمّامات التي جعلت منها سمة مميزة للمدينة الإسلامية الأندلسيّة.

وقد تركت تلك الحمّامات أثراً في نفس كلّ من يدخلها ملتمساً فيها لحظات من الرّاحة والسّرور، والشّاعر الأندلسيّ يقدّم ومضات خاطفة من الشّعر الّذي دار حول وصف الحمّامات العامّة. يقول ابن خفاجة:[٢]

أهلاً ببيت النّارِ مِنْ منزلٍ ... شيّدَ لأبْرارٍ وفُجّارِ
نَقْصِدُهُ مُلْتَمِسي لَذَّةً ... فَنَدْخُل الجنّةَ في النّارِ

لقد دأب أهل الأندلس على الاستمتاع بأجواء الحمّامات، وارتجلوا في وصفها العديد من المقطوعات الشّعريّة التي تصف ما ينعم فيه المرء بين جنباته التي تجمع بين الحرّ والبرد. يقول البطليوسي:[٣]

أرَى الحَمّامَ مَوْعِظةً وذِكْرى ... لكلّ فتىً أريبٍ ذي ذكاءِ
يُذكّرُنا عذاب ذوي المعاصي ... وأحياناً نعيمَ الأتقياءِ
شقا هَجْرٍ يَشُوبُ نعيم وَصْل ... وحرُّ النّار في برد الهواءِ
إذا مَا أرضُهُ التَهبَتْ بِنارٍ ... تبادَرَ سَمْكُهُ هَطلا بماءِ
كَصَدرِ الصّبِّ جَاشَ بِما يُلاقِي ... فلجَّ الطَّرْفُ منه بالبكاءِ
كَأنّ لهُ حَبيباً بَانَ عنْهُ ... فبان وخانَهُ حُسن العزاءِ

---

[١] المقري – النّفح، ج١، ص١٦٣.

[٢] ابن خفاجة – الديوان، ص٣٧٣.

[٣] المقرّي – أزهار الرّياض، ج٣، ص١٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد أعمل البَطَلْيوسي مخيّلته مستوحياً صوراً رائعةً لتلك الانفعالات التي ترافق أجواء الحمّامات المفعمة بالتناقضات، وتقصر المقطوعات الشّعريّة في وصف الحمّامات العامّة حتّى تصل إلى بيتين، هما في الغالب قولاً بدهياً يُقصد به إبراز القدرة على ابتكار الصّور المرتجلة من وحي المكان. دخل ابن بقيّ[١] الحمّامَ وفيه الأعمى التُطيلي فقال له أجِز:[٢]

حَمّامُنا كزَمانِ القَيْظِ مُحتَدِمٌ ... وفيهِ للبَرْدِ صِرٌّ غَيرُ ذِي ضَرَرِ

فقال الأعمى:

ضِدّانِ يَنعَمُ جِسْمُ المَرءِ بَينَهُما ... كالغُصْنِ يَنْعُمُ بَينَ الشّمسِ والمطَرِ

وقد أجاد الأعمى التُطيلي بما قاله، فصوّر الحَمّامَ بصورٍ استقاها مِن جِنان الأندلس.

ولا تخلُ الحمامّات العامّة في الأندلس من مظاهر الإبداع الفني، إذ ازدانت بالتصاوير التي فتنت أهل الأندلس. فقد ذُكر أنّ بحمّام الشطارة بإشبيليّة صورة بديعة الشكل وصفها بعض أهل الأندلس بقوله:[٣]

ودُمَيَةٌ مرمَرٍ تُزهى بجيدٍ ... تَتاهى في التَوردُ والبَياضِ
لها ولَدٌ ولم تعرِف حليلاً ... ولا ألمتْ بأوجَاعِ المَخاضِ
ونعلَمُ أنّها حجرٌ ولكن ... تُتَيّمُنا بألحاظٍ مراضِ

وقد وقف شعراء هذا القرن وقفة متأنية عند الحمّامات الخاصة فأجادوا في وصفها، ووظفوا ما جاء فيها من قول في مدح صاحبها.

يقول ابن درّاج في وصف حمّام بناه يحيى بن المنذر[٤] وتأنّق في بنائه:[٥]

---

[١] ابن بَقيّ، أبو بكر يحيى بن محمّد بن عبدالرحمن بن بقيّ الطليطلي، وينسب إلى سرقسطة وإشبيليّة وسلالي المغرب، ووادي آش، كانت وفاته سنة ٥٤٠هـ، أو ٥٤٥هـ. انظر في ترجمته: ابن خاقان - القلائد. ج٤، ص٩١٩ ؛ المغرب، ج٢، ص١٧.

[٢] المقري - النفح، ج٣، ص٣٤٧.

[٣] المقري - النفح، ص٥٣٣.

[٤] يحيى بن المنذر، المظفّر يحيى بن المنذر بن يحيى التجيبي. انظر في ترجمته: المغرب، ج٢، ص٣٥٣.

[٥] ابن درّاج - الديوان، ص١٣٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المرهف وذوقه الرفيع. وقد وصف ابن زيدون بعض معطيات الطبيعة الخلاّبة التي أخذت بمجامع نفسه، ثمّ وصف ما شيّد فيها، فجعل يطرق أبواب الفضل في هذا البناء الذي يدلّ على ما تميّز به صاحبه من إبداع وذوق، لجمعه بين حسن الطبيعة وما فيها من ناحية وبين الإبداع المعماريّ والفنّي الموظّف لما يناسب المكان من ناحية أخرى، فقد شيّد الحمّام في هذا المكان ليفيد من الحمّة بمياهها الحارّة المتدفّقة من باطن الأرض، ويتابع ابن زيدون إثباته للوحة الحسن التي دارت عليها أوصافه، فيغدق عناصر الجمال على تلك الدّمية التي توسطت المكان، إذ يمعن النّظر فيها، ليصف ما تميّزت به قلّ أو كثر، مؤكداً على ما يستدعيه ذلك المشهد من لذّة تزدان به نفس من ينظره نظرة شاملة أو متغوّصة لكلّ جزء فيه. ويلاحظ أنّ وصف ابن زيدون لهذا الحمّام يختلف في تناوله عمّا جاء في وصف الحمّامات العامّة، ولعلّ ذلك لما تتمتّع به حمّامات القصور من أسباب الفضل ما يوجب وصفها وصفاً مغايراً لما توصف به الحمّامات العامّة، فالشّاعر الذي يحلّ ضيفاً في أحد القصور لا بدّ أن ينظّم من الشعر ما يبرز مقدرته، ويعكس تقديره للمكان وصاحبه هذا فضلاً عمّا تمتاز به القصور وما فيها من حمّامات من إبداع في العمارة والزخارف والتصاوير المختلفة، وبهذا فإن المحرّك الذي يقود الشّاعر للوصف قد يمثّل ركناً أساسياً في تحديد شكل القصيدة ومستواها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

• وصف حصون المدن وأبوابها:

قبل أن يغلق فصل الوصف أبوابه، بعد تجوال مُيِّزت من خلاله المدينة الأندلسيّة، بما حملته من طابع معماري أناف بها على المدن ذات الشّهرة والمكانة لما زينها من قصور وحدائق غلبت عليها الفخامة، وتعددت فيها المناقب لا بدّ من التعريج على ما جاء في شعر عصر ملوك الطوائف من ذكر لأبواب المدن المحصّنة فقد امتازت المدن الأندلسيّة بحصونها التي منحت سكّانها شعوراً بالأمان الذي يزيد من حُسن المدينة في نفس من يسكنها أو يحطّ رحاله فيها. يقول أبو الفضل بن شرف القيرواني[١] في وصف منعة أبواب مدينة بَرْجَة:[٢]

حُطّ الرّحال ببَرْجَه[٣] وارْتَدْ لنفسك بهجَة
في قلعة كسلاحِ ودَوْحَةٍ مثل لُجّة
فحصنها لك أمْنٌ ورَوْضُها لك فُرْجَه
كلُّ البلاد سواها كَعُمْرَةٍ وَهي حجَّة

لقد جعل أبو الفضل مدينة "بَرْجه" تتيه على المدن الأخرى بفضلها الذي منحها إياه حصنها وطبيعتها الخلاّبة، فقلعتها التي تحيط بمواطن الطبيعة الساحرة، زادتها تألّقاً وسحراً في وقت كان الخوف فيه يستعر في نفوس سكّان المدن الأندلسيّة، وينغص عليهم لحظات السعادة والأمن في مدنهم. وأبو الفضل من الشّعراء الذي أبرزوا مكانة القلاع والحصون في أشعارهم، فمدينته جنّة محصّنةٌ يصعب الوصول إليها. يقول:[٤]

رياضٌ تعشّقها سندسِ توشّت معاطِفها بالزّهَرْ
مدامِعُها فوق خدَّيْ ربىَ لها نضْرةٌ فتنَتْ مَن نَظَرْ
وكُلُّ مكان بها جَنَّةٌ وكُلُّ طريق إليها سَقَرْ

---

(١) أبو الفضل جعفر بن أبي عبدالله بن شرف القيرواني، وقد ولد ببرجة، وقيل دخل به أبوه الأندلس صغيراً. انظر في ترجمته: المغرب، ج٢، ص١٨٩.

(٢) المقري – النّفح، ج١، ص١٥١.

(٣) بَرْجَه: وهي مدينة من أعمال المريّة، تقع على وادٍ مبهج يُعرف بوادي عذراء، وهو محدق بالأزهار والأشجار. وتسمى برجة بهجة. انظر: معجم البلدان، ج ، ص .

(٤) المقري – النفح، ج١، ص١٥٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد دارت الحصون والقلاع المحكمة البناء حول العديد من المدن الأندلسيّة، وكان لكل مدينة عدد من الأبواب التّي تشكّل نقطة الاتصال بالعالم الخارجي، ولتلك الأبواب أثرها لما قد تحمله من مضامين مختلفة في نفوس سكان المدينة الأندلسيّة، فقد يتمثّل باب المدينة في بعض الأبيات الشّعرية عنواناً للمكان الذي احتوى ذكريات بعض الشّعراء.

ومن ذلك قول ابن خفاجة في معرض حديثه عن ذكرياته في جزيرة شُقْر:[١]

ألاَ رُبَّ يَـــومٍ لـــي بِبَــابِ الزَّخَـــارِفِ رقيق حَواشي الحُسْن حُلْوِ المَرَاشِـــفِ

وقد يذكر الباب نقطة انطلاق لتحديد مساحة من المدينة، وهو في ذلك يتمثّل حدوداً لا أكثر.

وقد ذكر أبو عامر بن الأصيل[٢] باب إحدى المدن الأندلسيّة منطلقاً لتعميم حكمه على أهل ذلك المكان. فقال:[٣]

هَيْـــهاتَ لا حُـــرُّ ولا حُـــرَّةٌ مِـن بـاب اقْليـشٍ[٤] إلـى الرَّبْـت

ويظهر أنّ لمعظم مدن الأندلس أبواباً تحمل أسماء مختلفة، ومن ذلك (باب الحديد، وباب الجنان، وباب الوادي، وباب القنطرة، وباب الروميّة، وباب العطارين)[٥] ، وباب اليهود بمدينة قرطبة. يقول أبو عامر بن شهيد موظفاً أحد تلك الأبواب:

---

(٢) ابن خفاجة – الديوان؛ ص٢١٠.

[٢] أبو عامر بن الأصيل، وهو من مدينة سرقسطة، قال عنه صاحب الذخيرة: " كان أبو عامر مشحوذ المدية في الكدية، وهي التي بلغته بلاد النصارى ". انظر في ترجمته: ابن بسّام – الذخيرة، ج٣، ص٥٦١ ؛ ابن سعيد – المغرب، ج٢، ص٣٥٩.

[٣] العماد الأصفهاني، عبدالله بن محمد "ت ٥٩٧هـ" – خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبدالعظيم – الفجّالة، القاهرة، "د.ت". ق٤، ج٢، ص٢٤٨.

[٤] اقليش: مدينة أندلسيّة لها حصن بثغر الأندلس الجوفي، وهي من أعمال طليطلة، بناها الفتح بن موسى بن ذي النون. انظر: أبو محمد الرشاطي "ت ٥٤٢هـ" وابن الخراط الإشبيلي "ت ٥٨١هـ" – الأندلس اقتباس الأنوار وفي اختصار اقتباس الأنوار، تحقيق اميليو مولينو، وخاتينتو بوسك بيلا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، معهد التعاون مع المعهد العربي – مدريد، ١٩٩٠. ص١٦ ؛ الروض المعطار، ص٥١.

[٥] المقري – النفح، ج١، ص٤٦٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد أطلّعُوا عند باب اليهود[1] بدراً أبى الحُسنُ أن يُكسفا
تراه اليهودُ على بابها أميراً فتحسبُه يُوسُفا

وقد استقبحوا قولهم "باب اليهود" فقالوا "باب الهدى" وابن شهيد استطاع توظيف باب الهدى في مدينة قرطبة لخدمة النّص الشعري وتحقيق الغاية من نظمه، فقد جاء ذكر الأبواب في معرض الحديث عن الحاكم الجديد أو في مدح القائد الفاتح لأبواب المدينة المسترد لها من العدو. فالأبواب مدخل يومي إلى أهل المدينة بمصيرها المنتظر تبعاً لما يطلّ منها.

يقول ابن درّاج في منذر بن يحيى:[2]

راسٌ مُطلٌ على بابَيْ "طُلَيْطَلَةٍ" يُومي إلى الكُفْرِ: هذا مَوْعِدُ الكفره

وممّا يلفت الانتباه أن ذكر الأبواب جاء مختزلاً، إذ لم يجهد الشعراء أنفسهم في وصف تلك الأبواب وإلى مثل هذا أشار هنري بيريس في قوله: " وعبثاً نبحث عن تفاصيل تحدّد شارعاً أو سوقاً أو باباً ".[3]

وهكذا فقد ظهرت المدن الأندلسيّة متجليّةً بأبهى حلل الحسن في الطبيعة والعمارة فتغنّى بها الشعراء إعجاباً وتفضيلا، ونختتم فصل الوصف بقول ابن الحدّاد وهو ممّا يتغنّى به بالأندلس:[4]

فَذَرْ العَقِيقَ مُجانِباً لعُقوقِهِ ودَعْ العُذَيبَ عُذَيبَ ذاتِ الخالِ
أفُقٌ مُحَلّى بالقواضِبِ والقنا للأغْيَدِ المِعطارِ لا المعطالِ

---

[1] باب اليهود: وهو باب الهدى، أحد أبواب مدينة قرطبة. انظر: معجم البلدان، ج٢، ص٣٢٨.

[2] ابن درّاج – الديوان، ص٤٩٤.

[3] هنري بيريس – الشعر الأندلسي في عصر ملوك الطوائف، ص٦٤١.

[4] ابن الحدّاد – الديوان، ص٧٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

الحنين إلى المدن الأندلسيّة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحنين إلى المدن الأندلسية

الحنين لغةً: "الشّديد من البكاء والطّرب، وقيل: هو صوت الطّرب كان ذلك عن حزن أو فرح. والحنين: الشوق وتَوَقانُ النفس، والمعنيان متقاربان ...، وحنَّت الإبل: نَزَعتْ إلى أوطانها أو أولادها... " قال رؤبة:

حنَّتْ قَلوصي أمْسِ بِالأردُنّ حنِّي فما ظُلمتِ أن تَحِنِّي

ويقال: حنَّ عليه، أي عطف عليه، وحنَّ إليه أي نزع إليه.

وفي الحديث[1]... أن النبي – صلى الله عليه وسلم – كان يصلّي في أصل اسطوانة جذعٍ في مسجده، ثم تحوّل إلى أصل أخرى، فحنّت إليه الأولى، ومالت نحوه حتى رجع إليها فاحتضنها فسكنت.

وقال ابن بُرّي: والمستَحن الذي استحنّهُ الشوق إلى وطنه ...".[2]

من المعلوم أنّ الله – سبحانه – قد أسكنَ أبا البشرية آدمَ – عليه السلام – الجنة، فكانت الوطن الأول له. قال تعالى:

﴿وَقُلْنا يا آدَمُ اسكُنْ أنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما وَلا تَقْرَبا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكونا مِنَ الظّالِمِينَ﴾.[3]

---

[1] وروايته في صحيح البخاري مع شرح فتح الباري، ط١، تحقيق عبدالعزيز بن باز، دار السلام – الرياض، دار الفيحاء – دمشق، ١٩٩٧. كتاب المناقب، باب علامات النبوّة في الإسلام، ج٦، ص٧٣٥. " كان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب إلى جذع، فلمّا اتّخذ المنبر تحوّل إليه، فحنّ الجذع، فأتاه فمسح يده عليه " ؛ وانظر: أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة الترمذي – سنن الترمذي، ط١، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧. ج٥، ص٥٥٤.

" عن أنس بن مالك أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خطب إلى لزق جذع واتخذوا لهم منبراً، فخطب عليه، فحنّ الجذع حنين الناقة فنزل النبي – صلى الله عليه وسلم – فمسّه فسكن ".

[2] لسان العرب: (حَنَن).

[3] سورة البقرة، آية ٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثُمَّ شاء سبحانه أنْ تكون تلك الشجرة المذكورة آنفاً في الآية القرآنية سبباً في إخـواج آدم – عليه السلام – بل تركها إرثاً للإنسانية، تشتعلُ في صدورهم وتذكّرهم بغربتهم في هذه الدنيا.

والحنين ظاهرة إنسانية لا ترتبط بإنسان دون آخر، أو بمكان تدركه الحواس علـى أرض الواقع، إذ قد يتجذّر الحنين في النفس الإنسانية بتأثير الذاكرة المتوارثة لتجارب أنـــاسٍ آخريـــن تشكّل تلك النفس امتداداً فكرياً أو جسدياً لهم، أو قد يجتمع الامتدادان في منظومة إنسانية تعـــبّر بعمق عن تجارب إنسانية.

والحُكم بإنسانية الحنين يُسلِمُ إلى تفاوت في درجات شعور النفس الإنسانية به. وتتفـــاوت قوته في النفس الإنسانية الواحدة اتجاه الأماكن المختلفة، وهذا يعني أن الحنين إلى مكان مـــا لا يحمل الرفض لغيره، إذْ قد تشتاق النفس الإنسانية لأكثر من مكان، لكن المكـــان المتبـــادر إلـــى الأذهان عند سماع كلمة (حنين) هو الوطن، فمن أين تبدأ مساحة الوطن؟ وأين تنتهي؟

تبدأ الحياة عندما تسكن الروح الجسد، الوطن الأول لها، فسريان الروح فـــي موطنـــها يعني الحركة والتحوّل في العالم الخارجي في مقابل الحركة، والتوسّـــع فـــي العـــالم الداخلـــي المُختزن في الذاكرة، إذ إنّ انتقال الإنسان في رحلته من أحشاء الأم إلى أن يسكن المـــهد، ثـــم التحوّل المستمر بعد ذلك من مكان إلى آخر تبعاً للحاجة حقيقةٌ واقعة تحمل معنى الانقطاع عـــن المكان السابق. فالإنسان لا يستطيع الحلول في أكثر من مكان في زمنٍ واحد، وقد لا يستطيع في كثير من الأحيان استعادة المكان الذي سكنه في الماضي فيرتدّ إلى عالمه الداخلي حيث اتخـــذت الحركة والانتقال من مكان إلى آخر شكل الامتداد المكاني ليكوّن بناءً تراكميـــاً مـــن العلاقـــات وصولاً إلى تمثّل المدينة جسداً، روحه من سكنه.

وهذا الامتداد المكاني يمنح الروح الكثير من الاستقرار، والأمن في عالمـــها الداخلـــي، ويَحُدُّ من ألم الحرمان الذي يرافق فقدان المكان من خلال احتفاظ الذاكرة بالأماكن المفقودة ومـــا فيها ومن فيها. ولا يقتصر ارتباط الإنسان بالمكان الذي يمثّل الوطن على ما فـــي جعبتـــه مـــن ذكريات، بل تستمد منه المخيّلة نماذجها الخاصة بها التي ترافق الإنسان إلى آخر أيامـــه، لكـــنّ النفس الإنسانيّة التي ترتبط بالمكان، وتتخذه امتداداً مادياً لها على أرض الواقـــع، قـــد تضطـــر للرحيل عنه، مما يؤجّج مشاعر الحنين إلى الوطن.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمدينة بوصفها مكاناً عاشه الإنسان، وأقام فيه علاقات إنسانيّة دالة على مدى ارتباطه وتعلّقه فيه، لها دور في الإبانة عن العلاقات الإنسانية المشكّلة بينه وبين وساكنيه.

وقد كان للمدينة الأندلسية دور فاعل في تشكيل تلك العلاقات الإنسانية لدى ساكنيها، وساعد على ذلك في هذه الفترة – فترة ملوك الطوائف – سلسلةُ الأحداث السياسية التي مرّت بها الأندلس، فهذه الأحداث ولّدت مفهوم (المدينة الوطن) الذي كان الرحيل عنها بمثابة الرحيل عن الوطن.

والشاعر الأندلسي لسان صدقٍ عبّر بعمق عن تلك العلاقة التي تربطه بمدينته وما يرافقها من عواطف مختلفة، فكان شعره ناطقاً بعشقه لمدينته التي نشأ فيها، واستطاع بشعره أن يعبّر عن ذلك الصراع الذي يجتاح نفسه عند مفارقته لمدينته وما يتبع ذلك من مشاعر الشوق والحنين.

• دوافع الرحيل عن المدينة الأندلسيّة:

اضطّر الشاعر الأندلسي الذي نشأ في إحدى مدن الأندلس، واستمدّ منها خيوط عالمه الداخلي للرحيل عن مدينته بعد صراع عنيف، مبعثه وجود قوتين متنافرتين في أعماقه: قوة تزيد من تعلّقه بالمدينة التي سكن وألِف، وقوة مضادة تدفعه إلى تجاوز حدود تلك المدينة.

فالأولى قوة جاذبة، والثانية قوة إقصاء أو قوة طاردة، ولعلّ القوة الطاردة تشكّل المحور الأساسي عند الحديث عن دوافع الرحيل، وتتمثل هذه القوة في العديد من الصور مثل طلب الرزق والحرص على الحياة، وعدم الشعور بالأمان، إنه الخوف والرجاء، فقد يعزم الشاعر على الرحيل مكرهاً بدافع الحرص على الحياة، والرغبة في البقاء في مناخٍ آمن يحقّق له تطلعاته. يقول أبو عبدالله بن الحنّاط[1] بعد رحيله عن مدينة قرطبة:[2]

تَفرّغْتُ مِنْ شُغْلِ العَداوَةِ والظّعْنِ ... وصِرتُ إلى دارِ الإقامةِ والأمْنِ
وما عن قِلىً فارَقْتُ تُرْبَةَ أرضِكُمْ ... وَلَكنّني أشْفَقْتُ فيها مِنَ الدَّفْنِ

---

[1] هو أبو عبدالله محمد بن سليمان المعروف بابن الحنّاط، كان أبوه يبيع الحنطة بقرطبة، أصابه العمى من كثرة القراءة، بَرِع في المنطق، توفي ٤٣٧هـ. انظر: الذخيرة، ج١، ص٢٧٣-٢٨٣، الخريدة، ق٤، ج٢، ص٢٢٣-٢٤١.

[2] الذخيرة، ج١، ص٢٨١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لم تستطع مدينة قرطبة أن تمنح ابن الحنّاط الحياة المستقرة ممـا ألجـأه إلـى التحـول المكاني، فرحل عن قرطبة إلى الجزيرة الخضراء راجياً أن يجد فيها مستقراً له. ويلاحظ عمومـاً أن الشاعر الأندلسي يؤكّد في قصائده تجاوزه لحدود المدينة التي لا توفّر له المناخ المستقر مـهما تعاظم شأن تلك المدينة، يقول ابن اللبّانة:[١]

أفِـــرُّ بِنَفْســـي وإنْ أصْبَحَـــتْ "مَيُورَقَةُ" "مِصْــراً" وجَداوِلُـكَ نيـلا"

لقد فرّ ابن اللبّانة من مدينة "ميورقة" إلى "بجاية"[٢] بعد أن فسدت علاقتـه مـع نـاصر الدولة بفعل الوشاة، فعبّر عن رفضه لكل أشكال النعيم في مدينته، إن لم يصاحب ذلـك النعيـم الشعور بالأمان.

وقد يقف صاحب المدينة خلف قوة الإقصاء المتشكّلة في نفس الشاعر، فـهو المتحكّـم بالمكانة التي يحتلّها الشاعر في مدينته – غالباً – إذ يوفّر الشاعر الحمايـة وسـبل السـعادة إن استطاع نيل رضاه وكسب ودّه، فإذا ما حدثت فجوة بينه وبين الشاعر فإن النتيجة المترتبة علـى ذلك هي الرحيل، ولعلّ ما حدث بين ابن الحداد والمعتصم بن صمادح[٣] يؤكّد ذلك، فقد هجا ابـن الحدّاد المعتصم بقوله:[٤]

يـا طَـالِبَ المعْـرُوفِ دُونَـكَ فـاتْرُكَنْ دارَ المَرِيّةِ وارْفُـضِ ابْـنَ صُمـادِحِ
رجـلٌ إذا أعطـاكَ حبّـةَ خـردَلٍ أَلْقـاكَ فـي قيـدِ الأسيرِ الطَـائِحِ
لَـوْ قَـد مضـى لـكَ عمـرُ نـوحٍ عِنْـدَهُ لا فـرقٌ بينَـكَ والبعيـدِ النـازِحِ

---

[١] ابن اللبّانة – شعر ابن اللبّانة الداني، ص٨٠ ؛ الذخيرة، ج٣، ص٤٤٩.

[٢] بجَايَة: مدينة عظيمة على ضفة البحر، ويقال: إن الناصر ابن عالناس بناها، واتخذها مقراً لملكه، ولهذا تسمى بالناصرية. انظر: الـروض المعطار، ص٨٠-٨١.

[٣] المعتصم أبو يحيى محمد بن معن بن صُمادِح الأندلسي، صاحب المرية وبجانة. انظر: القلائد: ص١٤٦-١٥٦.

[٤] ابن الحدّاد – الديوان، ص٤٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وينعكس بغْضُ الشاعر لحاكم المدينة في هذه المقطوعة الشعرية – على مشاعره اتجاه المدينة التي يحكمها، فيزهد الشاعر بالمدينة لزهده برضى حاكمها. يقول الحصري الأعمى المريّني:[١]

ممّا يُبَغّضُني في أرضِ أندَلُسِ	سَماع معتضدٍ فيها ومعتمِدِ
أسماء مملَكَةٍ في غيرِ موضعِها	كالهِرّ يحكي انتفاخاً صولةَ الأسدِ

بدأ الحصري أبياته مصرّحاً بزهده في أرض الأندلس تمهيداً لهجاء حكامها، دونما فصل بين مشاعره اتجاه المدينة وحاكمها، وفي هذا التصريح مواجهة قل ما نجدها فيما توافر لدينا من نصوص شعرية، فحتى ابن الحدّاد الذي هجا المعتصم بن صُمادح، وفَقَدَ رِضاه ليترك مدينة المرِيّة[٢] متوجهاً إلى مدينة سَرَقُسْطَة[٣]؛ لم يعلن عن زهده في المدينة، بل عدّ رحيله عنها بمثابة صدع لشمله حيث يقول:[٤]

صَدَعَ الزّمانُ جميعَ شَمْلِي جائراً	إنّ الزّمانَ مُمَلَّكٌ لا يُسْجِحُ
فَقَضى بِحَطّي عن سَمائِيَ واقْتَضى	رِحَلاً تُطيحُ رَكائبي وتُطَلّحُ
يَممتُها سَرَقُسْطَةَ وَهْيَ المَدَى	والدّهرُ يُكْبَحُ واعتزامي يَجْمَحُ
حَيْثُ العُلا تُجلَى وآثارُ المُنى	تُجْنَى، وَسَاعيَةُ المَطَالِبِ تُنْجَحُ؟
والنَّفسُ توقِنُ أنَّ عهدِك في النّدى	موفٍ بما طمحت إليه وتُطمِحُ

ولا يجد القارئ في هذه المقطوعة ذكراً مباشراً للقوة الطاردة التي تقف خلف رحيل ابن الحدّاد عن مدينة المريّة بعد أن هوى فيها من سماء الرِفعة فَغَذّ السير إلى مدينة سَرُقسطة. ويمكن تبيّن الأسباب المباشرة لرحيله من خلال قصيدة أخرى قالها مادحاً للمعتصم، مسترضياً له، منها:[٥]

---

[١] العماد الأصفهاني – الخريدة ق٤، ج٢، ص٥١ ؛ ابن سعيد الأندلسي، علي بن محمد بن سعيد، " ت ٦٨٥هـ " – رايات المبرزين وغايات المميزين، ط ، تحقيق النعمان عبدالمتعالى القاضي، مطابع الأهرام التجارية – القاهرة، ١٩٧٣م. ص١٣٧ ؛ المقري – النفح، ج١، ص٤١٣–٤١٤؛ ج٤، ص٢٥٥، وينسب هذان البيتان إلى ابن رشيق القيرواني. انظر: النفح، ج١، ص٤١٣.

[٢] المِريّة: مدينة كبيرة من كورة إلبيرة من أعمال الأندلس، وهي مدينة تجارية. انظر: معجم البلدان، ج٥، ص١١٩–١٢٠.

[٣] سَرَقُسْطة: مدينة في شرق الأندلس، وهي المدينة البيضاء، وقاعدة من قواعد الأندلس، كبيرة القطر، آهلة. انظر: الروض المعطاء، ص٣١٧.

[٤] ابن الحدّاد – الديوان، ص٤٨

[٥] ديوان ابن الحداد، ص٩٣، الذخيرة، ج١، ص٤٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَسَمَا إِلى الملك الرّضى ابن صُمادحٍ فأدالني بالسَخْطِ مِنْ رضوانِهِ
وَهوى بِنَجْمِي مِن سَماءِ سنائِهِ وقَضى بحطّي من ذُرى سُلْطَانِهِ

فرؤية ابن الحدّاد النابعة من تجربة إنسانيّة عميقة تشير إلى عدم قدرته على مواجهة سخط الحاكم؛ لما قد يُجَلّيه ذلك السخط من فقدٍ للمدينة التي احتلّ فيها مكانة مرموقة.

لقد وظّف الشاعر الأندلسي (المدينة) لخدمة نصّه الشعري حتّى باتت مرآة تعكس انطباعاته عن حاكمها، فعلاقة المدينة بالحاكم ترتبط بالتجربة الشعورية لدى الشاعر. وقد يبدو الشاعر الأندلسي في بعض القصائد منتمياً إلى الحاكم أكثر من انتمائه للمدينة الأندلسيّة. يقول أبو عبدالله محمد بن عبادة الوشّاح(١) من شعر له في المعتصم بن صمادح:(٢)

وَلَوْ لَمْ أكُنْ عَبْداً لآلِ صمادحٍ وفي أرْضِهِم أصلي، وَعَيْشي وَمَوْلدي
لَمَا كان لي إلا إليهمْ ترحُّلٌ وفي ظِلِّهم أُمْسي وأُضحي وأغتدي

ويظهر الحاكم في بعض المقطوعات الشعرية ممتلكاً لقوة تحيل مدينته جنّة على الأرض. يقول أبو الحسن البغدادي(٣) المعروف بالفكيك:(٤)

أبَا القاسِمِ، الملك المُعَظّم قَدْرُهُ سِواكَ مِنَ الأملاكِ ليس يُعَظّمُ
لقَد أصبَحَتْ حِمْصٌ بعدلك جنَّةً وقد أُبعِدَتْ عن ساكنيها جَهنّمُ

وقد يفيد الشاعر الأندلسي من موروثه الديني في تعليل إخراجه من مدينته، فتراه يربط بين خروجه من مدينته لذنب اقترفه استوجب رحيله، وبين إخراج آدم – عليه السلام – من الجنّة.

---

(١) هو أبو عبدالله محمد بن عبادة القزاز، برع في صياغة الموشحات. انظر: العماد الأصفهاني – الخريدة، ق٤، ج٢، ص٤٢ ؛ المقري – النفح، ج٣، ص٤١١.

(٢) المقري – النفح، ج٣، ص٤١١.

(٣) هو أبو الحسن البغدادي، من الوافدين إلى الأندلس، كان حاد اللسان، لاذع الهجاء، مدح بني هود، ثم صار من شعراء المعتمد بن عبّاد. انظر: الخريدة، ق٤، ج٢، ص٩٩-١٠١ ؛ النفح، ج٤، ص١٠٤.

(٤) ابن بسّام – الذخيرة، ج٤، ص٢٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتعدُّ هذه المقابلة بين الموقفين شكلاً من أشكال ندم الشاعر، وطلب العفو من خلال إقراره بالذنب، وإبراز عِظم الفقد. يقول ان اللبانة الداني بعد مفارقته بَطَلْيوس[١] فراراً من بطش حاكمها به:[٢]

رضي المتوكّلِ فَارَقْتُهُ ... فَلَم يُرضِني بَعْدَهُ العالَمُ
وَكَانَتْ بَطَلْيوس جَنّةً ... فجِئتُ بما جاءَهُ آدمُ

وابن اللبّانة في هذين البيتين يتقرّب إلى الحاكم مادحاً، ومقراً له بالقوة والنفوذ، في محاولة منه لاستعادة مكانته في جنّته الأندلسيّة التي فقدها لفقده رضى حاكمها.

ويشير الطرح الشعري الذي قدّمه ابن اللبّانة في بيتيه السابقين إلى تساؤل مفاده: كيف تقبّل الحاكم ما يقال عن مدينته؟ وما مدى ارتباطه بها؟ وكيف واجه الحاكم فقدها؟

وقبل مناقشة ما وصلنا من قصائد أندلسية تعكس مثل هذه التجربة لا بدّ من التأكيد أن "الملك رغبة عنيفة في حس الإنسان، فهو يجد لذّة كبرى في أن يمتلك، سواء كان الملك حسياً أو معنوياً ... ويجد ألماً عنيفاً في الحرمان"[٣] وانطلاقاً من هذه السمة الإنسانيّة، فإن الحاكم الذي يستمد قوته من امتلاكه لزمام الأمور في المدينة يسعى للحفاظ على ملكه من خلال الذود عن مدينته قولاً وفعلاً، فدفاع الحاكم عن مدينته بمثابة الدفاع عن كيانه؛ ولا عجب أن قام المعتمد بن عبّاد بالردّ على أبي المطرّف المعروف بابن الدباغ[٤] حين خاطبه بشعر قال فيه:[٥]

يُهان بحمْصٍ عزيزُ الرّجالِ ... ويُعزى إليهم قبيحُ الفِعالِ
ويغرى ذوو النقص من أهلها ... بتلطيخِ أعراض أهل الكمالِ

---

[١] بَطَلْيوس: مدينة كبيرة بالأندلس من أعمال ماردة على نهر آنة غربي قرطبة. انظر: معجم البلدان، ج١، ص٤٤٧.

[٢] ابن اللبّانة – شعر ابن اللبّانة الداني، ص٩١ ؛ ص١١٠.

[٣] محمد قطب – دراسات في النفس الإنسانية، القاهرة. ص١٩٣.

[٤] هو أبو المطرف عبدالرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ، اشتهر بالبلاغة، من أرباب البيان والفصاحة، كان كثير التضجّر والشكوى من الزمان، وكثير الترحال. انظر: القلائد، ص١٠٦ ؛ الخريدة، ق٤، ج٢، ص٣٤٩-٣٥٦ ؛ المغرب، ج٢، ص٣٥٦.

[٥] ديوان المعتمد، ص١٣٤ ؛ الذخيرة، ج٣، ص١٦٠-١٦١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فوقّع المعتمد على ظهر رقعته بهذين البيتين:[١]

شَـــعُرتَ فجِئـــتَ بعيـــن المُحـــال ... ومـــا زالَ ذا خطَـلٍ فـــي المقـــالِ
مَتَـى عَـزَّ فـي حِمْـصٍ غَـيرُ العَزيـــزِ ... أو ذلَّ غـــيرُ الذميـــم الفِعـــالِ

ومنطلق رد القول عن مدينة حمص (إشبيلية) هو الدفاع عن الملك، والذود عن النفس؛ لأن النقد الموجّه إلى المدينة هو نقد موجّه إلى صاحبها. وهذا الارتباط المتين بين الحاكم ومدينته يبرز إذا ما اضطرّ الحاكم إلى الرحيل عن مدينته، حيث يفقد ملكه، ومكانته ليغدو تائهاً شاكياً من تبدّل الحال، متحسّراً على ما فات، مرتحلاً من مكان إلى آخر لعلّه يجد مخرجاً لما يستعرُ في أعماقه من ألم الحرمان والفقد.

ولعلّ في تجربة أبي عيسى بن لبون[٢] مثالاً حياً، إذ يقول بعد أن تنازل لابن رُزَين[٣] عن ملكه:[٤]

ذَرُونـي أجُـبْ شَـرقَ البِـلادِ وَغَربَـها ... لأشْـفيَ نَفْسـي أو أمـوتَ بِدَائـي
فَلَسْـتُ كَكَلْـبِ السُّـوءِ يُرْضيـه مَربـضٌ ... وعَظْـمٌ ولَكنّـي عُقـابُ سَـماءِ
وكُنـتُ إذا مَـا بَلْـدَةٌ لـي تَنَكَّـرَتْ ... شَـددتُ إلـى أخـرى مَطِـيَّ إبَـائي
وَسِـرْتُ ولا ألـوي عَلَـى مُتَعَـذِّرٍ ... وَصمَمْتُ لأصْغـي إلـى النُّصَحـاءِ

تمثّل هذه الأبيات دوافع الرحيل من بلدة إلى أخرى عند مَن فَقدَ ملكه، فاختار التنقّل بين المدن سبيلاً للشفاء أو الموت، ولن ينال الشفاء إلا باسترداده لملكه المسلوب، ولن يقبل ما هو دون ذلك، لتستمر رحلته في محاولة التناسي. يقول ابن لبّون متابعاً:[٥]

---

[١] المعتمد بن عباد – الديوان، ص١٣٤.

[٢] ابن لبون :هو ذو الوزارتين عيس بن لبون بن عبدالعزيز بن لبون من أمراء الطوائف الصغار، وَزَر للمأمون بن ذي النون، وكان من قواده أعلن استقلاله شمال بنلنسية، وورث حكم لورقة بعد وفاة أخيه أبي محمد عبد الله بن لبون. انظر: القلائد، ج١، ص٢٨٩-٢٩٠ ؛ الذخيرة، ج٣، ص٦٥ ؛ الخريدة، ق٤، ج٢، ص٣٣١-٣٣٦ ؛ المغرب، ج٢، ص٣٠٤-٣٠٥ ؛ النفح، ج٥، ص٥٤٣-٥٤٤.

[٣] هو أبو مروان عبدالملك بن رزين، ولي الحكم عن أبيه سنة ٤٣٦هـ، كان شديد الإعجاب بنفسه تنازل له ابن لبون عن مربيط من أعمال بلنسية، توفي سنة ٤٩٦هـ. انظر: القلائد، ج١، ص١٥٧ ؛ الذخيرة، ج٣، ص٦٩-٧٤ ؛ الخريدة، ق٤، ج٢، ص٣٠٨-٣١٢.

[٤] الذخيرة، ج٣، ص٦٨ ؛ الخريدة، ق٤، ج٢، ص٣٣٥-٣٣٦.

[٥] الذخيرة، ج٣، ص٦٨ ؛ الخريدة، ق٤، ج٢، ص٣٣٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كشمسٍ تبدّت للعيون بمشرقٍ ... صباحاً، وفي غَربِ أصيلِ مساءِ

ولعلّ في رحلة الحاكم، وتنقله بين المدن، تعبيراً صريحاً، وإعلاناً صارخاً عن ثورته على الواقع الذي أجبر على مواجهته، ورفضاً عنيفاً له، وقد يكون شكلاً من أشكال الفرار من مواجهة ألم النفس الناجم عن فقده لملكه، أو مدينته. وفي مثل هذا يقول ابن حمديس:[١]

وطُفنا في البلادِ طَوافَ قومٍ ... يُريحُ نفوسهم تعبُ الجسومِ

وهكذا نرى أنّ ضياع الملك قد يؤذن برحلة مستمرة للحاكم ينتقل فيها من مدينته إلى أخرى، رافضاً التشبّث في الإقامة في أيّ مدينة تتنكّر له، فهو يعيش حاضراً قلقاً يخشى عاقبته، فيحاول البقاء في حركة دائبة تُشعر روحه بالحريّة، وتومئ إلى تمرد مُرضٍ للنفس.

تجدر الإشارة إلى أنّ شعراء الأندلس في هذا القرن قد أكثروا من ذكر تنكّر المدن الأندلسية لهم متخذين من ذلك دافعاً للرحيل، فالمدينة تتنكّر للشاعر لتبدّل الأحوال فيها، وهذا التنكّر يمثّل شرخاً في بناء العلاقات الاجتماعية التي سعى الشاعر لإقامتها ويحمل التنكّر في طياته شعوراً بالاغتراب عن المدينة التي قد تمثّل الوطن بالنسبة للشاعر أحياناً، يقول أميّة ابن أبي الصلت[٢] شاكياً من مشاعر الغربة:[٣]

رَمَتْني صُروف الدّهرِ بَيْنَ معاشرٍ ... أصحُهم وداً عدوٌ مُقَاتِلُ
وَمَا غُرْبَةُ الإنْسانِ في غيرِ دَارِهِ ... ولَكنّها في قُربِ مَن لا يُشاكِلُ

إنّ إحساس الشاعر بتنكّر من حوله له يشعره بالغربة حتى وإن كان في وطنه، ومبعث هذا الشعور يكمن في العجز عن التكيّف مع المحيط. فإذا ما واجه الشاعر الأندلسي محيطاً جديداً عند انتقاله إلى مدينة أندلسية لا عهد له بها، وعجز عن التكيّف مع المكان الجديد؛ لما قد يفرضه هذا الانسجام من خضوع وتنازل تأباه الروح الحرّة، فإنّ الرحيل نتيجة متوقعة لسيادة

٥٢٥٢٠٠

---

(١) ديوان ابن حمديس، ص٤٣٦.

(٢) هو: أميّة بن عبدالعزيز بن أبي الصلت، كان أوحد زمانه، وأفضل أقرانه، متبحراً في العلوم، وأفضل فضائله إنشاءً للمنثور والمنظوم، وكان قدوة في علم الأوائل، "ت ٥٢٠ هـ وقيل ٥٢٨". انظر: الخريدة، ق٤، ج١، ص٢٢٣-٢٢٦ ؛ النفح، ج١، ١٠٥.

(٣) أميّة بن أبي الصّلت – الديوان، ص١٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قوة الاقصاء في مقابل قوة الجذب المرتبطة بالمكان. " يقول أبو عمر بن عبدالبر مرتجلاً[١]، وقد دخل إشبيلية، فلم يلقَ فيها مبرّة، فأقام بها حتى أطبقه اغتمامه فارتحل:[٢]

تَنَكّـــر مَـــنْ كُنّـــا نُسَـــرّ بقُرْبِـــــهِ ... وَصَارَ[٣] زعافاً بعدمـــا كـــان سلســـلا
وَحُـــقّ لِجـــارٍ لَـــمْ يوافِقـــه جَـــارُهُ ... ولا لاءَمتْـــهُ الـــدّارُ أن يتحـــوّلا
بُليـــتُ بِحمـــص، والمُقـــامُ ببلْـــدَةٍ ... طَويلاً لَعَمْري مُخْلِـقٌ يـورثُ البِلـى
إذا هَـــانَ حُـــرٌ عِنْـــدَ قَـــوْمٍ أتـــاهُم ... ولم يَنْأ عَنهم كـــان أعْمـى وأجْـهلا
ولَـــم تُضْـــرَبِ الأمثـــالُ إلا لعـــالم ... وَما عُوقِـــبَ[٤] الإنســانُ إلا ليعقـلا

يؤكّد أبو عمر على أنّ التحوّل المكاني حقّ إذا ما شعر المرء بعدم القدرة على التوافـق مع الجار وهو الأقرب منه مكانياً، وهنا يرتفع صوت العقل والبصيرة داعياً إلى الرحيل، إذ مـن الجهل المقام في دار الذلّ والهوان، يقول غانم بن الوليد الآشوني[٥] في ذلك:[٦]

وإذا الدّيَـــارُ تنكّـــرَت حالاتُـــها ... فَـدَعِ الدّيـارَ وأسْـرِعْ التّحويـــلا
لَيْـسَ المُقـــامُ عَلَيْـــكَ حتمـــاً واجبـــاً ... فـي بلـدة تَـذْعُ العزيـــز ذليـــلا
لا يـــترضى حُـــرّ بمـــنزلِ ذِلّـــةٍ ... لو لـــم يجـد فـي الخـافقينَ مقيـلا

وغانم حرّ عزيزٌ يأبى المقام في بلدة تنتقص من كرامته أو حريته ويتخذ مـن الرحيـل سبيلاً للاحتفاظ بالعزة والكرامة، ورفض الذلّ.

فهو يحاول أن يتجاوز القيود المكانية التي تحتم عليه القبول بمـا لا تطيـق نفسـه ولا تحتمل من أشكال الخضوع والاستكانة.

---

[١] هو: أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالبر، فقيه عالم بالحديث، ومؤرخ أديب، ولد بقرطبة، سنة ٣٦٨هـ، وتوفي سنة ٤٦٣هـ. انظر: المغرب، ج٢، ص٤٠٧، المطمح، ص٢٩٤-٢٩٦، النفح، ج٤، ص٢٩، الذخيرة، ج٣، ص٨٢-٨٣.

[٢] النفح، ج٤، ص٣٠، المطمح، ص٢٩٥-٢٩٦.

[٣] في النفح، وعاد.

[٤] في النفح: عوتبَ.

[٥] هو: غانم بن وليد بن عبدالرحمن المخزومي الآشوني المالقي، أديب ماهر، وفقيه مقدّم، ومحدّث جليل، وأستاذ في النحو واللغة والكلام ت سنة ٤٧٠هـ. انظر: المغرب، ج١، ص٢٤٠-٢٤١ ؛ الذخيرة، ج١، ص٥٣٣-٥٤٤.

[٦] الذخيرة، ج١، ص٥٣٣ ؛ المغرب، ج١، ٨ص٢٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الملاحظ أن المكان الذي يتناوله الشاعر – غالباً – في هـذه المقطوعـات، مدنـاً سكنها بعد رحيله عن مدينته التي نشأ فيها، وكأن تجاوزه لحدود مدينته إيذاناً بامتلاكـه القـدرة على التخلّص من أي ارتباط له قد ينشأ في ظل وجوده في مدن أندلسية جديدة. فهذا أبو العـرب بن أبي الفرات[١] يتّخذ أوكار العتاق وطناً بعد فراق الوطن. يقول:[٢]

فيـا نفـس لا تسـتصحبي الـهَوَنَ إنّـه ... وإن خَدَعَـتْ أسْـبَابه شَـرّ صَـاحِب
ويـا وطنـي إن بِنـتَ عَنّـي فـإنّني ... سـأوطن أوْكـارَ العِتَـاقِ النَجَـائِبُ
إذا كـان أصلـيَ مـن تُـرَابٍ فكلّـها ... بـلادي وكُـلّ العـالمين أقـاربي

يؤكّد الشاعر في هذه الأبيات على أن مفارقة الأوطان عنوان للرحيل المسـتمر حيـث تتساوى الأماكن في ميزان الشاعر، فالإنسان بعد فقده لوطنه الأم يسهل عليه – غالباً – احتمـال فقدان مكانٍ آخر، بل قد يُدمن الترحال ويألفه، بحيث يصعب عليه الثبات والاستقرار في مدينـة محددة، وهذه مرحلة تمثل حالةً لا يصل المرء إليها إلا بعد رحيله عن مدينته، ومواجهته الغربـة بقسوتها وعذابها، فتزداد نفسه قوة وقدرة على التحرّر النسبي من سطوة قوة الجذب التي كـانت تثبّته في المكان.

ويبدو أنّ الشاعر الأندلسي قد اتخذ من الرحيل عن المدينة سبيلاً يدافع به عـن مكانتـه وكرامته، متوسلاً بالمقطوعات الشعرية التي تصوّر رحيله مواجهة قوية وتحدّيـاً ورفضـاً لمـا يعانيه في المدينة. وقد أكّد شاعر أندلسي وهو أبو بكر بن مذحج[٣] قرار الرحيـل رفضـاً لمـا يجلبه المقام في مدينة حمص من استخفاف فقال:[٤]

ولَمّـا رأى حِمْـص اسْـتَخَفّتْ بِقَـدْره ... على أنّـها، كـانَتْ بِـهِ لَيْلَـةَ القَـدْرِ
تَحَمّـلَ عَنْـها وَالبِـلادُ عَرِيضَـةٌ ... كما سُلّ مِنْ غِمْدِ الدُّجى صارمُ الفَجـرِ

---

[١] أبو العرب محمد بن أبي الفرات القرشي الصقلي، ولد بصقلية، سنة ٤٢٣هـ، وغادرها عند الفتح النورماندي، توفي بميورقة سنة ٥٠٧هـ. انظر: الخريدة، ق٤، ج٢، ص١٠٢-١٠٩.

[٢] الخريدة، ق٢، ص١٠٧.

[٣] هو: أبو بكر محمد بن مذحج ابن عم أبي الحكم عمرو بن مذحج بن حزم. انظر: النفح، ج٣، ص٤٧٠-٤٧١، الذخيرة، ج٢، ص٣٤٦-٣٤٧، المغرب، ج١، ص١٧٤.

[٤] النفح، ج٣، ص٤٧١-٤٧٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعلى الرغم مما يقال في مثل هذه المقطوعات الشعرية التي يلقي فيها الشاعر بتبعات عدم انسجامه على عاتق المدينة وسكانها، فإن الترحال المتكرر دلالة على عجز الشاعر عن التكيّف مع محيطه لأسباب قد تصدر عن نفسٍ أفرطت في الرّفض لكل ما يتمثّل له على أرض الواقع من ظروف تشعرها بالذل أو استلاب القدرة، وهذه النفس – غالباً – تستشعر تميّزها، وتدرك ما تمتلك من قدراتٍ توصله إلى الحدّ الذي يشكّل حاجزاً يحول بينها وبين الرضى والقناعة بما لديها، أو الخضوع والتنازل، وتتصدّى لذلك الواقع بالرّفض الفعلي المتمثّل بالرحيل، انطلاقاً من أنّ الفشل الذي يصادفها محدّد ضمن حيّز مكاني بحيث يمكن تجاوزه بالانتقال إلى مكان جديد وهذا التصوّر قد يمنح الشاعر أملاً في تحقيق آماله، وملجأ يعصمه من الغرق فيما يواجهه من هموم وأحزان. يقول ابن بقي القرطبي[١] معلناً عن قدرته على الاستمرار:[٢]

أنا امرؤ إن تَنبتْ بي أرضُ أندلس جئتُ العراق فقامت لي على قدم

ومع أنّ الشاعر – غالباً – يحاول إثبات صموده وقدرته على الاستمرار، واستقلاليته من خلال الرحيل والعيش في مدينة جديدة إلا أنّ ما يبثّه في قصائده يكشف عن عِظم الألم الذي يرافق رحيله عن مدينته ومواجهته للغربة.

والغربة تمثّل رفيق دربٍ للإنسان، إذ لا سكينة مع الحركة التي تغيّر المألوف ليغدو إلى مجهول يخشاه. يحنّ الإنسان بطبعه إلى ما يألف، ويستعظم فقده، ويعدو مسرعاً خلف آمال يرسمها باحثاً من خلالها عن دافعٍ للبقاء والاستمرار. يقول ابن الحداد:[٣]

وَحَياتُنا سَفَرٌ وَمَوطِنُنا الرّدَى لَكن كَرِهنا أن نُحِلّ المَوطِنا

ويمثّل هذا القول فكراً عميقاً تبدو الحياة من خلاله رحلة مستمرة وغربة لا تنتهي إلا بالموت. ولعلّ الرحيل نفسه يمثّل التحوّل المكاني، سواء أكان من جسد الأمّ إلى المهد، أم من مدينة إلى أخرى، وقد يعدّ التحوّل الزماني بمثابة الرحيل لما قد يحدثه من تغيّر وتبدّل بما يحيط

---

[١] ابن بقيّ: أبو بكر يحيى بن بقي الأندلسي القرطبي، كان آية في النثر والنظم بارعاً في نظم الموشحات، توفي بوادي آش سنة ٥٤٠هـ. انظر: الذخيرة، ٢/٣٦٢-٣٧٦، القلائد، ٤/٩١٩-٩٢٧.

[٢] الخريدة، ق٤، ج٢، ص١٤١.

[٣] ديوان ابن الحدّاد، ص٢٨٠، الخريدة ق٤، ج٢، ص٢٠٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بنا، حتى الجسد عند تحوّله بفعل الزمن، يشعر الروح بالرحيل المستمر خلاله مما قد يولّد الشعور بالحنين إلى سالف العهد.

يرافق هذا التحول المكاني صراع بين قوة الاقصاء أو القوة الطاردة وقوة الجذب التي تتحول عند الرحيل إلى قوة كامنة تبحث عن فرصة تستطيع من خلالها استعادة سيطرتها، ولعلّ ما توافر لدينا من نماذج شعريّة يؤكّد استمرارية الصّراع حتى بعد اتخاذ قرار الرحيل.

فقد استطاع الشاعر الأندلسي تصوير بعض زوايا ذلك الصراع الداخلي الذي يرافق رحيله عن مدينته وأحبته، يقول ابن درّاج[1] مادحاً خيران العامري، واصفاً رحلة بحرية:

إِلَيْكَ شَحَنَّا الفُلْكَ تَهْوِي كَأَنَّها ... وقد ذُعِرَتْ عَنْ مَغْرِبِ الشَّمسِ غِرْبانُ
وفي طَيِّ أَسْمالِ الغَرِيبِ غَرَائِبٌ ... سَكَنَّ شَغافَ القَلْبِ شِيبٌ وَوِلْدانُ
يُرَدِّدْنَ في الأَحْشاءِ حَرَّ مَصائِبِ ... تَزِيدُ ظَلاماً لَيْلَها وَهْيَ نِيرانُ
إذ غِيضَ ماءُ البَحْرِ مِنْها مَدَدْتَهُ ... بدَمعِ عيونٍ يَمْتَرِيهِنَّ أَشْجانُ
وإنْ سَكَنت عَنّا الرِّياحُ جَرى بِنا ... زَفِيرٌ إلى ذِكْرِ الأحبّةِ حَنّانُ
يَقُلْنَ – وَمَوجُ البَحْرِ والهمّ والدّجى ... تَموجُ بنا فيها عُيُونٌ وآذانُ
ألا هَلْ إلى الدّنيا مَعادٌ وهل لنا ... سِوى البَحْرِ قَبْرٌ أو سوى الماء أكْفانُ

يصوّر ابن دراج في هذه الأبيات الرحلة من خلال هواجس النفس، وما يدور فيها من حنين يمازجه الخوف والقلق، ويتابع ابن درّاج رؤيته في الرحيل قائلاً:[2]

فَإنْ غَرُبَتْ أَرْضُ المَغارِبِ مَوئِلي ... وأَنْكَرَني فِيها خَلِيطٌ وَخِلّانُ
فَكَمْ رَحّبَتْ أَرْضُ العِراقِ بِمَقْدِمي ... وأجْزَلَتْ البُشْرى عَلَيَّ خُراسانُ[3]
وإنّ بِلاداً أَخْرَجَتْني لَعُطَّلٌ ... وإنّ زَمَاناً خَانَ عَهْدي لَخَوّانُ
سَلامٌ على الإخوانِ! تَسْليمَ آيِسٍ ... وَسَقياً لِدهرٍ كَان لي فِيهِ إخْوانُ

---

[1] هو: أبو عمر أحمد بن درّاج القسطلي، كان كاتب المنصور بن أبي عامر، "ت ٤٢١هـ". انظر في ترجمته: المغرب، ج١، ص٥٠-٥١.

[2] ابن درّاج – الديوان، ص٩٠-٩١.

[3] خُراسان: وهي بلاد واسعة تمتد بين العراق والهند. انظر: معجم البلدان، ج٢، ص٣٥٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إنّ ابن درّاج في هذه القصيدة يعلن صموده في مواجهة الاغتراب والغربة الناجمة عن التحول الزماني والمكاني، ويظهر اعتزازه بنفسه، وقدرته على الاستمرار، جاعلاً من الرحيل إلى مدينة أندلسية جديدة سبيلاً يزيد من القدرة على المتابعة وتحمّل العذاب المرافق لهذه الرحلة، وقد كانت مدينة المَريّة في هذه القصيدة هي الهدف، والحلول في بلاط خيران العامري بمثابة الظفر بالنعيم حيث يقول ابن درّاج متابعاً:

أقُولُ لَهُمْ صَبْراً لَكُم أوْ عَلَيكُمُ ... عَسى العَيْشُ مَحْمودٌ أوِ المَوْتُ عَجْلانُ
ولا قَنَطٌ، واليُسْرُ لِلعُسْرِ غالِبٌ ... وفي العَرْشِ رَبٌّ بالخَلائِقِ رَحمانُ
ولا يَأسَ مِن روْحٍ وفي الله مَطْمَحٌ ... ولا بُعدَ مِنْ خَيْرٍ وفي الأرْضِ خَيْرانُ[1]
سَتَنْسَونَ أهْوالَ العَذابِ وَمالكاً ... إذا ضَمَّكُمْ في جَنّةِ الفَوْزِ رِضْوانُ
مَتى تَلحَظوا قَصْرَ "المَريّة" تَظْفَروا ... بِبَحْرِ حَصَى يُمْناهُ دُرٌّ وَمَرجانُ
وتَسْتَبْدِلوا مِن مَوْجِ بَحْرِ شَجَاكمُ ... بِبَحرٍ لَكُم مِنْهُ لُجَيْنٌ وعِقْيانُ

وثمة ملحظ على هذه الأبيات إذ أنّها لم تتناول الرحلة ببعدها المكاني، أي أنّ ابن درّاج لم يتعرّض لذكر مسميات الأمكنة التي مرّ بها أثناء رحلته، واكتفى باختيار مشاهد من المحيط يُسقط عليها انفعالاته الداخلية. ولمعترض أن يقول: لقد وصف ابن درّاج رحلة بحرية قد لا يمرّ خلالها بالمدن، إلا أنّ ديوان ابن درّاج يحمل لنا العديد من القصائد التي تصف رحلاته البرية والبحرية، وجميع تلك القصائد تتسم بخلوّها من مسميات الأمكنة، يقول ابن درّاج مثلاً من قصيدة له في وصف رحلة برية قام بها:[2]

دَعِي عَزَماتِ المستضام تسيرُ ... فَتَنْجِدُ في عُرْضِ الفَلا وتَغُورُ
لعلّ بما أشجاكِ من لوعةِ النّوى ... يُعَزّ ذليلٌ أو يُفَكّ أسيرُ
تُخَوّفُني طولَ السّفارِ وإنّهُ ... لتقبيلِ كفّ العامِرِيّ سَفيرُ
دَعيني أرِد ماءَ المفاوِزِ آجناً ... إلى حَيثُ ماءُ المكرُماتِ نميرُ[3]
ولَمّا تدانَتْ للوداعِ وقد هَفا ... بِصَبْري منها أنّةٌ وزَفيرُ
تناشِدُني عَهدَ المَودّة والهَوى ... وفي المَهْدِ مبغومٌ[4] النّداء صغيرُ

---

(١) خيرانُ: " هو خيران العامري الصقلبي، وكان من جلّة فتيان المنصور بن أبي عامر، وقد استقلّ بالمرية في سنة ٤٠٥هـ، واستولى على اوريولة ومرسية، ت سنة ٤١٩هـ" انظر في ترجمته البيان المغرب، ج٣، ص١٦٦.

(٢) ابن درّاج – الديوان، ص٢٩٧-٢٩٨.

(٣) نمير: يقال: ماء نمير أي كثير، اللسان، (مادة نمر).

(٤) مبغوم: ولد الظبية، اللسان، مادة (بغم).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويتابع ابن درّاج قصيدته معلناً العصيان لكل ما من شأنه تثبيت همّته أو الحدّ من عزمه الذي استطاع به تجاوز كلّ الصعاب في رحلته إذ يقول:

عَصَيْتُ شفيعَ النَّفسِ فيها وقادني رَوَاحٌ لِتدآبِ السّرى وبُكُورُ
ولو شاهَدتْني والصّواخِدُ[1] تَلتَظِي عَليّ ورقراقُ السراب يَمورُ[2]
لَبَانَ لها أنّي مِنَ الضّيْمِ جازِعٌ وأنّي عَلَى مَضّ[3] الخطوب صَبُورُ
لَقَدْ أيْقَنَتْ أنّ المنى طوع هِمّتي وأنّي بعطْفِ العامِرِيّ جَدِيرُ

لم يتطرّق ابن درّاج إلى ذكر الأمكنة التي مرّ بها في رحلته تسميةً أو وصفاً، إلا أنّه استطاع تصوير ما ينتاب نفسه من صراع قبيل الرحيل، وفي لحظة الفراق وأثناء الرحلة، حيث قام برصد كلّ العقبات والمشاق التي واجهته في رحلته، وتوظيفها لإبراز ما يتمتع به من همّة عالية تمكّنه من تجاوز الخوف والعجز والمخاطر، بل نجد أنّ إرادة الرحيل تنتصر على الرغم مما في نفس ابن درّاج من نزوع لزوجه وأولاده، وبهذا العزم القوي يستحق شاعرنا عطف العامري ورضاه.

ويبدو أنّ هناك من نظر إلى الرحلة من زاوية مختلفة. يقول ابن الحنّاط الضرير:[4]

مَرَرْتُ بشَوسٍ[5] والنجومُ كأنّها توقَدُ مِنْ فِكري وتُسرجُ مِنْ ذِهْني
وأسْرَيْتُ من بَدْرِ الظلام بألبَةٍ[6] بِصُحبَةِ مَطفيّ الجَمْرِ أو مكفن الظّعنِ
لَبِسْنا لها لَيلاً من الثّلجِ أبيضا كسَتهُ يدُ الصّنّبر[7] ثوباً مِن القطْنِ
ورُحنا على إلبيرة[8] فاستقلّ بي جَنَاحُ عُقابٍ لا يرُوحُ إلى وَكْنِ[9]
ولما تنكّبْنَا المنكّبَ[10] لمْ نَجِدْ لنا مركباً أهدى سبيلا من السُفنِ

---

[1] الصواخد: الهواجر. اللسان مادة (صخد).
[2] يمور: يتحرّك. اللسان مادة (مور).
[3] مضّ الخطوب: شديدها وما يسوء منها. اللسان (مضض).
[4] الذخيرة، ج١، ص٢٨١.
[5] شوس: نهر جنوب قرطبة. انظر: الروض المعطار، ص٤٥٨.
[6] ألبة: من إقليم إشبيليّة. انظر: المسالك والممالك، ج٢، ص٩٠٥.
[7] الصّنّبر: البرد الشديد. انظر: اللسان مادة (صنبر).
(٨) إلبيرة: وهي مدينة أندلسيّة عظيمة من قواعد الأندلس، تقع بين القبلة والشرق من قرطبة، وفيها عدة مدن منها: قسطيلية وغرناطة. انظر: معجم البلدان، ج١، ص٣٤٤ ؛ الروض المعطار، ص٢٨-٢٩.
[9] وكن: عش الطائر. اللسان مادة (وكن).
(١٠) المنكب: مرسى بالأندلس وله نهر ... انظر: الروض المعطار، ص٥٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عَمِد ابن الحنّاط إلى ذكر مسميات بعض المدن الأندلسية والأمكنة التي مرّ بها في أثناء رحلته، فذكر منها: شوس وألبة ومدينة إلبيرة والمنكّب وقد ظهرت صور المكان وقد أفرغت فيها شحنات القلق والخوف التي رافقت الرحلة. وصوّر – كذلك – بعض ما تركته تلك الأمكنة من بصمات في نفسه، وهذا التصوير لا يهدف إلى نقل صورة المدينة، إذ أنّ الشاعر كان ينتقي ما يريد أن يراه من محيطه، ويسدل الستار على ما تبقّى في المدينة التي يمر بها في رحلته. ويمكن عَدُّ الرحلة مرحلة الغربة والحنين.

ومن الملاحظ أن الشاعر الأندلسي يقف موقفين مختلفين بعد اتخاذه قرار الرحيل عن مدينته أو إجباره عليه، فإما أن يخرج من مدينته لاهثاً وراء آمال قد تعتقه من قيود واقعه دون تخطيط أو تحديد لهوية المكان الذي يقصده، وإما أن تجتذبه مدينة محددة فيرتحل إليها دون الالتفاف لغيرها من المدن متوخياً فيها كل خير.

إذ قد يجتذبه بلاط أحد الحكّام فيقصده مادحاً، يقول ابن اللبّانة:[1]

ولما رأت عيني جناب ميورقة ... آمنتُ وحسبُ المرء بغيته حسبُ
نزلتُ بكافورٍ وتبرٍ وجوهرٍ ... يقال لها الحصباء والرمل والتُربُ
وقلت المكان الرّحب أين؟[2] فقيل لي: ... ذرى ناصر العلياء أجمعه رحبُ

إنّ جزيرة ميورقة منحت ابن اللبانة الأمن المنشود ليقف مؤكّداً تميّز تلك الجزيرة وأفضليتها، مادحاً حاكمها، سعياً لنيل رضاه.

ومما قيل في الإعلاء من دور الحاكم مقطوعة لأبي محمد بن الطلاء المهدوي[3] إذ يقول:[4]

وجميلَ صُنعِكَ في البلادِ وأهلها ... مغنيطسٌ[5] فَيَجْذب قوتِهِ ثِق

---

(1) ابن اللبّانة – الديوان، ص١٨.

(2) الوجه في هذا التركيب: أين المكان الرحب؟ لأن لأسماء الاستفهام الصدارة في الكلام، وآخّر "أين" للضرورة الشعرية.

(3) أبو محمد ابن الطلاء المهدوي، أحد أضياف المعتمد. انظر في ترجمته: الذخيرة، ج٤، ص٢١٥-٢١٧.

(4) الذخيرة، ج٤، ص٢١٦.

(5) مغْنيطس: حجر يجذب الحديد وهو معرب. انظر: اللسان (مغنط).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لكفـــاكَ أندلـــسٌ فنفّـــسْ كـــلّ مـــــن تُرضيـــكَ طاعتُـــهُ وإلا خنّـــــق

ولقد برع الشاعر الأندلسي في رسم صورة الحاكم التي تتباين تبعاً لحال صاحبها، فقد يشكّل الحاكم قوة جذب في حالة الرضى وقوة للإقصاء إذا ما سخط، ولا بدّ أن ينعكس أثر ذلك كله على نفس الشاعر، ليسقط مكنوناته سلبيّتها وإيجابيّها على مدينة ذلك الحاكم. يقول أبو عبدالله بن الحداد:(١)

يـا وافِـــديْ شَـــرْقِ البِـــلادِ وغَرْبِـــها أكرَمْتُمـا خَيْـلَ الوِفَـــادة فأربِطـــا
ورَأيتُمـــا مَلِـــكَ البَرِيّـــةِ فاهنـــآ ووَردتُمـا أرضَ المَريّـــة فاحطِطـــا
يُدمـــي نحـــور الدّارِعيْـــن إذا ارتـــأى ويُـذِلّ عـــزّ العـــالَمينَ إذا سَـــطا

وفي قول ابن الحداد تأكيد أنّ مدينة المريّة قد أصبحت محطاً للرحال لما يتمتع به حاكمـــها من قوة وقدرة على منح الأمن والاستقرار.

من هذا القبيل قول أبي محمد بن سارة الشَنْتَريني وقد حلّ مدينة قرطبة:(٢)

اللهُ أكْـــبَر قَـــــدِ وَافَيْـــتُ قُرْطُبَـــــة دَارَ العُلـــومِ وكُرســـيّ السَـــلاطينِ
وقَـد تـهلّلَ بـــي وجْـــهُ النّجـــاحِ بِـــها طَلْقَ الأسرّةِ من وجه ابـــن حمديـــنِ(٣)
تَزْهـــو العُـــلا بِمسَـــاعيهِ إذا ذُكِـــرَتْ زَهْـو الأنـوفِ بأنفـاس الرّيـــاحينِ
لَـم يُرضِـهِ عَـرَضُ الدنيـــا فَجَـــادَ بـــه وضنّ بـــالأكرمين: العـرض والديـنِ

لقد جاء ذكر المدينة الأندلسية في سياق مدح حاكمها في العديد من القصائد التي قيلت عنـــد حلول بلاط ذلك الحاكم، فكانت تلك القصيدة نقطة البداية التي يمهّد الشاعر من خلالها لنيل ما يطمـــع إليه من رحيله إلى هذه المدينة.

---

(١) ابن الحدّاد - الديوان، ص٦٨.

(٢) الذخيرة، ج٢، ص٥٠٧.

(٣) ابن حمدين: هو أحمد بن حمدين أبو العباسي، تولى قضاء قرطبة، له مصنفات ردّ فيها على الغزالي. توفي سنة ٥٢١هـ. انظر : الخريدة، ق٤، ج٢، ص٢٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإذا كان النجاح حليفاً لبعض الشعراء في وصولهم إلى بلاط أحد حكّام المدن الأندلسية فإن هناك شعراء لم ينالوا مبتغاهم بعد رحيلهم، وحلولهم في مدينة أندلسيّة جديدة مما أشعرهم بخيبة الأمل بعد مواجهة الواقع المغاير لتوقعاتهم، فكان منهم من اتخذ قرار الرحيل مجدداً، يقول أبو الحسن بن الحاج[١] معاتباً المعتمد بن عبّاد لما أجرى مرتبه على يد من لم ينصفه:[٢]

وَصِرْتُ مُؤمّلاً أملاكَ حِمْصٍ ... وَرُوْدَ الهيمِ مَشْفوهِ الحِياضِ
وَرَدْناها فَأَلفَيْنا أُموراً ... مُصَرّفةً على رأيِ ابنِ ماضِ
كَأنّ رَئيسَها الأعلى يَتيمٌ ... يَدورُ عَلَيهِ مِنْهُ حُكْمُ قاضِ
وأنّ مِنَ الغَرائِبِ أنّ مِثْلي ... يَحُلّ بِهِمْ، فَيَرحَلُ غَيْرَ راضِ

فبعد أن كانت إشبيلية (حمص) مناخاً لتحقيق آمال الشاعر ارتحل عنها غير راضٍ عمّا وجده فيها من أمور ترفضها نفسه، وهذا الرفض للمدن الجديدة يتكرّر في قصائدَ أندلسيةٍ عديدة. يقول أبو عامر بن عيشون[٣] وقد اتّخذ قرار الرحيل:[٤]

فلا تَتَكلّفْ للعُبُوسِ مَشَقّةً ... سأرْضيكَ بالهِجْرانِ إذْ أنْتَ غاضِبُ
فَما الأرْضُ تُدْمِير[٥]، ولا أنتَ أهلُها ... ولا الزّرْقُ أعْرَضْت عنّي غائِبُ

---

[١] ذو الوزارتين أبو الحسن بن الحاج جعفر بن إبراهيم بن أحمد، كان مقدماً في النثر والنظم. انظر: القلائد، ج١، ص٤٠٠-٤١٣.

[٢] القلائد، ج١، ص٤٠٩.

[٣] ابن عيشون: الحاج أبو عامر بن عيشون، رحل إلى المشرق وعاد، له تحقّق بالأدب. انظر: الذخيرة، ج٢، ص٥٩٣، القلائد، ج٤، ص٨٨٩-٨٩٣، النفح، ج٢، ص٤٩٤.

[٤] القلائد، ج٤، ص٨٩٣.

[٥] من كور الأندلس، تقع شرقي قرطبة، وقيل سميت تدمير نسبة إلى ملكها تدمير. انظر: الروض المعطار، ص١٣١-١٣٢ ؛ معجم البلدان، ج٢، ١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويُصرّح أبو عامر بن عيشون في هذين البيتين بقدرته على تجاوز حدود مدينة (تُدْمِـير) غير مكترث لفقدها، وتظهر فيهما كذلك مواجهة قويّة لحاكم المدينة، لا نجدها في قول ابن اللبّانة قبل خروجه من مدينة ميورقة، إذ يظهر ابن اللبّانة فيه ارتباطه القويّ بالحاكم على الرغم من رحيله عن مدينته. يقول:[١]

أَتَـــتْ ذِلَّـــةٌ مِنْـــكَ مَحْبوبَـــةٌ ... فَلَـمْ أرْضَ بـالعِزّ مِنْـــها بَديـــلا
ولَـــولا مُقَـــامي بيـــنَ العُـــداةِ ... لمَـا كُنْـتُ أوثِـرُ عَنْـكَ الرَّحيـــلا
ومَـن بَلَّـــهُ الغَيْـــثُ فـــي بَطْـــن وادٍ ... وبـاتَ فـــلا يـــأمَنَنَّ السُّـيُولا

يُلقي ابن اللبّانة بأسباب رحيله على عاتق العُداة والوشاة مؤكّداً على أنّ هذا الرحيل عن مدينة ميورقة لا يتضمّن رغبة منه بمفارقة حاكمها، أو البحث عن بديل لمدينته. وفي مثل هذا القول محاولة لاسترضاء الحاكم، وأنّى لابن اللبّانة تحقيق ما يصبو إليه.

وقد استطاع الشاعر الأندلسي أن يسجّل في شعره معاناته التي تبدأ منذ حلوله المدينة الأندلسيّة الجديدة، وإنهائه لذلك الصراع العنيف الذي رافقه أثناء رحيله عند مدينته، ومن ذلك ما يسجلّه البطليوسي[٢] وقد دخل سرقسطة أيام المستعين بالله[٣] إذ يقول:[٤]

أنـاخَتْ بِنـــا فـــي أرضِ شَـــنْتَمَريَّةٍ[٥] ... هواجسُ ظَـــنّ خُـــنَ والظـــنُّ خَـوّانُ
وشِـــمْنا بروقـــاً للمواعيـــد أتعبـــتْ ... نواظرنـــا دَهْـــراً، ولـــم يَـــهْمِ هَتّـــانُ
فَسِـرنا ومـــا نُلْـــوي علـــى متعـــذّر ... إذا وطـــنٌ أقصـــاك آوتْـــكَ أوْطَـــانُ

---

(١) شعر ابن اللبّانة، ص٧٩-٨٠.

(٢) البَطَليوسي: هو أبو محمد عبدالله ابن السّيّد البَطَلْيوسي اللغوي، وُلِد سنة ٤٤٤هـ، وتوفي سنة ٥٢٥هـ. انظر: الذخيرة، ج٣، ص٥٨٤-٥٨٩ ؛ أزهار الرياض، ج٣، ص١٠٣-١٤٩.

(٣) هو أبو أيوب سليمان بن حكم بن سليمان الملقّب بالمستعين بالله، وُليَ الخلافة مرتين. انظر: البيان المغرب، ج٣، ص٩١-٩٥.

(٤) الذخيرة، ج٣، ص٥٨٨ ؛ أزهار الرياض، ج٣، ص١٢٢ ؛ النفح، ج٣، ص٦٤٨، معجم البلدان، ج٣، ص٣٦٧.

(٥) شَنْتَمَريّة: وتكتب شَنْتَ مَريّة وهي: مدينة بالأندلس من مدن اكشونية تمتدّ على معظم البحر، وهي أوّل الحصون التي تُعدّ لبنبلونة وأتقنها، وهي مدينة متوسطة القدر حسنة الترتيب. انظر الروض المعطاء، ص٣٤٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لكن مدينة شَنْتَمريّة لم تقدّم للشاعر ما توخاه فيها من تعويض، وهذا دفـــع البطليوســي لتجديد آماله في مدينة أخرى؛ يقول البَطَلْيَوسي متابعاً:(١)

رَحَلْنـا سَـوَام الحَمْــدِ عَنْــها لغَيْرِهــا ... فَلا مَاؤُها صَـدًا ولا النّبْـت سـعدانُ
إلـى مَلِــكٍ حَابــاهُ بِــالمَجْدِ يوســفُ ... وشــادَ لَــهُ البَيْـتَ الرفيـعَ سـليمانُ
فيَــا مُسْـتَعيناً مُسـتَعاناً لِمَــنْ نَبَــا ... بــه وطــن يَومــاً وعضتّــه أزمــانُ

ومن خلال هذه التجارب المختلفة لشعراء الأندلس مع المدن التي تحطّ بها الرّحال فـي أعقاب مفارقة المدينة التي نشأ فيها يمكن القول: إنّ المدن الجديدة لا تمتلك قوة جـذب مساوية لتلك القوة التي تمتلكها المدينة الوطن إذا جاز القول، فالرحيل عن تلك المدن بَاتِ أمراً هيّنـاً، إلا أنّ التنكّر المتتابع من مدن مختلفة قد يحيط الشاعر بالهزيمة، ليتصدّى لذلك بقوة وثقة يعلنها مـن خلال ما تفيض به قريحته، يقول الحصري صاحب الاقتراح:(٢)

لَـوْ كُنْـتُ فـي غَـيْرِ الجَزيـرةِ(٣) أعملـت ... مصــر إلــيّ اليعمُــلات(٤) الرّقصــا
لكنّنـــي حيـــث المعـــالي لا تُـــرى ... ويعــدُ جــامع فضلـــهنّ ملخصـــا
هـــذا محـــلّ لا أحـــبّ حلولـــه ... والمحــلُ أقصدنـــي إليــه وأشـــخصا

إنّ مواجهة الشاعر لتنكر المدينة الجديدة، وما فيها من عقبات تحـول بينــه والوصــول لتحقيق مطامحه، قد يشكّل في نفسه حالة من الصراع، والرفض للمكان الجديد، يرافــق ذلــك – أحياناً – ارتداد عنيف نحو مدينة المنشأ، إذ يقف الشاعر في مواجهة قوى الإقصاء التي كــانت سبباً في مفارقته لوطنه ليؤكّد أنّ الصراع لم ينته برحيله، بل تجدّد في ديار الغربة، فاشتعل قلبــه شوقاً وحنيناً للوطن؛ ويتابع الحُصَري قصيدته قائلاً:(٥)

وَطَــنٌ بِغَـيْر غنــى أحــبّ إلـــى الفتـــى ... مــن غُربــةٍ تغنيــه إذ لا مخلصـــا

---

(١) النفح، ج١، ص٦٤٨، الذخيرة، ج٣، ص٥٨٨.

(٢) الحصري، علي أبو الحسن بن عبدالغني الحصري الفهري، الضرير، "ت ٤٨٨هـ" – المعشرات واقتراح القريح واجتراح الجريح، ط٢، تحقيق محمد المرزوقي الجيلاني ابن الحاج يحيى، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٤. ص١٨١.

(٣) مدينة تقع على ربوة مشرفة على البحر. انظر: المسالك والممالك، ج٢، ص٩٠٥-٩٠٦. وقد يكون المقصود جزيرة الأندلس التي كانت تسمى قديماً إبارية، ثم باطقة، ثم إشبانية، ثم الأندلس. أنظر: المسالك والممالك، ج٢، ص٨٩٠-٨٩١.

(٤) اليعمُلات: جمع يعملة وهي الناقة السريعة. اللسان مادة (عمل).

(٥) الحصري – اقتراح القريح، ص١٨٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فما عاد الفقر يشكّل قوة لاقصاء الشاعر عن مدينته، وبهذا القول تبدأ مرحلة التصدّي للقوة الطاردة بكل ما كانت تحويه من دوافع للرحيل عن المدينة (الوطن).

فقد كان طلب الرزق دافعاً في قول بعض الشعراء كما في قول أبي الوليد بن مسلمة[١] الذي حثّ فيه على طلب الرزق أينما كان:[٢]

إذا خـانَكَ الـرزقُ فـي بلـدةٍ	ووافـاك مـن همّـها مـا كَـثرْ
فَمُفْتـاحُ رزقِـكَ فـي بلـدةٍ	سـواها فردّهـا تَنَـلْ مـا يَسُـرْ

إلا أنّ الحُصَري قد أكّد في بيته السابق ضعف هذا الدافع مقارنةً مع ما يمنحه الوطن لأهله وسكانه.

ونستمع إلى أبي إسحاق التطيلي[٣] وهو يقف بكبرياء أمام تنكّر مدينة حمص (إشْبيليّة) له، المدينة التي حلّ فيها بعد فراقه لمدينته مصوراً العلاقة التي تربطه بمدينته ومعللاً ما يواجهه من تنكّر. إذ يقول:[٤]

إنْ تجْـفُ حِمْـصٌ فَتَجْفُـو غَـيرَ ذِي رَحِـمٍ	تعصّبـاً لِبَنِيـها فيـه إذ مَجُـدَا
وَغَاظَـها أنْ رأتِ إنجـابَ ضَرّتِـها	ومـن رأى كرمـاً فـي نِـدّه حَقَـدا
فَـإنْ نَمَتْنِـي وَلِيـداً دارُ قُرْطُبَـةٍ	وأنكرَتني وسِـنّي قَـدْ وَفَـى رَشَـدا
فعُذْرُهـا أنّ أمّ الليـثِ ترضِعَـه	شِـبْلاً وتَمنَـعُ مِنْـهُ درّهـا أسَـدا

ولهذه الأبيات دلالة نفسية، فالشاعر يبحث عن أعذار يصوغ من خلالها ما كان من تنكّر مدينة حمص له، وهو يقف في محاولة لإثبات قوته في مواجهة أي شعور بالانهزام أمام جفاء

---

(١) أبو الوليد بن مسلمة: هو الوزير الكاتب إسماعيل بن عبدالرحمن بن حجّاج اللخمي، من أهل إشبيليّة، وُلد سنة ٤٤٧هـ، وتوفي سنة ٥٣٤هـ. أنظر في ترجمته: التكملة، ج١، ص١٥٥.

(٢) النفح، ج٤، ص١١٣.

(٣) هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد التطيلي الضرير، المعروف بالتطيلي الأصغر، نشأ بقرطبة وسكن إشبيلية. انظر: التحفة، ص٤٠، المقتضب، ص٨٠.

(٤) ابن الآبار "أبو عبدالله محمد بن الآبار القضاعي البلنسي"، "ت ٦٥٨هـ" - تحفة القادم، ط١، تحقيق إحسان عباس، دار المغرب الإسلامي - بيروت، ١٩٨٦م. ص٤٠ ؛ ابن الآبار - المقتضب من كتاب تحفة القادم، ط٣، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري - القاهرة، دار الكتاب اللبناني - بيروت، ١٩٨٩. ص٨٠-٨١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سَـقَاكَ مِثْـلُ الـذي عَفَّـى رُبَـاكَ عَسَـى ... يُنبيكَ كيفَ غريـبُ الرّحْـلِ شَاسِـعُهُ
للهِ مِـنْ وطَـنٍ قَلْبـي لَـهُ وَطَـنٌ ... يَبْلـى وأَبْلـى ومَـا تَبْلـي فَجائِعُـهُ
فطالَمـا قَصَّـرَتْ لَيْلـي مقَـاصِرُهُ ... لهوا وما صَنَّعَتْ صُبحـي مصانِعُـهُ
وطالمـا أيْنَعَـتْ حولـي حدائقُـهُ ... والعيشُ غضٌّ أنيـقُ الـرَّوْضِ يانِعُـهُ

إن ابن درّاج يرتدّ إلى ماضيه في الوطن، مؤكّداً على أنّ ذكراه حيّة في قلبه، محفـورة في أعماقه ولا يمكن نسيانها أو الانشغال عنها. فالوطن يسكنه بكل ما يمثّله من صور لذكريـات السعادة بين ربوعه، ونلحظ أنّ ما يحمله الشاعر من ذكريات مرتبطة بالمكان تعتمـد فـي قـوة تأثيرها ومستوى جذبها على المرحلة السنيّة التي عاشها الشاعر فـي المدينـة، ولعـلّ مرحلـة الطفولة والصبا، تشكّل أعمق الأثر في ذاكرة الإنسان، فالوطن الذي نشأ فيه الشـاعر الأندلسـي يبقى مغروساً في أعماقه لارتباطه بتلك المرحلة السنيّة الهامة. يقـول ابـن الـبراء التّجيبـي[١] متذكراً عهد الصبا:[٢]

أحِـنُّ إلـى أرضٍ لَبِسْـتُ بِـها الصِّبَـا ... فَعِنْدي لها من أجل ذِكْر الصّبـا وَجْـدُ
ومـن أجـلِ نَصْـلِ السّـيف أُكـرِمَ جَفْنُـهُ ... ومن جهةِ الرّيّا سَـما العنـبرُ الـوردُ

وقال من قصيدة أخرى:[٣]

سـقى واكِـفُ القطـر الجزيـرَةَ إننـي ... إليـها وإن جَـدّ الفِـراقُ لوامـقُ[٤]
ديـاراً بـها فـارقْتُ عَصـرَ شـبيبتي ... فيا حَبّـذا عَصْـرُ الشّـبابِ المفـارقُ
شـبابٌ شَـفَى نفسـي وودّعَ مُسْـرعاً ... كما زارَ طيـفٌ أو تبـوّجَ بـارِقُ[٥]
قَضَيْـتُ بـه حَـقّ الـهوى وأطعتُـه ... فأيّامُـه فـي عَيـنِ فِكـري حَدائـق

إنّ حنين ابن البراء إلى مدينته يرتبط بحنينه إلى عهد الصّبا الذي قضاه فـي ربوعـها، وخلّفه فيها بعد رحيله وتجاوزه لتلك المرحلة العمريّة، ويمكن القول إنّ قدرة الإنسان على

---

[١] ابن البراء التّجيبي: وهو أبو العبّاس أحمد بن محمد بن البراء التّجيبي، من الجزيرة الخضراء، ومن المجيدين من الشعراء، فارق وطنه وهو صغير، منتزحاً إلى الصحراء. انظر في ترجمته: تحفة القادم، ص١٤ ؛ المقتضب، ص٦١.

[٢] تحفة القادم، ص١٤.

[٣] المصدر نفسه، ص١٤-١٥ ؛ المقتضب، ص٦١.

[٤] وامقٌ: الوماق محبّة لغير الربا، اللسان مادة (ومق).

[٥] تبوّج البرق: تفرّق في وجه السحاب، وقيل: تتابع لمعه. اللسان مادة (بوج). والرواية في المقتضب تعوّج.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التفاعل مع محيطه في زمن الطفولة والصبّا تفوق قدرته على التفاعل في المراحل السنيّة المتعاقبة، فالمخيلة تستمدّ صورها ممّا تقوم الذّاكرة بتخزينه من مشاهد وتجارب مستمدّة من المدينة التي نشأ بها الشاعر، وهذه المخزونات الذهنية في هذه المرحلة تكون أكثر ثباتاً فيصعب نسيانها، وهي تشكّل عالم الإنسان الداخلي بما يحويه من أحلام وآمال ومخاوف، يقول ابن الحدّاد:(١)

وَكَمْ خَطَبَتْني مِصرُ في نَيْلِ نيلِها ... ورامَتْ بِنا بغْدادُ وِرْدَ فُراتِها
ولمْ أرْضَ أرضاً غير مَبدأ نشأتي ... ولَو لُحْتَ شَمْساً في سَماءِ وِلاتِها
وأسْنى المُنى ما نيلَ في مَيْعَةِ الصبّا ... وَهلْ تَحْسُن الأشْياءَ بَعْدَ فَواتِها

إنّ للأرض التي نشأ بها الشاعر خصوصيّتها، إذ لا يملك المرء زمام أمره في تفضيله واستحسانه لها، فهي مخزونة في ذاكرته كبناءٍ شامخٍ، صنعت لبناته من تربة الطفولة وماء الشباب بعد امتزاجهما عبر سنوات العمر الأولى. يقول ابن خفاجة:(٢)

مَيادينُ أوْطاني ومَعْهَدُ لَذّتي ... ومَنْشأ تَهْيامي وَمَلْعبَ غِزلاني

لقد استطاع ابن خفاجة اختزال كلّ ما يمثّله وطن المنشأ من صور ومعان تدور في خلده، فهو ميادين أوطاره ومنشأ تهيامه، فيه انطلقت معاني السعادة لتحيط بأيام الشاعر، وتستمرّ في تزايد في فضلها ووقعها الحسن في نفس ابن خفاجة، وإن انقطع عنها في الزمان والمكان الذين يقف الشاعر في إمكانية استعادتهما بين المستحيل المتمثّل باستعادته للزمان المنصرم وبين الممكن نسبياً المتمثّل باستعادة المكان الذي يبقى منتظراً من يزوره.

ومن القوى التي تعمّق العلاقة الجامعة بين الشاعر والمدينة وتحدّ من قدرته على احتمال فراقها، مؤججة في نفسه حنيناً متوقّداً إليها، قوة تنشأ من الألفة المتشكّلة بين الشاعر ومدينته، وقد أشار العديد من الشعراء إلى الألفة في قصائدهم. يقول الوزير الفقيه أبو أيّوب ابن أبي أميةّ(٣) عن الألفة في قصائده:(٤)

---

(١) ابن الحدّاد – الديوان، ص٤٤ ؛ الذخيرة، ج١، ص٤٤٥.

(٢) ابن خفاجة – الديوان، ص٣٤٥.

(٣) أبو أيّوب ابن أميّة، الوزير الفقيه أبو أيوب ابن أمية، " ت ٥٢٢ هـ" – انظر في ترجمته: القلائد، ج٢، ص٤٦٢–٤٦٥ ؛ مطمح الأنفس، ص٢١٥–٢١٦ ؛ النفح، ج٣، ص٥٥٠–٥٥١.

(٤) قلائد العقيان، ج٢، ص٤٦٣ ؛ النفح، ج٣، ص٥٥٠–٥٥١، مطمح الأنفس، ص٢١٦ ؛ الخريدة، ق٤، ج٢، ص٤٩١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يـا مَـنزلَ الأنْـسِ(1) أهْـواهُ وآلفُـهُ   حقّاً لقَدْ جُمِعَتْ فـي صَحْنِـك البِـدعُ
للهِ مـا اصْطَنَعـتْ نُعْمـاكَ عِنْـديَ فـي   يَـوْمٍ نعِمَـتُ بِـهِ والشَّـملُ مُجْتَمِـعُ

وهذه الألفة تحمل الكثير من الخصوصيّة في نفس الشاعر، إذ يصبح المكان المألوف بعد فقده أكثر جمالاً وبهجةً.

إنّ مدينة الشاعر تتمتع بخصوصيّة، ومركزيّة في الشعور والارتباط فهي بمثابة دائـرة مركزيّة في داخل الوطن، منها ينطلق الشاعر، وإليها يعود فـي حنينـه واشـتياقه إذا أبعدتـه المسافات، جاعلاً منها فردوساً خاصاً به، فالألفة تستحيل إلى حنين وعشق، يدفع بالشـاعر إلـى إعمال مخيّلته في كلّ ما لديه من صور مختزنة في ذاكرته ليحيلها إلى الكمال، جاعلاً من مدينتـه جنّة الخلد المفقودة، يقول ابن خفاجة:(2)

فَسَـقْيا لأرْضٍ ألِفْتُـهـا فإنّـهـا   وإنْ أكُ قَـدْ فارَقْتُـها، جنّـةُ الخُلْـدِ

ومن المؤكّد أنّ المدينة الأندلسيّة قد لا تمنح الشاعر الذي نشأ فيها ما يتوخّاه مـن آمـال وحياة كريمة وتدفعه للرّحيل، إلا أنّ الشاعر يبقى على عهد المودّة. وها هو السّميسـر(3) يعـبّر عن ذلك بقوله:(4)

قَـالُوا أتَسْـكُنُ بَلْـدَةً   نفـسُ العزيـزِ بِـهـا تَـهونُ؟
فأجبْتُـهم بتَـأوُّهٍ   كيـف الخـلاصُ بمـا يكـونُ!
غرناطـةُ مثْـوى الجنيـ   ـنِ يلَـذُّ ظُلمَتَـهُ الجنيـنُ

فالمدينة بكلّ ما قد تشكّله من ضغوط على نفس الشاعر تبقى دار الأمـن التـي ألفـها، والسّميسر في هذه الأبيات استطاع تَصوير ذلك الارتباط القويّ بمدينة غرناطة على الرغم ممّـا

(1) النفح، الحُسن.

(2) ابن خفاجة – الديوان، ص٣٤٨.

(3) السّميسر: هو أبو القاسم خلف ابن فرج الإلبيري، المعروف بالسميسر شاعر هجا، مـن قرطبـة أصـلاً، وقـد أقـام في إلبـيرة، "ت ٤٨٠هـ". انظر في ترجمته: الذخيرة، ج١، ص٥٥١-٥٥٦.

(4) الذخيرة، ج١، ص٥٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يؤخذ عليها من انتقاص لحقّه وقدره، فهي مثوى الجنين حيثُ يلذّ الجنين المكوث في أحشاء الأمّ وإنْ كان الظلام رفيقاً.

إنّ الشاعر الأندلسي بعد أن يستشعر معنى الغربة يزداد عشقاً للعهد الذي قضاه في مدينته الأمّ، فالمألوف يتألّق في مخيّلة الشاعر في مقابل الغربة، وهي بمثابة المجهول الذي يصعب التكيّف معه، ومع ما قد يجلبه من شقاء وذلّ. يقول ابن زيدون مصوّراً حنينه إلى العهد المنصرم في مدينته:[١]

زمــــــنٌ كمـــــألوفِ الرّضـــــا　　　ع يشـــوقُ ذِكـــــراهُ الفَطيـــــمُ

وما يزال الشاعر الأندلسي يعمّق في ذهن المتلقّي تلك العلاقة التي تربط بين الأمّ والمدينة، فحتى الشوق والحنين إلى ذلك العهد المنقضي بات أشبه بذلك الشوق المشتعل في أعماق الطفل لما ألفه من الرّضاع بعد فطامه، فالرّحيل عند ابن زيدون فطام عن عهد السعادة الذي ألفه. ويقول أبو الفضل عيّاض[٢] عارضاً للزمن الذي ألفه في قرطبة:[٣]

رَعَــى اللهُ جيرانـــاً بقُرْطُبَـــةَ العُـــلا　　　وسَـقى رُباهـا بالعِـهادِ السّـواكبِ
وَحيّـــا زمانـــاً بَيْنَـــهُم قَـــدْ ألفْتُـــهُ　　　طليـقَ المُحيّـا مُسْـتَلانَ الجَوانِـبِ
أإخوانَنـــا بـــاللهِ فيـــها تذكّـــروا　　　مَعـاهِدَ جـارٍ أو مَـودّة صـاحِبِ

بعد دعاء ابن عيّاض لمدينة قرطبة بالسّقيا، يشير إلى ما قضاه من فترة زمنيّة تبعث الألفةَ والهناء والسعادة في نفسه، ويحرص ابن عيّاض على وجوده في ذاكرة الأحبّة والجيران ممّن خلّفهم في مدينة قرطبة.

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ شعور الإنسان بوجوده في ذاكرة غيره يمنحه الكثير من الرّاحة والطمأنينة حتّى إنْ كان ذلك بعد موته. يقول ابن شهيد:[٤]

---

[١] ابن زيدون – الديوان، ص٢٠٢.

[٢] أبو الفضل عيّاض، هو الحافظ أبو الفضل عيّاض بن موسى ابن عيّاض، ولد سنة ٤٧٦هـ، وقد ولي القضاء في الأندلس والمغرب، "ت ٥٤٤" في مرّاكش. انظر في ترجمته: القلائد، ج٤، ص٦٨٣.

[٣] القلائد، ج٤، ص٦٨٩، النفح، ج١، ٥٤٥.

[٤] ابن شهيد – الديوان، ص١٣٤-١٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَـلا تَنْــــسَ تـــأبيني إذَا مـــا فَقَدْتَنـــي وَتِذْكـــارَ أيّـــامي وفَضــلَ خلائقـــي
فلـــي فـــي ادّكـــاري بَعْـــد مَوْتـــي راحَـــــةٌ فــلا تمنَعونيــها غلالـــــة زاهـــق

ولعلّ في وجود مثل هذه الذّاكرة الحافظة، لعهد الشاعر ما يمنحه شعوراً فـــي مواجهـــة فعل الزمن، ونلحظ أنّ الأندلسي يقف في العديد من قصائد الحنين إلى المدن باحثـــاً عـــن تلـــك الذاكرة المشاركة له في حفظ ذلك العهد الحبيب إلى قلبه. يقول أبو محمّد بن عبدون[1] متذكّـــراً مدينة إشبيليّة:[2]

هَــلْ تَذْكُــرُ العَــهْدَ الـــذي لَـــمْ أنْسَـــهُ ومودّتـــي مَخْدومـــةٌ بِصَفَـــــاءِ
وَمَبيتَنـــا فـــي نَـــــهْرِ حِمْـــصٍ والحجـــا قـــد حـــلّ عَقْـــدُ صِبَـــاهُ بالصـــهباءِ
ودُمـــوعَ طَـــلّ الليـــل تَخْلُـــقُ أعْيُنـــاً تَرْنـــو إليْنـــا مـــن عُيـــونِ المـــاءِ[3]

يربط ابن عبدون ذكرياته بمكان حدوثها في مدينة حمص، وقد اتّخذ الشاعر من المكـــان عنواناً يحدّد للذاكرة المشاركة نقطة الالتقاء التي تستعيد من خلال العودة إلى مكانها في الذاكـــرة تلك الأحداث الواقعة في محيطها، ولعلّ الشاعر يلجأ إلى الذاكرة المشاركة له ليتّخذها دليلاً مـــن الواقع على حقيقة ذكرياته، وما تمتلكه من قوة تبقيها حيّة ثابتة في وجه الزمن الذي هزمها علـــى أرض الواقع وجعلها من الماضي المنقضي.

ويعود الشاعر إلى الذاكرة كملاذ وحيد يستعيد من خلاله مدينته التي يحتّم عليه الواقـــع فقدها. يقول ابن خفاجة:[4]

كَفَـــى حَزَنـــاً أنّ الدِّيـــــارَ قصيّـــــةٌ فَـلا زَورَ إلاّ أنْ يَكـــــونَ خَيـــالا

وابن خفاجة ذلك الشاعر الأندلسي الذي تغنّى بجمال الأندلس وأبدع في تصويره لحســـن وطنه، يغالبه حزن عظيم لمفارقة دياره، فيبثّ مشاعره في ما يصدر عنه من شعر، يصوّر مـــن

(1) القلائد: ج٢، ص٤١٧ ؛ الخريدة، ق٤، ج٢، ص٤٣٢.
(2) الذخيرة، ج٢، ص٤٤٢ ؛ القلائد، ج٢، ص٤٢١-٤٢٢ ؛ معجم البلدان، ج٢، ص٣٠٤.
(3) القلائد: المساء.
(4) ابن خفاجة – الديوان، ص١٢٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خلاله تلك الرغبة العارمة النازعة إلى رؤية الديار مستخدما من الخيال سبيلا لتجاوز القيد الزماني والمكاني.

وهنا يمكن القول إن الشاعر يخضع في الغربة لقوة جذب تتبع من مدينة الأم وما تحتله من حيزا فسيح في ذاكرة الشاعر ويصرح الكثير من الشعراء برغبتهم في العودة إلى مدينتهم وأحبتهم فيها.

إن الحنين والشوق للمدينة، يجعل منها رمزا للسعادة، ويعمل الشاعر مخيلته ليرسم لوحة الماضي التي يستخدم فيها كل جميل، فالليالي أسحار والقوم كرام، والأرض روضة، والترب في استنشاقه عنبر كلمات تتردد في قصائد الحنين إلى المدن الأندلسية، معلنة عن جماليات ألفتها حواس الشعراء على أرض الوطن، فاستحق لأجلها أعلى منازل التفضيل. يقول أبو بكر بن رحيم[١] متغنيا بما يهواه في مدينته، مؤكدا على تجديد ولائه لها دون غيرها من المدن:[٢]

يا قبة النهر لا زالت مجددة ... تلك المعالم ما دامت مقيمات
حفظت من قبة بيضاء حف بها ... نهر تفضض يجري بين دوحات
عليك مني ريحان السلام كما ... حيتك مسكة داريين بنفحات
خير البنيات لا تنفك آهلة ... بمن حوته وهم خير البريات
لله يوم ضربنا للمدام بها ... رواق لهو بطاسات وجامات
وللبلابل ألحان مرجعة ... تجيبهن غوانينا بأصوات
وللمياه ابتسام في جداولها ... كما تشق جيوب فوق لبات
حدائق أحدقتها للمنى شجر ... خضر وأودية حفت بروضات
جنات أنس رعى الرحمن بهجتها ... حسبت نفسي منها وسط جنات
منازل لست أهوى غيرها سقيت ... حيا يعم وخصت بالتحيات

يصور الشاعر مدينته بعد أن يخضعها لعين المحب التي لا ترى إلا الحسن في المحبوب، ولا يكتفي الشاعر بتصوير مدينته بل يفضلها وأهلها على جميع المدن وصولا إلى

---

[١] أبو بكر بن رحيم، ذو الوزارتين أبو بكر محمد بن أحمد بن رحيم من أهل بيت وزارة، ذكر له فضل في الأدب والشعر والبلاغة. انظر في ترجمته: القلائد، ج١، ص٣٣٧.

[٢] القلائد، ج١، ص٣٣٨-٣٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صورها جنّات متمكنة في قلبه. وقد يصل الحد عند بعض الشعراء إلى التقليل من شـأن المـدن الأخرى عند مقارنتها بمدينتهم، وما أحسن قول من قال في تفضيل مدينة قرطبة:[١]

دَعْ عَنْـكَ حَضـرة بَغـدادَ وبهجتـها ... ولا تعظـم بـلاد الفـرس والصيـنِ
فَمـا علـى الأرْضِ مِثـلَ قُرْطُبـة ... وما مشى فوقها مثـل ابـن حمديـنِ

لقد وضعت مدينة قرطبة في سياق تفاضلي مع إحدى مدن الشرق، وإذ كان هذا التفضيل يعلي من منزلة مدينة قرطبة، ويثبت تميزها، فهو أيضاً يتضمّن مؤشراً قويّاً على ما تحظى بـه المدن المشرقية من مكانة عالية في نفوس أهل الأندلس، ويمكن القول إنّ الحنين إلـى المشـرق سمة لازمت أهل الأندلس منذ وصول عبدالرحمن الداخل وحتى هذا العصر، فالشاعر الأندلسـي في القرن الخامس الهجري وقف في قصائده متحدّياً مدن الشرق تارةً وأخرى معجباً بتلك المـدن مفضّلاً لها. يقول أبو محمد علي بن حزم[٢] معترفاً بفضل مدن الشرق كلفا بها:[٣]

أنَـا الشّـمْسُ فـي جَـوّ العِلـوم مُنـيرة ... ولَكـنّ عَيبـي أنّ مَطْلعـي الغَـربُ
ولَـو أننـي مِـن جـانِبِ الشّـرقِ طَـالِعٌ ... لجدَّ عَلى مَا ضَاعَ مِن ذِكريَ النّـهبُ
ولَـي نَحـو آفـاق العِـراقِ صَبَابَـةٌ ... وَلا غَروَ أنْ يَسْتَوْحِشَ الكَلِفُ الصَـبُّ
فَـإن يُـنزِل الرّحمـنُ رَحْلِـيَ بَينَـهُم ... فحينئـذ يَبْـدو التأسـفُ والكـربُ
فَكَـم قـائلٍ أغفلْتُـهُ وهـو حَـاضِرٌ ... وأطلبُ ما عنـهُ تجـيء بـه الكتـبُ
هُنَـالِكَ يَـدْري أنّ للعبـد قصّـةً ... وأنّ كَسَـادَ العِلـمِ آفتـه العـرَبُ
فيـا عجبـاً مَـن غَـابَ عَنـهُم تَشَـوّقوا ... له، ودنّو المَـرءِ مِـن دارِهـم ذنْـبُ
وإنّ مَكانـاً ضـاقَ عَنّـي لضيّـقٌ ... علـى أنّـه فيـحٌ مَهامِهُـهُ سُـهْبُ
وإنّ رَجَـالاً ضيّعونـي لضيّـعُ ... وإنّ زماناً لـم أنَـل خِصبَـهُ جَـدْب

---

[١] النفح، ج١، ص٤٥٩.

[٢] ابن حزم: هو أبو محمد بن حزم، شافعي المذهب، له كتب في المنطق والفلسفة، وقد طعن فيه الفقهاء فأقصاه الملوك عن وطنه، "ت ٤٥٦ هـ". انظر في ترجمته: النفح، ج٢، ص٧٧-٧٨.

[٣] النفح، ج٢، ص٨١، البغية، ص٤١٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يبدو ابن حزم متذمّراً شاكياً حاله فقد ضاقت عليه الأندلس بما وسعت، فيتطلّع نحو المشرق شوقاً لمدنه التي تمنح كلّ ذي حقّ حقّه من التقدير، وهذا ما يفتقده في مدن الأندلس، ويتأمّل وجوده في مدن الشرق التي عشقها، وهذه القصيدة ترتبط بتجربة ابن حزم، ولا تعبّر عن مشاعر أهل الأندلس إذ أنّ النّصوص الشعريّة التي تناولت موضوع الحنين في القرن الخامس الهجري، تؤكّد على تقلّد المدن الأندلسية الصدارة في نفوس الشعراء، إذ تشغل حيّزاً فسيحاً في ذاكرتهم، وتمثّل الوطن بكل ما تحمل هذه الكلمة من مضامين وأبعاد، وإن سكنت مدن المشرق القلوب الأندلسيّة. يقول أبو بكر محمد بن القاسم أشكنهاده[1] بعد ارتحاله إلى المشرق لمّا نبت به حضرة قرطبة عند تقلّب دولها وتحوّل ملوكها:[2]

أيـن أقْصَـى الغَـرْبِ مـن أرْضِ حَلَـبْ ... أمَل فـي الغَـرْبِ مَوْصـولُ التَّعَـبْ
حَـنَّ مِـنْ شَـوْقٍ إلـى أوطَانِـهِ ... مـن جَفَـاه صَـبْرُهُ لمّـا اغْـتَرَبْ
جَـالَ فـي الأرضِ لِجاجـاً حـائراً ... بيـن شَـوْقٍ وعنَـاءٍ ونَصَـبْ
كـلُّ مـن يَلقَـاهُ لا يَعْرِفُـهُ ... مُسْـتَغيثاً بيـن عُجْـمٍ وعَـرَبْ
لَـهف نفسـي أيـن هَـاتيك العُـلا ... واضياعـاه ويـا غَيْـنَ الحسَـبْ
والـذي قَـدْ كـان ذُخْـراً وبِـه ... أرْتَجـي المـالَ وإدْراك الرُّتَـبْ
صَـار لـي أبْخَـس مـا أعْدَدْتُـهُ ... بيـن قـومٍ مـا دَرَوْا طَعْـمَ الأدَبْ
يـا أحبّـايَ اسْـمَعوا بَعْـضَ الـذي ... يتلقـاهُ الطّريـدُ المُغْـتَرَبْ
وليَكُـن زجْـراً لكـم مـن غُرْبَـةٍ ... يَرْجـعُ الـرأسُ لديـها كـالذَنَبْ
واحْمِلُـوا طَعْنـاً وضَرْبـاً دائمـاً ... فهو عنـدي بيـن قَوْمـي كـالضَّرَبْ
ولَئِـنْ قاسَـيتُ مَـا قاسَـيتُه ... فَبِمـا أبْصَـرَ لَحْظـي مِـن عَجَـبْ
ولَقَـدْ أخْـبِرْكُم أنْ ألتَقـي ... بكـمُ حتـى تقولـوا قـد كَـذَبْ

وهذه القصيدة لسان تجربة مغايرة لاحتمالات ابن حزم في قصيدته التي فضّل فيها المدن المشرقيّة على الأندلس، إنّ قصيدة أبي بكر هذه تمثّل حنيناً معاكساً للحنين الموروث الذي جعل من مدن المشرق مركزاً له، فبعد أن مكث أبو بكر في مدن المشرق، وجالَ فيها حائراً بين عذاب الغربة وحرقة الحنين إلى وطنه، يؤكّد على أنّ الأندلس هي الوطن، والتّجربة هي البرهان.

---

[1] أبو بكر محمد بن القاسم: هو أبو بكر محمد بن قاسم أصله من وادي الحجارة، ونشأ في قرطبة وساد فيها ارتحل إلى المشرق لما نبت به قرطبة لتقلب دولها وتحوّل ملوكها. انظر في ترجمته: (المغرب، ج٢، ص٢٦، وقد جاء ذكره (اشكهباط) ؛ النفح، ج٢، ص٩٥.

[2] المغرب، ج٢، ص٢٦، النفح، ج٢، ص٩٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعلّ هذا يعني أنّ الفترة الزمنيّة التي انقضت على دخول المسلمين إلى الأندلس كفيلة بترسيخ حبّ الأندلس في نفوسهم وتعميق شعورهم بالانتماء إلى أرض الأندلس، وهي في الوقت نفسه ساهمت في تشكيل فجوة زمانية عميقة تفصلهم عن مدن المشرق. يقول أبو بكر ابن القاسم حينما ودّع المشرق دون سلام، وحلّ بحضرة (دانية) وصاحبها مُجَاهد العامريّ:[١]

وَكَمْ قَدْ لَقِيتُ الجَهْدَ قَبْلَ مُجَاهِدٍ ... وَكَمْ أبْصَرتْ عَيْني وَكَمْ سَمِعَتْ أذْني
وَلاقَيْتُ مِنْ دَهْرِي وَصَرْفِ خُطُوبِه ... كَما جَرَتَ النَّكْبَاء في مِعْطَفِ الغُصنِ
فَلا تَسْألوني عَنْ فِراق جَهنّم ... ولَكن سَلوني عَن دُخولي إلى عَدْنِ

لقد وصل الحدّ بأبي بكر أن يصوّر المشرق بصورة جهنّم في مقابل جنّته الأندلس، وهكذا تحطّمت آمال هذا الشاعر بمدن المشرق على صخرة التجربة القاسية، فارتدّ إلى جنان الأندلس عاشقاً متغنياً بها، فالتجربة تثبت أنّ أرض المنشأ هي الجنّة التي لا ندركها إلا عند فراقها. يقول ابن خفاجة في تشوّقه وحنينه إلى الأندلس وهو بالعُدْوَةِ:[٢]

إنّ للجَنّةِ بالأنْدَلُسِ ... مُجْتَلى حُسْنٍ وَرَيّا نَفَسِ
فَسَنَا صُبْحَيّها مِنْ شَنَبٍ ... وَدُجى لَيلَيّها مِنْ لَعَسِ
فَإذا مَا هَبَّتِ الرّيحُ صَبا ... صِحْتُ وا شَوقي إلى الأنْدَلُسِ

إنّ الشاعر الأندلسي إذا ما تجاوز حدود الأندلس، فإنّ الحنين يتدفّق صوبَ الأندلس وطناً تتوحّد فيه كل المدن، في مقابل الغربة الحقيقيّة، فبعد أن كان الشاعر يعلن غربته عند انتقاله من مدينته إلى مدينة مجاورة من مدن الأندلس، فهذا ابن خفاجة يتوجّه بزفرات الشّوق والحنين إلى الأندلس التي جعل منها جنّة بكل ما فيها من مدن دون الاقتصار على ذكر مدينته، إذ أدرك فضل الأندلس، وتميّزها فلا بديل له على الأرض بل جعل المريني منها رياضاً، ورجّح كفتها في مقابل كل مدن الأرض، ولعلّ تعليل هذا التصوير المتكرّر في قصائد شعراء الأندلس الذي يجعل من مدن الأندلس جنّة على الأرض، يعود إلى أنّ الإنسان عند تخيّله للجنّة يفيد مما خزنته ذاكرته من نماذج وصور منتزعة – في الأصل – من المدينة التي نشأ فيها، ومن ثمّ فإن

---

[١] النفح، ج٢، ص٩٦.

[٢] ابن خفاجة – الديوان، ص١٣٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجنّة في مخيلته مصاغة من صور الواقع المستمدّ من الوطن بعد إخضاع تلك الصور لفعل المخيّلة من انتقائية وتهويل وتكثير وتبعاً للعاطفة المسيطرة، ولقدرة الشاعر على نقلها وتمثيلها.

والشاعر الأندلسي يصوغ رؤيته لوطنه في غربته جنّة، مدفوعاً بالشوق والحنين، حيناً وبدافع العجز عن الوصول إليه حيناً آخر ليتخذ من محصوله الثقافي حول أخبار الجنّة رافداً له في تصوير تجربته. يقول ابن درّاج القسطلي:[١]

فَمَا رَاعَنِي غَيْرُ قَولِ الخَبِيرِ ... يُذكّرُنا أُسْوَةَ المُؤتَسِينا
بِآدَمَ إذ أَخْرَجَتْهُ الغُوا ... ةُ مِن جنَّةِ الخلدِ مُسْتَظهرينا
ببَغْي حَسُودٍ لَهُ طَالِبٍ ... كَمَا قَدْ لَقِينَا مِن الحاسدينا
فَها نَحْنُ أَقْعَدُ[٢] هذا الأنامِ ... بِمِيرَاثِها مِثْلَها عَن أَبِينَا
وهاتيكَ جَنَّتُنا والتي[٣] ... حَبانا بها سَيِّدُ المنعمينا

لقد رصد ابن درّاج صوراً مختلفة تجمع بين تجربة آدم عليه السلام – التي عاش خلالها في الجنّة ثم أخرج منها ببغي الحسود (الشيطان)، وبين تجربته التي جعل فيها الوطن في مقابل الجنّة التي أخرج منها رغماً عنه بفعل حاسدٍ باغٍ.

وتكثر المقطوعات الشعرية التي تبرز الأندلس وفضلها وعلو مكانتها في نفوس أهلها وشعرائها، وتظهر المدينة في هذه القرى ساطعة ممثّلة للوطن، بأبعاده المتنوّعة.

فإذا ما فارق الشاعر الأندلسي مدينته، وشعر بأنّ طرق العودة إليها قد توعّرت، فإنّ نفسه تزداد نزوعاً واشتياقاً لكلّ ما أحبّ فيها، وتعمل النّفس على استحضار ذكريات الماضي، ليدركها الشاعر شهداً، تفوق ما كانت عليه عند حدوثها، إذ إنّ الحنين الذي يستحوذ على فكره يدفعه إلى شيء من الانتقائية لما يستعيده من ذكريات للمدينة، وتعمل المخيّلة على منح صور الماضي الكثير من التألق والشعر، فتبدو خالية من كلّ ما قد يكدّر صفوها من الهمومَ والأحزان. يقول ابن خفاجة في أثناء سفره، متشوقاً إلى وطنه:[١]

---

[١] ابن درّاج – الديوان، ص٢٣٥.

[٢] اقعد: مشتق من القعيد وهو الحفيظ. اللسان مادة (قعد).

[٣] ووجه العربية أن يقال: التي، لأنه لا يجوز اجتماع أداتي ربط في العربية، وإنما جاز للضرورة الشعريّة.

[١] ابن خفاجة – الديوان، ص١٢٨-١٢٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أجَبْتُ وَقَــدْ نَـادَى الغَـرَامُ فَأسْـمَعَا عَشِــيَّةَ غَنَّــانِي الحَمَــامُ فَرَجَّعَــا
فَقُلْتُ، ولــي دَمْـعٌ تَرَقْـرَقَ فَانْـهَمَى يَسِيلُ وَصَبْرٌ قَدْ وَهَى فَتَضَعْضَعَــا
ألاَ هَـلْ إلــى أرضِ الجَزِيـرةِ أوْبَــةٌ فأسْكُنَ أنْفَاسَــاً وأهْـدأَ مَضْجَعــا
وأغْدُو بِوَادِيَــها وقَـدْ نَضَــحَ النَّـدى مَعَاطِفَ هَاتِيكَ الرُّبى ثُـمَّ أقْشَـعَا
أُغَــازِلُ فِيــهَا لِلغَزَالَــةِ سُــنَّةً تَحُطُّ الصَّبَا عَنْهَا مِنَ الغَيْمِ بُرْقُعَــا
وَقَدْ فَضَّ عِقْدَ القَطْرِ فــي كُـلِّ تَلعَــةٍ نَسِـيمٌ تَمَشَّــى بَيْنَــهَا فَتَضَوَّعَــا
وباتَ سَقِيطُ الطَّــلِّ يَضْـرِبُ سَـرْحَةً تَرِفُّ بِوَادِيَــها ويَنْضَــحُ أجْرَعَــا
وَإنْ تَنْـأَ مِـنْ دَارٍ إلَـــيَّ حَبِيبَــةٍ وَحَسْبُكَ مُصْطَافاً وتَاهِيكَ مَرْبَعَــا
فَقَدْ تَرَكَتْنِي بَيْـنَ جَفْـنٍ جَفَــا الكَـرَى وجَنْبٍ تَقَلَّــى لا يُلائِـمُ مَضْجَعَــا
أُقَلِّـبُ طَرْفِــي فــي السَّـمَاءِ لَعَلَّنــي أشِيمُ سَــنَا بَــرْقٍ هُنَــاكَ تَطَلَّعَــا

لقد ارتدت أرض الجزيرة ثوباً من الحسن والجمال دون غيرها من مدن الأندلس في هذه القصيدة، إذ يشتعل ابن خفاجة شوقاً وحنيناً إليها متسائلاً عن إمكانية العودة إلــى حيـث تسـكن أنفاسه، ويهدأ مضجعه. فقد نفذ صبره أمام عجزه عن الوصول إلى أرض الجزيرة، يقـول ابـن خفاجة من قصيدة أخرى:(٢)

فَيَا لِشَجَا صَـدْرٍ مِــن الصَّـبْرِ فَــارِغٍ ويا لِقَذَى طَــرْفٍ مِــنَ الدَّمْــعِ مَــلآنِ
ونَفْــسٍ إلَــى جَــوِّ الكَنِيسَــةِ صَبَّــةٍ وقَلْــبٍ إلَــى أفْــقِ الجَزِيــرَةِ حَنَّــانِ
تَعَوَّضْتُ مِنْ وَاهَا بِــآهٍ ومِــنْ هَــوىً بِهونٍ ومِــنْ إخْــوَانِ صِـدْقٍ بِخُــوَّانِ
فَيَالَيْتَ شِعْرِي هَــلْ لِدَهْـرِيَ عَطْفَــةٌ فَتُجْمَــعَ أوْطَــارِي عَلَــيَّ وَأوْطَــانِي
مَيَــادِينُ أوْطَــارِي ومَعْــهَدُ لَذَّتِــي ومَنْشَــأُ تَــهْيَامِي ومَلْعَــبُ غِزْلانِــي
كَأنْ لَمْ يَصِلْنِي فِيهِ ظَبْــيٌ يَقُــومُ لِــي لَمَــاهُ وَصُدْغَــاهُ بِــرَاحٍ وَرَيْحَــانِ
فَسَـقْياً لِوَادِيـهِمْ وَإنْ كُنْـــتُ إنَّمَــا أبِيــتُ لِذِكْــرَاهُ بِغُلَّــةِ ظَمــآنِ
فَكَـمْ يَـوْمِ لَــهْوٍ قَـدْ أدَرْنَـا بِأُفْقِــهِ نُجُــومَ كُــؤُوسٍ بَيْــنَ أقْمَـارِ نَدْمَــانِ
وَلِلقُضُبِ وَالأطْيَــارِ مَلْــهىً بِجِزْعِــهِ فَمَا شِئْتَ مِنْ رَقْصٍ عَلَى رَجْعِ ألحَــانِ

(٢) المصدر نفسه، ص٣٤٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يمضي ابن خفاجة في تطريز صفحة الماضي المنصرم في الجزيرة بكل مـــا يلــذّ لــه تذكره، ليجمع من خلال هذا الطّرح بين حنينه إلى الجزيرة، وبين شوقه إلى حياة الترف واللــــهو التي عاشها في ربوعها.

وقد عمل الشاعر الأندلسي في قصائد الحنين على تصوير ذكرياته بقوّة توحي بأنّها مـــا زالت ماثلة أمامه مؤثّرة على حواسّه على الرغم من مفارقته للمدينة ومواجهته لواقـــع الغربـــة المرّ. يقول ابن زيدون:[1]

عَلَــى الثَّغَــبِ الشَّــهدِيِّ مِنّــي تَحِيَّــةٌ ... زَكَــتْ، وَعَلَــى وادي العَقيــقِ سَــلامُ
وَلا زَالَ نَوْرٌ، في الرُّصَافَــةِ، ضَــاحِكٌ ... بِأرْجَائِــها، يَبْكــي عَلَيْــــهِ غَمَــــامُ
مَعَاهِدُ لَهْوٍ، لَــمْ تَــزَلْ، فــي ظِلالِــها ... تُــــدَارُ عَلَينَــــا لِلمُجُــــونِ مُــــدامُ
زَمَانَ رِياضُ العَيْشِ خُضْــرٌ نَواضِــرٌ ... تَــرِفٌ، وأمْــواه السُّــــرورِ جِمــــامُ
فَــإنْ كـــــانَ عَـــــهْدُها، فَبلَوعَـــــةٍ ... يَشُــبُّ لَــها بَيــنَ الضُّلــوعِ ضِيــرامُ
تَذَكَّــرْتُ أيَّــامي بِـــــهَا، فَتَبَــادَرَتْ ... دُمُــوعٌ، كَمَــا خَــانَ الفَريــدَ نِظَــامُ
وصُحْبَــةَ قَــوْمٍ كالمَصَــابيحِ، كُلُّــــهُمْ ... إذا هُــزَّ للخَطْــبِ المُلِــــمِّ حُسَــــامُ
إذا طَــافَ بِــالرّاحِ المُديــرُ عَلَيْـــــهِمُ ... أطَــافَ بِــهِ بيــضُ الوُجُــوه كِــرَامُ
وأحْوَرُ ساجي الطَّرفِ، حَشْــوُ جُفونــهِ ... سَــقامٌ، بَــرى الأجْســامَ مِنْــهُ سَــقَامُ
تَخَالُ قَضيبَ ألبانِ فــي طَــيِّ بُــروده ... إذا اهْــتَزَّ مِنْــهُ مَعْطَــــفٌ وَقَــــوامُ
يُديرُ علـــى رَغْــمِ العَــدا مِــن وِدَادِهِ ... سُــلافاً، كَــأنَّ المِسْــكَ مِنْــهُ خِتَــامُ
فمــن أجْلِــهِ أدْعــو لقُرطبــةِ المُنَـــى ... بِسُقْيا ضَعيـــفِ الطَّــلِّ وَهْــوَ رِهَــامُ
مَحَــلٌّ غَنِينــا بالتَّصَـــابي خِلالَـــــهُ ... فأســـعَدَنا والحَادِثـــاتُ نِيــــامُ
ممــا لَحِقَــتْ تِلْــكَ الليــالي مَلامَـــةٌ ... ولا ذُمَّ مِــنْ ذاك الحَبيــــبِ ذِمَــــامُ

إنّ ذكريات الرُّصَافَةِ تملأ على ابن زيدون نفسه ومشاعره، إذ يسوق في قصيدته العديــد من لحظات السعادة، ويعرض لذكر مجالس اللهو وما كان يجده فيها من مُتَعٍ حسيّة ومعنويّــة، إنّ الشاعر في جمعه لصور السعادة، يظهر ما يواجه من صعوبة في تقبّل فقــــد مدينـــة الســعادة، ومواجهة نقيضها في ديار الغربة لنجده باكياً شاكياً فتظهر عاطفة الحزن والحســرة جليّــة فـــي قصائده.

---

[1] ابن زيدون – الديوان، ص١٥٢-١٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإذا كان ابن زيدون يعلن عند دعائه لمدينة قرطبة بالسقيا أنّ باعثه هو ارتباط هذه المدينة بمن يحبّ من أهلها، فلا غرابة في ذلك فأهل المكان جزء منه، يسهم في تحديد صورته، وقد تردّد في الشعر القول بعشق المكان تبعاً لعشق من سكنه، إنّه كما قيل[١]:

أحِبُّ الحِمَى مِنْ أجْلِ مَنْ سَكَنَ الحِمَى ومِنْ أجْلِ أهْلِيها تُحَبّ المنازِلُ

وهذا يقود إلى القول إنّ المكان الذي تنزع إليه النّفس لا يمثّل وطن المنشأ – دائماً – فقد يحنّ الشاعر في قصائده إلى مدن أندلسيّة، هي محلّ إقامة لمن يحبّ، يقول الأديب الأندلسي ابن الزقّاق[٢]:

وقَفْتُ عَلى الرّبوعِ ولي حَنينٌ لِسَاكِنِهنّ لَيْس إلى الرّبوعِ
ولَو أنّي حَنَنْتُ إلى مَغاني أحبّائي حَنَنْتُ على ضلوعي

لقد أنكر ابن الزقّاق أيّ شعور بالحنين إلى المكان مقتصراً في حنينه على الأحبّة، وعلى الرّغم من هذا القول إلا أنّ وقوفه على الرّبوع دليل على ما للمكان من قوّة جذب، لصلته الوثيقة بمن سكنه.

فالحنين إلى الأحبّة يشكّل دافعاً قويّاً للحنين إلى الأمكنة التي جمعت الشاعر بهم واحتوت ذكرياته معهم، وقد يفضّل الشاعر – أحياناً – مدينة أندلسية تقرّباً لمن يسكنها سواء كان حاكماً أو محبوباً أو صديقاً أو قريباً.

يقول ابن خفاجة:[٣]

وقَبّلْتُ رَسْمَ الدّارِ حُبّاً لأهْلِها وَمَنْ لَمْ يَجِدْ إلا صَعيداً تَيَمّمَا

---

[١] الخريدة، ق٤، ج٢، ص٢١٦ ؛ القلائد، ج١، ص٤٥٧.

[٢] النفح، ج١، ص١٦-١٧.

[٣] ابن خفاجة – الديوان، ص٢٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومما يجري مجراه، ما أنشده علي بن عبدالغني الحُصَرِيّ:(١)

قَامَتْ لأسْقَامِي مَقَامَ طَبِيبِهَا ... ذِكْرَى بَلَنْسِيَة وَذِكْرِي أدِيبِهَا
حَدَّثْتَنِي فَشَفَيْتَ مِنِّي لَوْعَةً ... أمْسَيْتُ مُحْتَرِقَ الحَشَا بِلَهِيبِهَا
مَا زِلْتُ أذكُره ولَكِن زِدْتَنِي ... ذِكْراً وحَسْبُ النَّفسِ ذِكْرُ حَبِيبِهَا
أهْوى بَلنسِية وَمَا سَبَبُ الهَوَى ... إلاّ أبو العباس أُنْس غَرِيبِهَا
هَبَّ النَّسيم ومَا النَّسِيم بِطيِّب ... حتَّى يُشَاب بطِيبِهِ وبِطِيبِهَا

يعلن الحُصَرِي أنّ حبّه لأبي العبّاس البلنسي كان سبباً في حبّه لمدينة بلنسية، إذ يحتلّ ساكن المدينة منزلةً رفيعةً تعلي من قدرها في نفس الشاعر، فهذا أيوب من سليمان السهيلي(٢) يتشوّق إلى قرطبة فيقول:(٣)

قُرطُبَةَ الغَرّاءَ هَلْ أوْبَةٌ ... إلَيْكِ مِن قَبلِ الحِمَامُ المُصِيبْ
ذِكْرُكِ قَدْ صَيَّرَتْهُ دَيْدَنا ... وكَيْفَ أنْسَاكِ وفيكِ الحبيبْ

إنّ ابن سليمان السّهَيلي يحِنّ لمدينة قرطبة متمنياً الحلول فيها، وهو دائم التذكّر لها فهي مثوى الحبيب الذي يستحوذ ذكره على نفس شاعرنا ليرسل كلماته تحمل ديار أحبّته عنواناً، فوجود الأحبّة في مدينة أندلسيّة، يمنحها قوّة جذب تستحوذ على نفس الشاعر، يقول ابن خفاجة:(٤)

أرِقْتُ لِذِكْرى مَنْزِلٍ شَطَّ نَازحٍ ... كَلِفْتُ بِأنْفَاسِ الشّمال لَهُ شَمَّا
فَقُلْتُ لِبَرْقٍ، يَصْدَعُ اللَيلَ لامِعٍ ... ألا حَيِّ عَنّي ذَلِكَ الرَّبْعَ والرّسْما
وَأبْلِغ قَطِينَ الدّارِ أنّي أحِبّهُمْ ... على النّأي، حُبّاً لَوْ جَزَوني بِهِ جَمّا

---

(١) جذوة المقتبس، ص٢٨٢، بغية الملتمس، ص٤٢٥.
(٢) أيوب بن سليمان السّهَيلي: وهو ولد سُهَيْل بن عبدالعزيز، كان بقرطبة يخدم ابن الحاج، وقد مات في سَرَقُسْطة في المائة الخامسة. انظر في ترجمته: المغرب، ج١، ص٨٩.
(٣) المغرب، ج٢، ص٢٩.
(٤)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد قال ابن خفاجة هذه القصيدة يتغزّل في أمة له تسمى عفراء، فكان يتوجّه بحنينه إليها من خلال تذكّره لمحلّ مكوثها فيوظّف المكان ليلقي عليه مشاعر الشوق التي تعتمل في نفسه، وقد شطّ المزار به. وإذا اقتصر ابن خفاجة على تذكّر منزل محبوبته حيث تقيم فإنّ ولاّدة التي عشقت من تنقلّت به الديار تقول:[١]

سَقَى اللهُ أرضاً قد غدَت لك منزِلاً ... بكُلّ سكوبٍ هَاطِلِ الوَدْقِ مُغْدِقِ

لم تتوجّه ولاّدة بالدعاء لمدينة محددة، وإنما جعلت من الأرض تابعاً لابن زيدون، فحيث يقيم الحبيب تعشق مكانه، وتخصّه بالدعاء. ومن هذا القبيل في تبعيّة الأرض لمن يقيم فيها قول أبي عبيد البكري[٢] مادحاً ابن السقّاء[٣] لما خرج إلى لقاء باديسَ بن حبوّس، فكتب إليه:[٤]

كذا في بُروجِ السّعْدِ يَنْتَقِلُ البَدْرُ ... ويَحْسُنُ حَيْثُ احتَلّ آثارهُ القطرُ
وتَقْتَسِمُ الأرض الحُظوظَ فَبَلْغَةٌ ... لها وافِرٌ مِنْها وأخْرَى لها نَزْرُ
أذِلّ مكانٌ غَابَ عَنْهُ مُمَلّكي ... وعزّ مكانٌ حَلّهُ ذلكَ البَدْرُ

ويتردّد هذا الصّدى المعبّر عن خصب يعمّ أرض الأحبّة مصدره تلك المشاعر المتدفّقة بالتّقدير وأمنيات الخير واليمن. فالشاعر يحمّل الغيث غزارة مشاعره التي تصيب أرض الأحبّة أينما كانوا، فتحيطهم بآمالٍ قادمة لخيرٍ مغدق، وهذا الصّدى يتردّد في الشعر العربي معبّراً عن تلك العلاقة الأزلية بين المكان ومن سكنه.

وقد يُحمّل الغيث التحيّة الخيرة حيث تمكث أحلى الذكريات ليرسلها مع قطراته، فتعمّ أرض الأحبة. يقول أبو بكر بن رُحيم:[٥]

خُصّ يا غَيْثُ مَرْبَعَ الأحْبَابِ ... وتَعاهَدْ بالعَهْدِ عَهْدَ التّصَابي

---

[١] ابن زيدون – الديوان، ص١٧٤.

[٢] أبو عبيد البكريّ، هو أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز البكريّ، "ت ٤٨٧هـ". انظر في ترجمته، القلائد، ج٣، ص٦١٥.

[٣] ابن السّقّاء، أبو الحسن إبراهيم بن محمد بن يحيى المعروف بابن السقّاء، وقد خدم القضاة، قتل على يد عبدالملك بن جهور سنة ٤٥٥. انظر في ترجمته: الذخيرة، ج٤، ص١٤٥-١٤٨.

[٤] القلائد، ج٣، ص٦١٨.

[٥] القلائد، ج١، ص٣٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولْتُسَلِّم علـى مُعَرَّسٍ لسليمي ولتَصِلْ بالرَّبابِ دارَ الرَّبابِ
هي رَوْضاتُ كلّ أُنسٍ وطيبِ ومَغَانٍ سكّانُها أصلُ مابي
فكساها العَلاءُ ثوبَ بهاءٍ وسَقاها الجمالُ ماءَ الشبابِ

ومن هذا القبيل قوله:[٢]

مَنَازِلٌ لَستُ أهوى غيرها سُقيت حياً يَعُمُّ وخُصَّتْ بالتّحياتِ

ولا تقف أفضلية المدينة ونفوذها عند الشاعر الأندلسي على ارتباطه بالمحبوبة أو الممدوح. فقد أثبت أن قوّة علاقاته الاجتماعية تُسهم في تعميق دور المكان وأثره وبهذا أشار إلى محورٍ آخر يملّك الأمكنة قلوب الشعراء وذلك لكونها مقراً للأهل والأقارب فيغدق عليه الشاعر الدعاء بالسقيا ليختزل في دعائه كلّ مشاعر الشوق والحنين إليهم. يقول أبو عَبده[٣] متذكراً أهله وأقاربه:[٤]

سَقَى بَلَداً أهلِي بِهِ وأقَاربي غَوادٍ بأثْقَالِ الحَيَا ورَوائِحُ
وَهبَّتْ عليهِم بِالعشِيّ وبِالضّحى نواسِمُ بَرْدٍ والظّلالُ فَوائِحُ
تذكَّرتُهُمْ والنّأيُ قَدْ حَالَ دُونَهُم ولَمْ أنسَ ولَكِنْ أوْقَدَ القلبَ لافحُ
وممّا شَجاني هَاتِفٌ فَوق أيْكَةٍ يَنوحُ ولَمْ يَعْلَمْ بِمَا هُوَ نَائِحُ
فَقُلتُ اتّئِدْ يَكفِيكَ أنّي نَازِحٌ وأنّ الذي أهواهُ عنّي نازِحُ

كان تناول ابن عبده للمكان مدخلاً للحديث عن شوقه للأهل والأقارب، ولا نجد في هذه الأبيات ما يمنح للمكان خصوصيّة تميّزه فيما يقال فيه من شعر، إذ لا تبرز لنا مدينة محدّدة بمعالم واضحة، بل يمكن أن تعمّ هذه الأبيات كل أرض إذا ما تجاوزنا معرفتنا بحياة الشاعر.

ومن خلال هذه المقطوعات الشعريّة التي تناولت علاقة الشاعر بالأمكنة المختلفة سواءً كانت وطناً للمحبوب، أو دار مقامٍ للأهل والأقارب والأصدقاء، يثبت أنّ مدينة الشاعر تتمتّع

[٢] القلائد، ج١، ص٣٣٩.
[٣] أبو عبده هو أبو عبده حسّان بن مالك بن أبي عبده الوزير الكاتب، ومن أئمة اللغة والأدب له كتاب ربيعة وعقيل. أنظر: المطمح، ص٢١١-٢١٢.
[٤] المطمح، ص٢١٣؛ النفح، ج٣، ص٥٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَمَــنْ حَمَلــيَ الكَأسَ المُــدَّى مُديرُهـــا	تَقَحـــَمَ أهوالِ حَمَـــلْتُ لَهَا الرُمْحـــا
أجَـلْ إنّ لَيْلَـــى فَوقَ شَاطِــئِ نيطـــةِ	لأقْصَرُ مِنْ لَيْلَـــي بِآنــــةَ فَالبَطــْحَا

لقــد اتّخــذ ابــن زيــدون المكان نقطة انطلاق نحو استعادة تجلّيات الذاكرة، فهو يتذكّر أحداث الماضــي المحبّــبة إلــى نفســه رابطاً ذلك بالأمكنة التي احتوته، ويخصّ أمكنة محدّدة بالشّوق والهــوى والحنيــن، فابــن زيــدون يعرض من خلال قصيدته سجّلاً بأسماء الأمكنة الخالدة في ذاكــرته ومــنها، شرق العقاب، وجوف الرُّصافة وقصر الفارسي، ومجلس ناصح، وعين شهدة، والقــبة، كــلّ تلك الأمكنة تشكّل معاهد لذات وأوطان صبوة لا يمكن نسيانها. ويصرّ ابن زيدون على إثبات تلك المسميّات في أكثر من قصيدة، حيث يبدو ذلك غايةً للشاعر.

ويتمــنّى ابن زيدون العودة إلى تلك الأمكنة فهي جنّة الخلد التي فقدها، ثمّ يختتم قصيدته بعقد مقابلة بين تلك الأمكنة بما فيها من أسباب السعادة والسّرور وبين ديار الغربة وما جلبته من أهوال وأحزان لا تنقطع.

وتشــكّل الغــربة بقســوتها محفّــزاً قويّاً للارتداد إلى ذكريات الوطن حنيناً وشوقاً، وقد استطاع ابن زيدون تصوير المحفّز في قوله من قصيدة أخرى:(١)

يــا دَمْــعُ صُــبْ مَــا شِــئْتَ أن تَصُــوبا ... ويَــــا فُــــؤادي آن أن تَذُوبــــا
إذِ الــــرَّزايَا أصْـــــبَحت ضُـــــروبَا ... لَــمْ أرَ لــي فــي أهْلِهــا ضَــريبا
قَــــدْ مَــــلأ الشَّـــوقُ الحَشَـــا نُدوبــــا ... فــي الغَــرْبِ إذ رُحْــتُ بــه غريــبا
علَــــيلَ دَهْـــــرٍ سَــــامَني تَعذيــــباً ... أدْنـــى الضَّـــنى إذْ أبْعَــدَ الطَّبيــبا
لَيْــــتَ القَـــبُول أحْدَثَـــتْ هُـــبُوبا ... ريــحٌ يَــروحُ عهدُهـــا قَريــبَا
بـــالأُفق المُهْـــدي إلَيْــــنا طِيــــبا ... تَعَطَّــرَتْ مِــنه الصَّــبا جُــيوبا
يُـــبْرِدُ حَـــرَّ الكَـــبِدِ المَشْـــبُوبَا ... يـــا مُتَـــبِعاً إســـآده التَّأويــــبَا
مُشَـــرِّقًا قَـــد سَـــئِم التَّغْريـــبَا ... أمـــا سَـــمِعْتَ المَـــثَل المَضْــرُوبا
أرْسِـــل حَكِـــيماً واستَشِـــرْ لَبيـــبا ... إذا أتَيْــــت الوَطَــــنَ الحَبيــــبا
والجَانِـــبَ المُسْتَوْضَـــحَ العَجيـــبا ... وَالحَاضِـــرَ المُنْفَسِـــحَ الرَّحيـــبا
فحَـــيِّ مِـــنْهُ مـــا أرى الجَـــنوبا ... مَصَـــانِعٌ تَجْـــتَذِب القُلوبـــا

(١) ابن زيدون – الديوان، ص١٥٤-١٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حَيْــــثُ أَلِفْــــتُ الرّشَــــأَ الرّبيـــبا ... مُخالِفــاً فـي وصْـلِهِ الــرّقيــبا

ويشغل الحديث عن الغربة وما لحق بابن زيدون فيها من تعذيب الجزء الأعظم من هذه القصيدة، وهذا يخالف ما كان في القصيدة السابقة.

وقـد عبّر ابن زيدون عن حزنه لما يراه في غربته من أهوال تذيب القلب المتأرجح بين آهـات الشـوق والحنين وبين أنّات الألم والحسرة، ونجد ابن زيدون في قصيدته باحثاً عمّا يبرّد حـرّ كبده، ويصله بمدينته، حتى لو كان ذلك الوصل من خلال ريح تحمل له رائحة الوطن، أو رسـول يبلّغ الوطن تحيّة الشوق والحنين لكل ما فيه من مصانع تجتذب القلوب وترتبط بأحداث الماضي السعيد.

إنّ الشـاعر الأندلسـي الذي عاش الغربة وقاسى ألم الحرمان من مدينته والحنين إليها، يجـد راحـة فـي كـلّ ما قد يحقّق له أي شكل من أشكال الاتصال بمدينته، وقد يتجدّد الشوق والحنيـن فـي نفـس الشاعر عند وجود ما يعزّز الاتصال بالمدينة. ومن هذا القبيل ما كان من المعـتمد بن عبّاد عندما علم بخروج ابن عمّار إلى "شِلْبَ"[١]، حيث أقام المعتمد في صباه وأيام سروره وسعادته، فأثار هذا الموقف نفس المعتمد هياماً وحنيناً، فقال مرتجلاً:[٢]

ألا حَـيِّ أوْطانـي بِشِـلْبٍ، أبَـا بَكْـرٍ ... وسَـلْهُنّ هَـلْ عَهْدُ الوِصَالِ كَمَا أدْري
وسَـلِّمْ علـى قَصْـرِ الشّـرَاجيبِ عـن فتىً ... لَـهُ أبـداً شَـوْقٌ إلـى ذَلـكَ القَصْرِ
مَـنازِلُ أسْـادٍ وبِـيضٍ نَواعِـمٍ ... فَنَاهِـيكَ من غِيلٍ[٣]، ونَاهِيكَ مِن خِدْرِ
ولَـيْلٍ بِسَـدّ الـنّهرِ لَهْـواً قَطَعْـتُهُ ... بِـذاتِ سِوارٍ مِـثْلَ مُـنْعَطَفِ البَدْرِ

يغتـنم المعتمد خروج ابن عمّار إلى مدينة شلب ليحمّله التحيّة إلى أوطانه فيها، ويخصّ الشّـراجيب قصر الشراجيب بالسلام، فبعد التعميم بالتحية جاء التخصيص بالسلام إشارة إلى ما يحتلّه هذا الرمز المعماري من مكانة تميّزه فكلّما امتلك المكانُ خصوصيّةً في علاقته مع الشاعر زادت مكانـتهُ فـي نفسـه. والمعـتمد في تحيّته يشيرُ إلى ما يشبه تجديد ميثاق المحبّة وعهود الوصال فحنين المعتمد لا ينقطع وإن تباعدت المسافات.

---

[١] شِلْب: وهي أقصى أعمال اشبيلية في الغرب، على ساحل المحيط الأطلسي. انظر الروض المعطار، ص٣٤٢.

[٢] ديوان المعتمد، ص٣٩ ؛ ابن الآبار، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي، "ت٦٥٨ هـ" - الحلة السيراء، ط٢، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، ١٩٨٥م. ج٢، ص١٣٣.

[٣] الغِيل: الأجمة، وموضع الأسد. انظر: اللسان مادة (غيل).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإذا كــان رحــيل ابن عمّار إلى شلب قد أشعل جذوة شوق المعتمد إلى تلك الديار، فإن هــناك مــن تتحرّك مشاعره لقدوم زائرٍ من مدينته أو حتى إقبال نسمةٍ عبقةٍ من جانب الوطن. فيــتدفّق الحنين معلناً عن شوق الشاعر حيناً، وقد يعلن عن قهره وعمق أحزانه في ديار الغربة، علــى الرغم مما قد يبديه بعض الشعراء من رغبةٍ في إخفاء أشواقهم وأسفهم على مدنهم. يقول ابن الحدّاد:(١)

تَرَكْــــتُ قَلْبِــــي وأشْـــواقي تُفَطِّــــرُهُ ... وَدَمْــعَ عَيْنِــي وأحداقِــي تُحَــدِّرُهُ

لَــوْ كُنْــتَ تُبْصِــرُ فــي تُدْمِــيْرَ حَالَتَــنا ... إذنْ لأشْــفَقْتَ ممــا كُنْــتَ تُبْصِــرُهُ

أُخْفِــي اشْــتِياقي ومــا أطويــه مــن أسَــفٍ ... علــى المَــرِيّةِ والأنفــاسُ تُظْهِــرُهُ

يصــف ابن الحدّاد حاضراً يثير الشفقة في عين من يبصره في مدينة تُدمير، ويعلن عن شــوقه إلى مدينة المريّة الذي يتعاظم حتى يتجاوز رغبة الشاعر في إخفائه، ليصدر أنفاساً حرّى تلتهــب حنيــناً، فتكشــف عــن خفايا نفس صاحبها هذا ما يقوله ابن الحدّاد إلا أنّه لم يعُد يخفي أشواقه، فقصيدته تصريحٌ مفصّل ما يجول في خاطره، ويُغلق عليه أبواب الخفاء في نفسه.

وجدير بالذّكر أنّ الغربة التي قد تشكّل محفّزاً لبثّ قصائد الحنين، إذ قد تسهم في التحوّل الفكري للشاعر، إذ تدفعه بقسوتها – أحياناً – لإعلان الشوق مخالطاً لدموع الندم التي تذرف في قصائد الحنين. يقول ذو الوزارتين أبو بكر بن عمّار:(٢)

ألا قَــــاتَل اللهُ الجِــــياد فإنّهــــا ... نَــأَتْ بِــيَ عَنْ أرضِ العُلا والمكارمِ

أشَــلْبٌ ولا تتســـابُ عَـــبْرَة مُشْـــفِقٍ ... وَحِمْــصٌ ولا تعــتادُ زفــرةُ نــادمِ

كَســاها الحَــيَا بُــرْدَ الشّــبابِ فإنّهــا ... بِــلادٌ بهــا عَــقّ الشّــباب تَمائمــي

ذَكَــرْتُ بهـــا عَهْــدَ الصّـــبا فكَأنّمـــا ... قَدحْــتُ بِــنارِ الشّــوقِ بيــن الحَيازمِ

---

(١) ابن الحدّاد – الديوان، ص٦٣.

(٢) الحميري، ج٢، ص٢٢٣، ٢٢٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يحــنّ ابن عمّار في هذه الأبيات إلى مدينتين في آنٍ واحد، فهو يحنّ إلى شلب، وحمص (إشبيلية)، إذ ارتبطت هاتان المدينتان بعهد الشباب الذي فارقه. وهذا يؤكّد إنّ الحنين لا يرتبط – بالضــرورة – بمديــنة واحــدة، إذ قد يحنّ المرء إلى مدينتين في الوقت نفسه. يقول عيسى بن وكيل[١] معلناً حنينه:[٢]

غَريــبٌ بِــأرضِ الغَــرْبِ فُــرِّقَ قَلْــبُهُ ... فــآوت سَــلا فَــرقاً ويابُــرَةٌ[٣] فَرقا
إذا مــا بَكــى أو نَــاحَ لــم يُلــفِ مُسْــعِدا ... علــى شَــجْوِهِ إلاّ الغمــائِمَ والوُرقَــا

يعلــن الــيابُري في هذه المقطوعة عن اقتسام قلبه بين مدينتي سَلا ويابُرة، متخذاً البكاء وسيلة للتعبير عن حزنه وحنينه، والبكاء وسيلة بثّ نجدها في العديد من مقطوعات شعر الحنين، إذ قد يصرّح الشاعر بالبكاء في قصيدته، متّخذاً من صوت الحمام – أحياناً – محفّزاً للبكاء شوقاً للمدينة. يقول ابن خفاجة:[٤]

سَــجَعْتُ، وقَــدْ غَــنّى الحَمَــامُ فَــرَجّعا ... وَمَــا كُنْــتُ لَــولا أن تَغَــنّى لأسْجَعَا
وأنْــدُبَ عَهْــداً بِالمُشَــقَّرِ سَــالِفاً ... وَظِــلَّ غَمَــامٍ للصّــبا قَــدْ تَقَشّــعا
ولَــمْ أدْرِ مَــا أبْكــى أرَسْــمَ شَــبيبَةٍ ... عَفَــا أمْ مَصــيفاً مِــنْ سُلَيْمَى ومَرْبَعا
وأوْجَــعَ تَوْديــعِ الأحِــبّةِ فُــرقَةٌ ... شَــبَابٌ عَلَــى رَغْــمِ الأحِــبّةِ ودّعــا
ومَــا كــانَ أشْــهَى ذَلِــكَ اللــيلَ مَــرْقَداً ... وأنْــدى مُحَــبّاً ذلــك الصّــبحِ مَطْلَعا
وأقْصَــرَ ذَاكَ العَهْــدَ يَوْمــاً ولَــيلَةً ... وأطْيَــبَ ذَاكَ العَــيْشَ ظِــلاً ومَكْرَعا
وكُنْــتُ جَلِــيدَ القَلْــبِ والشّــمْلُ جَــامِعٌ ... فَمَــا انفَــضّ حَتّى خَارَ فَارفَضّ أدْمُعا
وبَلّــتْ نِجــادِي عَــبْرَةٌ مُسْــتَهِلّةٌ ... أكَفْكِــفُ مِــنْها بِالبَــنَانِ تَصــنُّعَا

ويــبدو أنّ ابن خفاجة يتمتّع باستعداد مسبق لبث ما في جعبته من أشواق وذكريات، لكنّه يــتّخذ من صوت الحمام مدخلاً مستمدّاً من الواقع، يتعمّق من خلاله في عالم الذكريات المرتبطة "بِشُقُر" وعهد الصّبا المنصرم.

---

[١] أبو عيسى بن وكيل الكاتب في غرناطة في الدولة اللمتونية. انظر في ترجمته: إعتاب الكتّاب، ص٢٢٥.

[٢] إعتاب الكتّاب، ص٢٢٤.

[٣] يابُرة: مدينة تقع في غرب الأندلس، وهي من كور باجة. انظر: معجم البلدان، ج٥، ص٤٢٤.

[٤] ابن خفاجة – الديوان، ص٥٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إنّ الشاعر يجد في البكاء سبيلاً للوصول إلى الراحة النفسية إذ أنّه يخفّف من حدّة الألم الذي يعتريها في الغربة. يقول ابن خفاجة من قصيدة أخرى:(١)

فَقُلْتُ لَهَا إنّ البُكاءَ لَرَاحةٌ ... بِهِ يَشْتَفي من ظَنّ ألا تَلاقيا

يعلن ابن خفاجة في حنينه إلى مدينته وما كان فيها من عهد حبيب إلى نفسه، عن عجزه عن استعادة ما كان فيها، لأن الحاجز الذي يحول دون الوصول إلى ما في ذاكرته هو حاجز زمانيّ لا يمكن تجاوزه.

وقد يرتبط عجز الشاعر الأندلسي عن العودة إلى مدينته بالعديد من الأمور منها:

أولاً: الأسباب التي تقف خلف تجاوز الشاعر لأعتاب مدينته، إذ قد تشكّل عائقاً يحول دون العودة. يقول أبو عامر بن الأصيل:(٢)

وَرُمْتُ الرّجوعَ ومَنْ لي بِهِ ... وَقَدْ غَلّقَ البابَ مَنْ غَلّقا
إذا الشّوقُ مَرّ على خاطِري ... شَرِقْتُ وحَقّ بِأنْ أشْرَقا
أَأحبابَنا هَلْ لنَا رَجْعَةٌ ... وهَلْ لي بِكُمْ أبداً مُلْتَقى
تَورّكْتُ بَحْرَ الأسَى بَعْدَكُم ... وإنّي لأحْذَرُ أنْ أغْرَقا
وَصِرْتُ وإنْ كُنْتُ ذا هِمّةٍ ... وحَزْمٍ بأيدي النّصارى لَقى
ولو وُفّقَ المَرْءُ في سَعْيِهِ ... تَخَيّرَ في رِزْقِهِ وانْتَقى

ثانياً: الواقع الذي يُفرض على الشاعر في بلاد الغربة، فقد يخضع الشاعر لقيود مختلفة تحول دون عودته إلى مدينته فيزداد الحنين في نفس الشاعر بازدياد سطوة تلك القيود. يقول ابن شهيد:(٣)

فِرَاقٌ وسِجنٌ واشْتياقٌ وَذِلّةٌ ... وَجَبّارُ حَفّاظٍ عليّ عَتيدُ
فمن مُبْلِغُ الفِتْيانِ أنّي بَعْدَهُم ... مُقيمٌ بِدارِ الظالمين طَريدُ

---

(١) ابن خفاجة – الديوان، ص١٩٨.

(٢) ابن بسّام – الذخيرة، ج٣، ص٥٦١.

(٣) ابن شهيد – الديوان، ص١٠٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مُقيــمٌ بــدارٍ سَــاكِنُوها مِــنَ الأذى / قِيـامٌ علـى جمْـرِ الحِمـام قُعـودُ
ويُسْـمعُ للجنّـانِ فـي جَنَباتِـها / بَسـيطٌ كَـتَرْجيعِ الصّـدى ونَشـيدُ
ومَـا اهـتزّ بَـابُ السّـجنِ إلا تَفَطّـرَتْ / قُلـوبٌ لنـا خـوف الـرّدى وَكُبُـودُ
وقُلْـتُ لصـدّاحِ الحَمَـامِ وقَـدْ بَكـى / على القصنـرِ إلْفـاً والدُمـوعُ تَجـودُ
ومـا زَالَ يُبْكينـي وأُبكيـهِ جَـاهِداً / وللشّوقِ مِـنْ دونِ الضُّلـوعِ وقُـودُ
إلى أنْ بَكَى الجُـدرانُ مِـنْ طـولِ شَـجْونَا / وأجْـهَشَ بَـابٌ جانِبـاهُ حَديـدُ

لقد تكالبت على ابن شهيد المصائب، وتزاحمت عليه القيود لنراه جاثماً بين سجن، وفراق، واشتياق، وذلّ، وموت يتربّص به، وخوف يستحوذ عليه، وابن شهيد يبكي ويجعل من المكان المعادي وهو السجن مشاركاً له في البكاء رثاءً لحاله، ويجيش الشعر في خاطر ابن شهيد فيصعد الزّفرات مصوراً تجربته القاسية بكل أبعادها، وهذا التعبير الصّريح لا يتّفق وما وجده البحث من تحرّج عند بعض الشعراء الذين تجنّبوا الخوض في تفاصيل ما لحق بهم في الغربة من ذلّ، يقول أبو عامر بن الأصيل متذكراً وطنه بسَرَقُسْطة:(١)

عَلَـى سرَقُسْـطَةَ أبكـي دَمـا / وأمواهِـهَا العَذْبَـةِ المُخْبِيـهْ
وَقَـومٍ كِـرامٍ فَـوا حَسْـرَةً / عَلَـى الجَمْـعِ منْـهُمْ أو التَّثْنِيـهْ
تعوّضْـتُ مِنْـها بِـأرضٍ أرى / أفَـاعيلَ أربابِـها مُلْهِيَـهْ
فَكَـمْ كَـأسِ ذُلّ تَجَرّعتُـها / ولَـمْ أُبْدِهـا وَهْـيَ لـي مُخزِيَـهْ
وَكَـمْ لَيْلَـةٍ بِتُّـها طَاوِيـاً / ونَفْسـي عَـنِ الكَشْـفِ مُسْـتَحيِيهْ
وَقَـدْ يَلْبِـسُ المَـرْءُ خُـرّ الثيـابِ / ومِـن تَحْتِـها حَالَـةٌ مُضْنِيـهْ

يرى أبو عامر أن مدينة سرقسطة تستحقّ أن يبكى عليها دماً، ويشير باختصار شديد إلى الذلّ الذي أصابه في غربته فما لحق به أصعب من أن يبديه في قصائده، لما يثيره في نفسه من خزي وإذلال، إنّ قسوة الغربة تزيد من نزوح نفس الشاعر إلى مدينته وقومه.

ولعلّ شعراء الأندلس في انتقائيتهم للذكريات السعيدة في مدينتهم ومع أحبتهم يحاولون التعويض من خلال الجمع بين حلم السعادة وتعاسة الغربة وصولاً إلى محصلة تمنحهم شكلاً من أشكال التوازن النفسي والقدرة على الاحتمال.

---

(١) الذخيرة، ج٣، ص٥٦٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا يمكن القول إنّ الحنين إلى المدن الأندلسية اتّسم بالتفاوت في قوّته بين الشعراء فضلاً عن تفاوتٍ في نفس الشاعر اتجاه المدن المختلفة، إذ لعبت مدينة الشاعر دوراً بارزاً في قصائد الحنين ففاقت غيرها من المدن لاستحواذها على الجزء الأعظم من ذاكرة الشاعر الأندلسي ومشاعره.

وأختتم هذا الفصل بقصيدة لابن خفاجة قالها متشوقاً إلى معاهده بجزيرة شُقُر:[1]

بَيْنَ شُقْرٍ وَمُلْتَقَى نَهْرَيْهَا ... حَيْثُ أَلْقَتْ بِنَا الأَمَانِي عَصَاهَا
وَيُغَنِّي المُكَّاءُ فِي شَاطِئَيْهَا ... يَسْتَخِفُّ النُّهَى فَحَلَّتْ حُبَاهَا
عِيشَةٌ أَقْبَلَتْ يُشَهَّى جَنَاهَا ... وَارِفٌ ظِلُّهَا لَذِيذٌ كَرَاهَا
لَعِبَتْ بِالعُقُولِ إلاّ قَلِيلاً ... بَيْنَ تأويبِهَا وَبَيْنَ سُرَاهَا
فَانْثَنَيْنَا مَعَ الغُصُونِ غُصُونا ... مَرَحاً فِي بِطَاحِهَا وَرُبَاهَا
ثُمَّ دَلَّتْ كأَنَّهَا لَمْ تَكُدْ تَلْبَثُ ... إلا عَشِيَّةً أو ضُحَاهَا
فَانْدُبِ المَرْجَ فالكنيسَةَ فالشَّطَّ ... وَقُلْ آهِ يَا مُعِيدَ هَوَاهَا
آهِ مِنْ غُرْبَةٍ تُرَقْرِقُ بَثّا ... آهِ مِن رِحْلَةٍ تَطُولُ نَوَاهَا
آهِ مِنْ فُرْقَةٍ لِغَيْرِ تَلاقٍ ... آهِ مِنْ دارٍ لا يُجِيبُ صَدَاهَا
لَسْتُ أدري وَمَدْمَعُ المُزْنِ رَطْبٌ ... أَبُكَاهَا صَبَابَةً أمْ سَقَاهَا
فَتَعَالَيْ يَا عَيْنُ نَبْكِ عَلَيْهَا ... مِنْ حَيَاةٍ إنْ كَانَ يُغْنِي بُكَاهَا
وَشَبَابٍ قَدْ فَاتَ إلاّ تَأَسِيهِ ... وَنَفْسٍ لَمْ يَبْقَ إلاّ شَجَاهَا
مَا لِعَيْنِي تَبْكِي عَلَيْهَا وَقَلْبِي ... يَتَمَنَّى سَوَادُهُ لَوْ فَدَاهَا

لقد أوغل شعراء القرن الخامس الهجري في تشوّقهم وحنينهم إلى مدنهم، وتلهفهم عليها وقد ارتحلوا عنها. فأكثروا من قصائد الحنين، التي تبثّ ما يشعّ بين حنايا أنفسهم من شوق لا يفتر، وحرقة لا تنتهي، فكانت قصائدهم تمجّد المدينة الأندلسية وتستقصي محاسنها لأنّها الوطن الذي لا يطيب المقام إلا فيه.

[1] ابن خفاجة – الديوان –، ص٣٦٤-٣٦٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث

رثاء المدن الأندلسيّة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رثاء المدن الأندلسية

إنّ مصاب المدن، وما قد يلمّ بها من كوارث ونكبات، يعـــدّ فاجعـــة تذكـــي عواطـــف الحسرة، واللوعة في نفوس أهلها.

ومنذ بداية القرن الخامس الهجري تعاظمت تلك الفواجع الّتي استطاعت أن تُحيل جِنـــان الأندلس إلى أطلال خربة، وتزاحمت النّكبات والأحداث الجسام على المدن الأندلســـيّة، لتشـــكّل مناخاً مناسباً لبروز موضوع رثاء المدن في الشّعر الأندلسي.

• رثاء المدن الأندلسيّة في أعقاب " الفتنة " البربرية:[1]

استأثر عصر ملوك الطوائف منذ بدايته التي قامت على أنقاض الدولة الأمويّـــة بـــالعديد من قصائد رثاء المدن، وذلك على أثر الفتنة التي خلّفت في نفوس الشعراء الحسرة والألم، فقـــد أحدثت دماراً وخراباً في العديد من المدن، ومنها مدينة قرطبة، أعظم المـــدن الأندلســـيّة التـــي احتلّت مكانة مرموقة قبل انقضاء الدولة الأمويّة، ونافست أعظم مدن الشرق في أوج ازدهارها.

يقول صاحب البيان المُغرب: " كانت قرطبة في زمان الغلّ الدّاخل إلى الأندلس قد نُســـي بها بغداد في زمان الرّشيد وعظم بها ملكهم، فاشتدّ أمرهم، وضخم حالهم، وأعظم ما كانت فـــي زمان النّاصر ثمّ في زمان الحكم، واتّصل ذلك لها إلى آخر ابن أبي عامر فتناهى بها كل فضـــل وكمل، وذلك للإدبار الذي يكون بعقب الإقبال، والنّقص الذي يوافي بعد الكمال، فما مـــن شـــيء كمل إلا ودنا نقصه لا محالة، وبعث الله محمد بن هشام ليكون استئصال شأفتهم وإبادة خضرائهم على يده لما أراد الله سبحانه بهم، فأبادهم."[2]

وقد تركت هذه الأحداث أعظم الأثر في نفوس أهل الأندلس، لما ألحقته بمدينـــةِ قرطبـــة من تدمير وتخريب أتى على معالم حسنها، فهبّ الشعراء يبكون مجد مدينة قرطبـــة، ويندبـــون مصابهم العظيم فيها.

---

[1] وهذه الفتنة عرفت بالفتنة البربريّة، وقد قامت في أعقاب سقوط بني عامر عام ٣٩٩هـ، فقادت إلى حرب أهلية بين أهل الأندلس وللاستزادة انظر: النفح، ج١، ص٤٢٧؛ أعمال الأعلام، ص١٠٤-١٢٨.

[2] ابن عذارى – البيان المغرب، ج٣، ص١١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقول أحد الشعراء مستهلاً بالبكاء على قرطبة:[1]

ابكِ على قرطبة الزيّن ... فقد دهَتها نظرةُ العَيْنِ
أنظرَها الدّهرُ بأسلافه ... ثُمَّ تَقاضى جُملة الدَّيْنِ
كَانت عَلَى الغَايةِ من حُسْنِها ... وعَيْشها المستعذب اللَيْنِ
فانعكس الأمرُ فما أن ترى ... بها سروراً بين اثنيْنِ
فاغْدُ وودّعها وسِرْ سالماً ... إن كنتَ ازْمعْتَ عَلَى البَيْنِ

يصوّر الشاعر في هذه المقطوعة الشعرية تبدّل الأحوال في مدينة قرطبة، وكيف استحال النعيم فيها إلى شقاء، إلا أنّه اكتفى باليسير من القول فلم يعرّج على الأسباب الحقيقية التي تقف وراء تلك الفاجعة، ولم يعرض لما لحق بالمدينة من تدمير، فقد تجاوز عن وصف المدينة وحالها غداة الفتنة، ليختتم مقطوعته بالحثّ على الإسراع في التحوّل عن مدينة قرطبة، لمن عزم على الرحيل. ولعلّ في هذا الصوت ما يمثّل بعض جوانب الروح الانكسارية التي تخضع لنظرةٍ سطحيّة لذلك المصاب.

وفي مقابل هذا الصوت تتردّد أصداء قويّة لشاعر آخر يقول:[2]

أضَعتُمُ الحَزْمَ في تدبير أمركُمُ ... ستَعلمون معا عُقْبى البوار غَدَا[3]
فَلو رَأيتُم بعَيْنِ الفِكْر حَالكُمُ ... بكيتُمُ بِدَمٍ أنْ دُمتُمُ بددَا
لكنَّ سُبلَ العَمَى أعْمَتْ بصائرَكُم ... فألبَسَتْكم ثياباً للبِلَى جُدُدا
يا أمَّةً هتكَتْ مستور سوءتها ... ما كُلُّ مَنْ ذَلَّ أعطى بالصَّغَار يدَا
في سورةَ الحَشْر آياتٌ مُفَصّلَةٌ ... في شَأنكم أُنْزلَتْ لم تَغْدُكم أحَدَا
فأستَشْعِروا سوءَ عُقْبَاكم فقد شَمِلت ... جميعَكم محنةٌ لا تنقضي أبَدَا

تمثّل هذه الأبيات نظرة عقليّة للأمور، ومواجهة للحقيقة، حيث أنّ الشّاعر لم يتردّد في تحديد الأسباب المباشرة لتلك الفاجعة، فقد أشار بأصابع الاتهام إلى أمّته ناقداً ومحذّراً من سوء العواقب، لكنّ هذه المقطوعة لم تعرض لما حلّ بالمدن الأندلسية من تدمير، بل اكتفى الشاعر بالحديث عن الواقع المؤلم لأمّته.

---

(1) ابن عذارى – البيان المغرب، ج٣، ص١١٠.

(2) المصدر نفسه، ج٣، ص١١٠ – ١١١.

(3) البوار: الكساد، البائر في اللغة الفاسد، الذي لا خير فيه. انظر اللسان (بور).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويعوز الباحث العثور على قصائد رثاء لمدينة قرطبة قيلت أثناء الأحداث تصف حالها وتفصّل فيما لحق بها من تخريب. ولعلّ هذا يعود إلى عظم الصّدمة التي تعرّض لها أهل قرطبة، وانشغالهم بمصيرهم بعدما حلّ بمدينتهم من دمار، أو لعلّ الذي قيل لم يصل إلينا.

وتنقضي الفتنة بعد أن سلبت الكثير من المدن الأندلسية روحها، ليقف الشّاعر الأندلسيّ الّذي خاض فترة الصّراع وعايش تلك اللحظات متعجّباً لفعل الزّمن بمدينته وسكّانها. يقف الشاعر على الأطلال مستوحياً من صور الحاضر، وما يمتدّ لها من تردّد في أعماق نفسه قصيدةً يرثي بها مدينته وأهله.

وفي رثاء مدينة قرطبة ينبري العديد من الشعراء للتّعبير عن تلك الفاجعة، ومنهم، أبو محمد ابن حزم. إذ يقول:(١)

سَلامٌ عَلَى دَارٍ رَحَلنا وَغودِرَت ... خَلاء مِنَ الأهلينَ مُوحِشَة قَفْرا
تَرَاهَا كأن لَمْ تُغن بالأمسِ بَلْقَعا ... ولا عُمِّرَت مِنْ أهْلِهَا قَبْلَنَا دَهْرا
فَيَا دَارُ لَمْ يَقْفِرك مِنَّا اخْتِيَارُنَا ... ولو أَنَّنَا نَسْطيعُ كُنْتِ لَنَا قَبْرا
وَلكِنَّ أَقْدَاراً مِن اللهِ انفذتْ ... تُدَمِّرُنا طوعاً لِمَا حَلّ أو قَهْرا
فَصَبرا لِسَطْوِ الدَّهرِ فيهم وَحُكْمِهِ ... وَإن كَانَ طَعْمُ الصَّبْرِ مُسْتَثْقَلا مُرًّا
لَئِنْ كَانَ أظْمَانا فَقَدْ طَالَ مَا سَقَى ... وإنْ سَاءَنا فيْهَا فقَد طَالَ مَا سَرًّا
وأيَّتُهَا الدَّارُ الحبيبةُ لايرم ... ربوعَك جونُ المُزْن يهمي بِهَا القَطْرَا
كأنك لَمْ يَسْكُنْكِ غيدٌ أوانِسُ ... وَصيدُ رجالٍ أشْبَهوا الأنجمُ الزّهْرا
تَفَانَوا وَبَادوا واستَمرّتْ نواهُمُ ... لِمثْلِهم أسْكَبَتْ مُقْلَتي العَبْرا
سنَصبرُ بَعْدَ اليُسرِ للعُسْرِ طاعةً ... لَعَلّ جَميلَ الصَّبْرِ يَعقبنا يُسْرا
وَإنّي وَلَوْ عَادَتْ وَعُدنا لعَهْدِها ... فكيْفَ بِمَنْ مِن أهْلِهَا سَكَن القَبْرا
فَيَا رُبَّ يَومٍ في ذُرَاهَا وَلَيلَةٍ ... وصلْنا هناك الشَّمسَ باللَّهو والبَدْرا
ويا هَمُّ ما أغدَى وَيَا شَجْوُ ما أبْرَا ... وَيَا وَجْدُ مَا أَشْجَى وَيَا بَيْنُ مَا أفْرا(٢)
ويا دَهْرُ لا تَبْعُدْ ويا عَهْدُ لا تَحُلْ ... وَيَا دَمْعُ لا تجمدْ ويا سُقْمُ لا تَبْرا
سَأندب ذَاكَ العَهْدَ مَا قَامَت الخَضْرا ... على النّاسِ سَقْفًا واسْتَقلّت بنا الغبرا

(١) لسان الدين ابن الخطيب – أعمال الأعلام، ص١٠٦-١٠٨.

(٢) أفْرَ: العدو، وجاءت هنا بمعنى ما أشدّك وأعظمك. انظر: اللسان مادة أفْرَ.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقف ابن حزم على بقايا الدّيار الّتي أقفرت من أهلها، وقد جرّ الموت أذياله على المدينة وما فيها، فأضحت موحشة، ولعلّ هذه اللّحظة الّتي يقف فيها ابن حزم بين حنايا المدينة المقفرة من أهلها وبهجتها، تمثّل لحظة مواجهة عنيفة بين الشّاعر الإنسان الذي ارتبط بالمدينة ومن فيها فاحتلّت حيّزاً مهماً في ذاكرته، وبين المدينة في وضعها الحالي، وما يعكس هذا الوضع من تحوّل يصعب تصديقه أو استيعاب معطياته، إنّ الشاعر في تلك اللحظة التي يستحضر فيها روح المدينة – إذا جاز – القول متحدّثاً بلسانها تارة ومجيباً تساؤلاتها، ومبرراً لأفعال أهلها تارة أخرى يقف في محاولة منه لجمع بقايا ما في جعبته من ذكريات وبقايا الدّيار المترامية أمام ناظره لإعادة صياغتها بصورة تتيح له استيعابها واحتمال ما تحمل من تفاوت وتناقض، ولعله يحاول لملمة ذاته المبعثرة، فشتّان بين الحاضر والماضي.

ويلحظ القارئ أنّ هذه القصيدة التي قالها ابن حزم عند وقوفه على أعتاب مدينة قرطبة بعد مرور زمنٍ على ما لحق بها من تدمير، تختلف عن تلك المقطوعات الشعريّة التي قيلت في رثاء مدينة قرطبة أثناء الأحداث من عدّة جوانب، حيث أنّ الزمن يلعب دوراً بارزاً في تحديد الدوافع والأهداف التي تقف خلف ما يصدر عن الشاعر من بثّ في قصيدة رثاء المدينة، والزمن هنا يتمثّل في الفترة التي قيلت فيها القصيدة مقارنةً بما لحق بالمدينة من مصاب، فالقصائد التي تقال في أثناء الأحداث تتخذ دور الموجّه والمحذّر – غالباً – وتقدّم تصوراً لما يدور في خلد الشاعر من احتمالات وردود فعل متوقعة إزاء تلك الأحداث دون أن تعرّج على المدينة بالذّكر، أو الوصف لحالها، بينما نجد ابن حزم في هذه القصيدة التي قالها بعد مرور زمن على الفاجعة التي لحقت بمدينة قرطبة يقف على بقايا المدينة بأنفاس المسلّم لفعل القدر، المقرّ بالضّعف، والعجز عن ردّ المصاب، أو التمرّد عليه، لأن الموت الذي يقبع بين حنايا مدينة قرطبة يجعل من أيّ احتمال للرفض أو النّقد أو التمرّد أمراً مستحيلاً، لقد نال ابن حزم كفايته مما تدركه الحواسّ من أمور مفجعة في مدينته، فاستعان بالصبر على حكم الدّهر وبما في جعبته من ذكريات لما انقضى من عهدٍ للمدينة وأهلها.

ويعقد ابن حزم ما يشبه المقابلة بين ذاك العهد المنصرم وما كان يبعثه في النفس وبين ما يستشعره عند وقوفه على أطلال المدينة من همّ في أرجائها، فكأنها ما عُمّرت يوماً، ويعرض ابن حزم لمصير أهل قرطبة وتفرقهم بين الشتات والإبادة بعد أن يذكرهم بالمستحسن من الصفات. والشاعر في هذه القصيدة يخاطب الدار حيناً ويخاطب الهمّ والشجو، والوجد والبين حيناً آخر ويخاطر الدهر، والعهد، والدّمع والسقم، ويمكن القول إنّ كلّ هذه الكلمات تمثّل حافزاً للبثّ ومحوراً له، وإن كانت كلمة الدار هي المخاطب الأهمّ، فقد تناول ابن حزم مدينة قرطبة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مستخدماً لفظ "الدار" ، و"خير دار" و "الدار الحبيبة"، ولم يعرض لاسم المدينة في قصيدته أو يتطرّق لذكر ما فيها من أمكنة خالدة في نفسه أو قصور أو دور. ولعل الطابع العام لهذه القصيدة يعتمد التعميم دون التخصيص، والإيجاز دون التفصيل.

وقد احتل الدهر مكانة مميزة في قصائد رثاء المدن، وفي هذه القصيدة يستعين ابن حزم بالدهر ليختزل فيه كلّ الأسباب والظروف التي تقف وراء ما حلّ بمدينة قرطبة من دمار، ويؤكّد على حكم الدهر وسطوته، ووجوب الرّضى والصبر.

إنّ ابن حزم في وقوفه على أطلال قرطبة يمثّل مرحلة جديدة فيما يصدر عنه من قول، لأنّ الزاوية التي يرى منها مدينة قرطبة، مختلفة عن تلك التي نظر منها الشعراء إلى قرطبة أثناء إقامتهم فيها ومواجهتهم لأحداث الفتنة. فابن حزم يقف متأمّلا، ويطيل التفكّر فيما يتمثّل للحواس وتدركه النفس، فالواقع قوة تدفع بالشاعر إلى إعادة صياغة ما لديه ويبقى الشاعر امتداداً لماضي المدينة يحملها في أعماقه حيّة نابضة، ويؤكّد في نهاية قصيدته أنّ ندب ذاك العهد المنصرم لمدينة قرطبة لن يقف عند حدود زمانيّة، بل سيبقى ما قامت الخضراء على الناس، وما دام الشتات حليفاً لأهل قرطبة.

ومن الشعراء الذين أطالوا وأجادوا في موضوع رثاء المدن ابن شهيد الذي عظم مصابه لما حلّ بمدينته، فقال قصيدته متفجّعاً ومتحسّراً على قرطبة عند وقوفه على أطلالها وقد خلت من ساكنيها، فلا صوت يجيب إلا الفراق يقول ابن شُهيد:[1]

ما في الطّلولِ مِنَ الأحِبَّةِ مُخْبِرُ ... فَمَن الَّذي عن حالِها نَسْتَخبرُ؟
لا تَسْألن سِوى الفِراقِ فإنَّهُ ... يُنْبيكَ عَنْهُم أنْجَدُوا أمْ أغْوَرُوا
جَارَ الزّمَانُ عَلَيْهِمُ فَتفرّقُوا ... في كُلِّ ناحيةٍ وَبَادَ الأكْثرُ

إنّ مواجهة ابن شهيد لمدينة قرطبة بعد مرور وقت على ما حلّ بها، يؤجج في أعماقه مشاعر الأسى، لما يعيده المكان إلى ذاكرة الشاعر من صور تمثّل العهود الماضية المشرقة للمدينة، حيث يبدو المكان وكأنّه مفتاح للدخول على ما احتوته ذاكرة الشاعر من أحداث وصور متّصلة بمدينة قرطبة. وفي الوقت نفسه ترتسم أطلال المدينة في حواس ابن شهيد حيث يبرز

---

[1] ابن شهيد – ص١٠٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التحوّل والتبدّل الذي لحق بالمدينة في أعنف صوره، والفاصل الوحيد بين ما يرتسم للشاعر من لوحة للماضي المشرق ولوحة للأطلال الخربة هو الزمان الذي يختزل فيه ابن شهيد أسباب هذا التحوّل، فقد جار الزمان بحكمه لما ألحقه بالمدينة وأهلها، يقول ابن شهيد متابعاً:[(1)]

جَـرَتِ الخُطُـوبُ عَلَـى مَحَـلِّ دِيـارِهِم	وَعَلَيْـهِمُ فَتَغَـيَّرتْ وَتَغَـيَّرُوا
فَـدَعِ الزَّمـانَ يَصُـوغُ فـي عرصاتِـهِم	نُـوراً تَكَـادُ لَـهُ القُلُـوبُ تُنَـوِّرُ
فَلِمثْـلِ قُرْطُبَـةٍ يَقِـلُّ بُكَـاءُ مَـنْ	يَبْكـي بعَيْـنِ دَمْعُـها مُتَفَجِّـرُ
دَارٌ، أقَـالَ اللهُ عَثْـرَةَ أهْلِهَـا	فَتَـبَرْبَرُوا وَتَغَرَّبُـوا وَتَمَصَّـرُوا
فـي كُـلِّ نَاحِيَـةٍ فَرِيـقٌ مِنْهـُـم	مُتَفَطِّـرٌ لفراقِهـا مُتَحَيِّـرُ

إنّ التغيّر الذي لحق بالمدينة وأهلها يشكّل محوراً في قصيدة الرثاء، ويبدو ابن شهيد متنصّلاً من طرح الأسباب المباشرة لذلك التغيّر الذي أحال المدينة العامرة إلى أطلال مقفرة من أهلها. وإذا كان ابن حزم في قصيدته في رثاء قرطبة قد ذكر الدّهر وحكمه فإن ابن شهيد يذكر الزمان، ويد الخطوب، وإرادة الله سبحانه وتعالى.

ويحتلّ الحديث عن أهل المدينة حيّزاً مهماً في قصائد رثاء المدن عامّة ونجد هذا في قصيدة ابن شهيد حيث تناول سكّان قرطبة، عارضاً لما لحق بهم من تبدّل بالأحوال مشيراً إلى مصيرهم بنبرة حزينة متحسّرة كيف لا وهو الذي شهد مدينة قرطبة وهي في أوج عزّها تختال بثياب الكمال والأمن، وتزهو بقصورها العامرة، ومساجدها، وأسواقها، يقول ابن شهيد متابعاً وقد استعادت ذاكرته ذلك العهد المنصرم:[(2)]

عَـهْدي بِـها وَالشَّـمْلُ فيـها جَـامِعٌ	مِنْ أهْلِـها وَالعَيْـشُ فِيـهَا أخْضَـرُ
وريَـاحُ زهْرَتِـها تَلُـوحُ عَلَيْـهِمُ	بروائِـحٍ يَفْـتَرُّ مِنْـهَا العَنْـبَرُ[(3)]
والقَـوْمُ قَـدْ أمِنُـوا تَغَـيُّرَ حُسْـنِهَا	فتعَمَّمُـو بِجَمالِـهَا وَتَـأزَّروا
يَـا طيبَـهِم بِقُصورِهـا وخُدُورِهـا	وَبُدُورِهـا بقُصُورِهـا تَتَخَـدَّرُ
والقَصْـرُ قَصْـرُ بَنـي أمَيَّـةَ وَافِـرٌ	مِـن كُـلِّ أمـرٍ والخِلافَـةُ أوْفَـرُ
والزاهِرِيَّـةُ بِـالمَراكِبِ تُزْهِـرُ	والعامِرِيَّـةُ بِـالكواكبِ تُعمَـرُ

---

(1) ابن شهيد – الديوان ص١١٠-١١١.

(2) المصدر نفسه، ص١١٠-١١١.

(3) يُفتَرّ: بمعنى انتشرت رائحته، اللسان (فرر).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والجـامعُ الأعْلـى يَغـصّ بِكُـلّ مَـنْ ... يتلـو ويَسـمَعُ مـا يَشـاءُ ويَنْظـرُ
ومَسـالكُ الأسـواقِ تَشْـهَد أنّـهَا ... لا يَسْـتَقِلّ بسـالكِيها المَحشَـرُ
آسَـى عَلَيْـكِ مِـنَ الممَـاتِ وَحَـقّ لـي ... إذا لم نزل بـكِ فـي حياتكِ نفخـرُ
كـانت عِراصُـك للمتيّـم مكّـةً ... يـأوي إليـها الخـائفون فيُنصَـروا
جَـادَ الفُـراتُ بِسَـاحَتيكِ ودَجْلـةٌ ... والنّيـلُ جَـادَ بِـهَا وَجَـادَ الكَوثـرُ
وسُـقيتِ مِـن مَـاءِ الحيـاةِ غمامـةً ... تحيا بـها مِنْـكَ الرّيـاضُ وتُزهِـرُ
أسَـفِي عَلَـى دَارٍ عَـهِدتُ ربوعَـها ... وظباؤهـا بِفَنائِـها تَبَخْـتَرُ
حزَنـي عَلَـى سَـرَوَاتِها ورُواتِـها ... وثِقاتِـها وَحُماتِـها يَتَكـرّرُ[1]
نَفْسِـي عَلَـى آلائِـها وَصِفاتِـها ... وبَهائِـها وسَـنائها تَتَحسّـرُ
كَبِـدِي علـى عُلَمائِـها حُلَمائِـها ... أُدبائِـها ظرَفائِـها تتفطّـرُ

لقد جعل ابن شهيد من قصيدته سجّلاً يحفظ فيه ما يرتسم في ذاكرته من صور حيّة نابضة لمدينة قرطبة، حيث شهد على ما امتازت به مدينة قرطبة من مكانة جعلت منها جنّة لا نقص فيها حيث الأمن والرّخاء والحسن.

إنّ ابن شهيد بعد وقوفه على آثار قرطبة الباقية ارتدّ من خلالها إلى عمق الماضي جاعلاً من هذه الأطلال نقطة انطلاق له، فقد استعاد عهد قرطبة الماثلة أمامه متجاوزاً الحدود الزمنية، دون أن يشعر المتلقي بتلك النقلة عبر الزمن، ليضعه – أي المتلقي – في زاوية تمكّنه من إلقاء الضوء على تلك الفجوة العظيمة التي تفصل بين حاضر المدينة وماضيها.

وقد استطاع ابن شهيد أن يظهر عظم المصيبة التي أطاحت بالمدينة وأهلها من خلال انتقاء صور من الماضي تُعلي من شأن ما فُقد في مقابل صور مظلمة للمدينة وأهلها بعد تلك الفاجعة. فقد عرض لقصور قرطبة وخصّ قصر بني أميّة بالوافر من كل شيء وذكر الزاهريّة، والعامريّة، والجامع، ليعرض من خلال تلك المسميّات لأكثر صور المدينة رسوخاً في ذاكرته، فقد كانت تلك الأمكنة تعج بالحياة، فهي مراكز تجمّع لأهل قرطبة، ولكن شتّان بين حاضرها وماضيها، إذ أنّ صور المضي الحيّة التي ترتسم في ذاكرة الشاعر تصطدم بالواقع في لحظة يجول فيها بصر ابن شهيد فيما يقع أمامه من ديار مقفرة من جميع أشكال الحياة فيتوجّه إلى المدينة مخاطبا ومؤكد عظم مكانتها. على الرغم مما اجتاحها من تبدل.

---

[1] سرواتها: جمع سراة وهو: الشريف الرفيع. انظر: اللسان (سرا).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونلحظ أنّ قصيدة ابن شهيد في رثاء قرطبة تختلف في تناولها للمدينة عن قصيدة ابن حزم – السالفة الذكر – من عدّة جوانب منها: أنّ ابن شهيد كان أكثر غوصاً فيما لديه من ذكريات حول المدينة، فقد عرض للعديد من الأمكنة المهمّة في مدينة قرطبة مبرزاً لما تحمله تلك الأمكنة من خصوصية، فاحتلّ العهد المشرق لقرطبة الجانب الأعظم من القصيدة أمّا ابن حزم فقد كانت مساحة الألم في قصيدته تفوّق عبق الماضي الذي عهده في المدينة.

إنّ وقوف الشاعر الأندلسي على آثار المدينة المندثرة مخاطباً لها، ومستعيداً لما في ذاكرته من أحداث الماضي المرتبط بالمدينة يشبه إلى حدّ بعيد ما كان من وقوفٍ للشعراء على الأطلال في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي.

إذ يجتمع الشعراء على إبراز تلك العلاقة المتجذّرة في النفس الإنسانيّة، وهي علاقة تربط الإنسان بالمكان – دون تخصيصٍ لطبيعة ذلك المكان – في مواجهة فعل الزمان.

إلا أنّ الوقوف على بقايا المدينة يتخذ سمات تميّزه عن الوقوف على الأطلال وإن جُمع بينهما في بعض السمات العامة مثل اتخاذ المكان مدخلاً لاستحضار الماضي. ومحفزاً من الواقع لأعمال الذاكرة.

كان الشاعر في وصف الآثار واستجلاء عظمتها الغابرة يتحدّث عن عاطفة عامّة مشتركة يجد صداها لدى كل مواطن مثله، أمّا شاعر الأطلال فيصدر عن عاطفة ذاتية ينفرد بها في الأعم الأغلب. وإذا شاركه فيها إنسان آخر فإنّ الشاعر لا يكترث به بل كل همّه أن يفرّج عن صدره همّاً يرين عليه بما ينظّم من أبيات. ولا يقف الفرق بين الأدبين عند هذا القول بل يتجاوز ذلك. إذ أنّ المدينة تمثّل صورة جديدة للمكان بكل ما تحويه من قصور ومنازل وحدائق ومساجد وساحات وجميعها رموز معماريّة، لا بدّ أن ينعكس تدميرها على مشاعر من يقف على آثارها ممن سكنها بطريقة مغايرة لما كان يحدثه المكان في المقدمات الطلليّة. (حكي في المطمح أنّ الوزير أبا الحزم بن جَهور[1] قال وقد وقف على قصور الأمويين التي تقوّضت أبنيتها، وعوّضت من أنيسها بالوحوش أفنيتها فقال:[2]

---

[1] أبو محمد بن جهور: (وهو جهور بن محمد، أبو محمد التّجيبي المعروف بالفلو، رئيس، شاعر، أديب وافر الأدب/ انظر في ترجمته الجذوة، ص١٦٥.

[2] المقري – النفح، ج١، ص٥٢٥، مطمح الأنفس، ص١٨٦، جذوة المقتبس ص١٦٥، وقد جاء في الجذوة أن الفتح قد نسب هذين البيتين لأبي الحزم والصواب أنهما لأبي محمد بن جهور التجيبي المعروف بالفلو، وفي المطمح جاء (أن هذين لأبي حزم).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قُلْــتُ يَوْمَـــاً لِـــدَارِ قَـــومٍ تَفَـــانَوا أيْـــنَ سُــكّانُكِ العِـــزازُ[1] عَلَينـــا
فَأجَـــابَتْ: هُنَـــا أقَـــاموا قليـــلاً ثــمّ سَــاروا ولَسْــتُ أعلَــمُ أيْنَــا

لقد كان للقصور مكانة تميّزها عن سواها في نفس من يشهدها وهي في مجدها لينعكس ذلك في ما يقال فيها من شعر بعد خرابها، فضلاً عمّا يحمله رثاء هذا الرمز المعماري من بُعد سياسي، إذ قد يفهم منه تعبيراً صريحاً من الشاعر، يؤكّد ولائه لمن سكن تلك القصور.

وإذا كان الشاعر يرثي لحال أهل المكان وساكنيه في العديد من القصائد، فإنّ المدينة تبرز في الجزء الأعظم من قصائد هذا القرن وقد أصبحت محوراً للرثاء، لما تمتاز به من صور معمارية خالدة عظيمة يصعب تصوّر خرابها فالزهراء التي تعدّ من عجائب أبنية الدنيا، (وقد أنشأها أبو المظفّر عبدالرحمن الملقب بالناصر، بالقرب من قرطبة، وجلب إليها مواد البناء المختلفة من رخامٍ أبيض ووردِيّ وأخضر من العديد من المدن الأندلسيّة والمغربية، وأقام فيها العديد من التماثيل الفائقة الحسن، وقد استخدم في بناء الزّهراء الذهب والرخام الملوّن والفضة والعاج والأبنوس، وأصناف الجوهر المختلفة، وأقام المجلس الشرقي فيها، كما بنى مجلساً سمّاه قصر الخلافة بذل فيه كل ثمين من معدن وجوهر وحجارة وجعل له ثمانية أبواب، (وهذا المجلس لم يتقدّم لأحد بناؤه في الجاهلية ولا في الإسلام وإنّما تهيّأ له لكثرة الزئبق عندهم، وكان بناء الزهراء في الغاية الاتقان والحسن، وبها من المرمر والعُمُد كثير، وأجرى فيها المياه وأحدق بها البساتين).[2]

إن هذا الوصف للزهراء يمثّل بعض ما جاء من تصوير لعظمتها ولما احتوت من عجائب وغرائب لا مثيل لها منذ العصر الجاهلي إلى زمانها، وقد جاء هذا العرض الموجز للزهراء لتبيان محاور الصورة المتكوّنة في خيال الشاعر الذي يقف على أطلال تلك الجنّة وقد زال ما كانت عليه من جمال وبهاء تعشقه الحواس وتنقشه في الذاكرة، يقول السميسر:[3]

---

[1] جذوة المقتبس: (الكرام).

[2] المقري – النفح، ج١، ص:٥٢٦-٥٢٧.

[3] المقري – النفح، ج١، ص٥٢٧-٥٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَقَفْـــتُ بِـــالزّهراءِ مُسْـــتَعْبِراً مُعْتَـــبِراً أَنْـــدُبُ أَشْـــتَاتَا
فَقُلْـــتُ: يَـــا زَهْـــرَا ألا فَـــارْجِعي قَـــالت: وهَــل يرجِــع مَــنْ مَاتَـــا؟
فلــم أزل أَبْكــي وأبكــي بِــها هَيْــهاتَ يُغْنــي الدّمــعُ هيــهاتا
كأنّمـــا آثـــار مَـــن قَـــدْ مَضَـــى نَـــوَادبٌ يَنْدبـــنَ أمواتـــا

هذه المقطوعة الشعريّة تشير إلى موت الزهراء، فيواجه السميسر (آثار) الزهراء باكيـاً، ونادباً، ومعتبراً. متخذاً من آثار الزهراء مرآة يعكس من خلالها ما يعتمل في نفسه مـن يـأسٍ وذهول من جرّاء ما آل إليه مجد الزهراء. الذي بات يحنّ إليـه، ففـي قولـه للزهـراء: " ألا فارجعي " تعبير عن رغبة ملحّة في أمنيات الخلاص مما جرّته يد الدّمار. إلا أنّ سيطرة مشاعر اليأس من استعادة الذي كان يحول دون امعان السميسر في تناول المدينة، إذ لا يوجد فـي هـذه المقطوعة الشعريّة ما يصوّر للمتلقي ماضي الزهراء وما حوته من أشكال المدنيّـة وضـروب الترف المعماري قبل اندثارها (موتها) على الرّغم من استحقاقها لكـلّ عظيـم مـن الوصـف، والسميسر في رثاء الزهراء اكتفى بذكر واقعها المؤلم، وما له من صدى يتردّد في أعماق نفسـه، فلم يجزِ مقابلة بين ماضي الزهراء وحاضرها على الرغم مما تؤدّيه المقابلة من دورٍ في اذكـاء مشاعر الأسى والتدليل على فداحة المصاب.

ومن الشعراء الذين وفقوا في تناولهم لحاضر الزهراء وماضيها فيما قيل في رثائها أبو جعفر بن جرج[١] الذي يقول في ندب أطلال الزهراء:[٢]

سَـقى اللهُ زَهْـرَاءَ القُصــورِ وإنْ بَــدَتْ لِعَينَيكَ غَبْرَاءَ الدّثــور حَيَـا المـزْنِ
فَـلا جَــوٌّ كــالجّوِّ الصقيــلِ بأفْقنــا وذَاكَ الهَوَاءُ الغَضّ كَـالملمَس اللّـدنِ
عَلى قَدْرِ ما أعطــى العيـون مـن الحسـن سَنَاها غدَتْ تُعطي النُّفُوسَ مِنَ الحُـزْنِ
وكَمْ قَـدْ جَنَـتْ تِلْـكَ المُنَـى أهْلَـها المُنـى فَأضحت ومَا غيّر الأسَى رَائد اللحْـنِ
عَفَـا حُسْـنُها إلاّ أزاهِـر دِمْنَــة وعَرفَـا كَـأنّ المِسْـكَ فِيـهَا مِـنَ الدّمَــنِ
تُذكّرنـــا تِلْـــكَ المبَـــاني بِعَرْفـــها وبالزّهر تلك الأوجه الزّهر في الحسـنِ
إذا المُلْـــكُ فِيـــهَا والمُلُـــوكُ أعِـــزَّةٌ وفِيْها الغِنَى لَوْ كَان ذاكَ الغِنَى يُغْنـــي

---

[١] أبو جعفر بن جرج: الوزير الكاتب أبو جعفر بن جرج نزل قرطبة في عهد ملوك الطوائف، ورد له الجيّد من النظم والنثر. انظر: الذخيرة، ج٣، ص٢٨٥.

[٢] ابن بسام – الذخيرة، ج٣، ص٢٨٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يبدأ ابن جرج هذه الأبيات بالدُّعاء للزّهراء في ثياب عزّها المنصـرم متجـاوزاً عمّـا يترامى أمام ناظريه من صور شوّهتها يد الفتنة، ونال منها غبار الزّمان، ثمّ يستدعي ما في ذاكرته من صور خالدة لزّهراء القصور بأجوائها، وهوائها الغضّ، ومبانيها العامرة المتألّقة بأنوار تمنح الحسن لكل عين تراها، لينتقل ابن جرج دون تمهيد أو فاصل في قصيدته إلى تصوير النّهاية المؤلمة في حاضر غدت فيها الزّهراء مبعثاً للهمّ والأسى، إنّ ابن جرج يتوسّل بالماضي للانطلاق إلى بثّ مشاعر الأسى الكامنة في نفسه، ونجد أنّ مساحة الماضي تفوق المساحة التي يحتلّها واقع الزهراء الماثل أمامه، إذ أنّ ابن جرج يكتفي ببعض الومضات البسيطة التي تُلمح إلى مصير الزهراء وأهلها من مثل قوله: (غبراء الدثور)، و (عفا حسنها)، و (أصبحت وما غير الأسى رائد اللحن)، دون أن يعرّج بالذكر على أسباب الفاجعة أو مصير من سكن الزّهراء.

وقد أثارت بقايا الزّهراء العديد من الشعراء الذين مرّوا بها، فاعملت في نفوس من ارتبط بها في دهرٍ مضى مشاعر الأسى. وقد كُتِبَ على الزّهراء بعد أن أصبحت خراباً، وصارت مأوى الطير والوحش أبياتاً قيل فيها:[1]

دِيَـارٌ بِأكنَـافِ المَلاعِـبِ تَلْمَـعُ ... وَمَا إن بها من ساكنٍ وهي بَلْقَـعُ
يَنُـوحُ عَلَيْـهَا الطَّـيرُ مِـنْ كُـلِّ جَـانبِ ... فَيَصْمُتُ أحْيَانـاً وحينـاً يُرَجِّـعُ
فخـاطبت مِنْـها طَـائِراً مُتَغَـرِّدا ... لَهُ شجَنٌ فـي القلـبِ وهـو مـروّعُ
فقلـت: علـى مـاذا تنـوح وتشـتكي ... فقال عَلَى دَهْرٍ مضـى ليس يَرْجِـعُ

ومثل هذه المقطوعة الشعريّة تعبّر عن ومضة الأسى التي ترافق الوقوف على الآثـار، فتتراكم في نفس الشاعر تداعيات مختلفة تمتزج بالحسرة والألم، يطلقها من خلال أبيات قليلة – غالباً –. والشاعر يجسد مشاعر الألم والرثاء لمصاب الزّهراء فيما يترامى أمامه، فإذا كان السميسر قد اتخذ من آثار الزهراء نوادب لها، فإن هذه المقطوعة قد جعلت من الطير صوتاً يتردّد بين تلك الآثار نوحاً وشكوى من فعل الدّهر واستحالة العودة إلى عهد الزهراء الذي ضاع.

وعلى الرغم من أن تميّز المكان، واحتلاله ذروة المجد دافع قوي لندبه بعد زوالـه، إلا أن استحقاق المدن الأندلسية للرثاء لم يقف عند حدود تميّزها، أو أفضليتها فقط، فقد كان الشـاعر

---

[1] المقري – النفح، ج١، ص٥٢٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأندلسي متحيّزاً لمدينته ومسقط رأسه في شتى الموضوعات الشعريّة، ومنها: رثاء المدن. يقول أبو إسحاق الإلبيري في خراب إلبيرة في أعقاب الفتنة:(١)

يُضَيَّعُ مفْروضٌ ويُغْفَلُ واجِبُ وإنّي عَلَى أهلِ الزّمان لَعَاتِبُ
أتُنْدَبُ أطْلالُ البِلادِ ولا يُرى لإلبيرة مِنْهُم عَلَى الأرْضِ نَادِبُ
عَلَى أنّها شَمسُ البِلادِ وأُنسُها وكُلُّ سِواهَا وَحْشَةٌ وَغَيَاهِبُ
وكَمْ مِنْ مُجيبٍ كانَ فيها لَصارِخٍ تُجابُ إلى جَدْوَى يَدَيْهِ السّباسِبُ(٢)
وكَمْ مِنْ نَجيبٍ أنْجَبَتْهُ وَعَالِمٍ بأبوابِهِمْ كَانتْ تُناخُ الرّكائبُ
وكَمْ بَلَغَتْ فيهَا الأمَانِي وقُضّيَتْ لَصَبّ لُبَاناتٍ بِها ومَآرِبُ(٣)
وكَمْ طَلَعَتْ مِنْهَا الشّموسُ وكَم مَشَتْ عَلَى الأرْضِ أقْمَارٌ بِها وكواكِبُ
وكَمْ فَرَسَتْ فيْها الظّباءُ ضَرَاغِماً وكَمْ صَرَعَتْ فيْها الكُمَاةُ كواعِبُ

تُبرز هذه القصيدة المنزلة المرموقة التي احتلها موضوع رثاء المدن في شعر القرن الخامس الهجري، فقد أشار أبو إسحاق الإلبيري في قصيدته إلى وجود العديد من قصائد الرثاء التي قيلت في ندب المدن الأندلسية بعد خرابها. في حين أنّه لم يجد من ندب مدينته. وقد نظر أبو إسحاق إلى موضوع رثاء مدينته على أنّه واجب وفرض، مستنكراً ما كان من إغفال شعراء الأندلس لرثاء مدينة إلبيرة.

ويُظهر الإلبيري تحيّزاً واضحاً لمدينته، ويؤكّد على أفضليتها وتميّزها، فهي شمس البلاد وما سواها وحشة وغياهب. وهو يعرض في قصيدته لفضل أهل مدينته، وكثرت من تميّز منهم بالنجابة والعلم والقوة.

ولعل أبا إسحاق يود القول إن الذي كان لا يمكن حصره أو الإحاطة به، فكم من مجيب، وكم من نجيب، وكم بلغت فيها الأماني، وكم فرست فيها الظباء. ولعلّ الإلبيري يحلق في عالم الذكريات المختزنة حول مدينته، ويعيد بث كل ما من شأنه تعميق شعور المتلقي بأفضلية مدينة إلبيرة، واستحقاقها للذكر والتخليد، ثم يعرض لواقع المدينة التي سوّدته يد النوائب فغدت فيه القصور خالية، والدّيار مقفرة من أهلها، وتتزاحم الصور لتشق الآه طريقها معبرة عن شدة

(١) أبو إسحاق الإلبيري – الديوان، ص٧١.
(٢) السبسب: القفر و المفازة، أو الأرض المستوية البعيدة. اللسان مادة (سبسب).
(٣) اللّبانة: الحاجة من غير فاقة. اللسان (لبن).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحسرة والألم لما لحق بالمدينة وأهلها من إبادة وشتات، مؤكّداً على أن أهل مدينته خالدون بأفعالهم ومناقبهم، وأن البقية الباقية منهم تسطع كنجوم في الأرض لتميّزهم أينما حلّوا. إذ يقول:(١)

لَعَهْدِي بِهَا مُبْيَضّةَ اللَيْلِ فاغْتَدَتْ — وأيّامُها قَدْ سَوّدَتْها النّوائِبُ
ومَا كانَ فِيها غَيْرُ بُشْرَى وأَنْعُمٍ — فَلَمْ يَبْقَ فِيها الآن إلاّ المصائِبُ
غَدَتْ بَعْدَ رَبّاتِ الحِجالِ قُصُورُها — يَباباً تُغَادِيها الصَّبَا والجَنائِبُ
فآهٍ أُلوفاً تقتضي عَدَدَ الحَصَى — عَلَى عَهْدِهَا ما عاهَدَتْها السَّحائِبُ
عَجَبْتُ لِما أدْري بِها مِنْ عجيبَةٍ — فَيا لَيْتَ شِعْرِي أيْنَ تِلْكَ العَجائِبُ
ومَا فَعَلَت أعْلامُها وفِئامُها — وأرْآمُها أم أين تِلكَ المراتِبُ(٢)
وأيْنَ بِحارُ العِلْمِ والحِلْمِ والنّدى — وأيْنَ الأكُفُّ الهامياتُ السَّواكِبُ
شَقَقْنا عَلى مَن ماتَ مِنْهُمْ جُيُوبَنا — وكانَ قَليلاً أنْ تشُقَّ التَّرائبُ
وإن فَقِدَتْ أعْيانُهُمْ فَلتُوجَدَنْ — مَدَى الدّهْرِ أفْعالٌ لَهُمْ ومَناقِبُ
وَقَدْ بَقِيَتْ فِي الأرْضِ مِنْهُمْ بَقِيّةٌ — كأنّهُمْ فِيهَا نُجومٌ ثَوَاقِبُ
فَلِلّه ثاويهم ولله حَيُّهُمْ — فكُلُّ جَوَاد باهِرُ الفَضْلِ واهِب

وقد جعل الإلبيري من الأبيات التي اختتم بها قصيدته لساناً ينطق معبراً عن المدينة بعد أن توجّه بالسؤال إلى رسم الدّيار عن أهل المدينة وسكانها، فأجابه: " ألا كل شيء ما خلا الله باطل ".

إنّه قانون الفناء، إذ لا يبقى إلا الله سبحانه وتعالى، حقيقة ثابتة لكنها تقال هنا على لسان المدينة التي واجهت الفناء، إنه الإقرار بعد التجربة القاسية بكل أبعادها، والتسليم لفعل القدر.

لساءَلْتُ عَنْهُم رَسْمَها فأجابني — " ألا كُلُّ شَيءٍ مَا خَلا اللهَ ذاهِبُ "(٣)
يُخاطِبُنا: أنْ قَد أُخِذَت بِذَنبِكُم — وَمَا أحَدٌ مِنْكُم عَن الذنبِ تائِبُ

---

(١) أبو إسحاق الإلبيري – الديوان، ص٧٢-٧٣.

(٢) لفئام: الجماعة من الناس. – اللسان (فأم)؛ الآرام: الأعلام والصّوى (أرم).

(٣) عجز البيت يذكر بقول لبيد: ديوانه، ص٢٥٦. ت/ إحسان عبّاس، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، ١٩٦٢.
ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطِلُ — وكُلُّ نعيمٍ لا محالة زائل.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لشَكْلُكُم أولَى وأجْدَرُ بالبُكا   عَلى مِثْلِهِ حقّاً تَقومُ النَّوادِبُ![1]

وقد أتاح الإلبيري للمكان أن يعبّر بصوت مختلف عن نبرة صوت الشاعر النادب لمدينته المعدد لمناقب سكانها، فكان صوت المكان يعلن أن ما أصابه من تبدّل جاء عقاباً لذنوب اقترفها سكانه فما تابوا. إن المدينة هنا توجّه أصابع الاتهام إلى أهلها، فقد عظمت ذنوبهم وقست قلوبهم، فلا يوجد داع منهم إلى الله ولا تائب عن الذنب. وها هي تحمل أوزارهم، وتؤخذ بذنبهم.

ولعل الإشارة تتجه إلى أهل الأندلس وذلك لأن أهل إلبيرة قد واجهوا الكارثة وحملوا تبعاتها، فالمدينة عندما تكيل اتهاماتها تتوجّه مخاطبة من يمثّل أمامها من أهل الأندلس الذين تقاعسوا عن الالتفات لهذه المدينة.

والإلبيري يطرح في قصيدته ما يراه من أسباب تقف خلف مصاب مدينته، ويختتم قصيدته معلناً عن رفض المدينة لأن تندب، فأهل الأندلس هم الأحق بالرثاء والنّدب لما اقترفته أيديهم. وفي مثل هذا القول تقريع وتحقير يرد به الشّاعر على تقصير من قصّر في حق مدينته.

وهكذا كان الإلبيري متدرجاً في انتقاله من فكرة إلى أخرى عارضاً لأهم القضايا التي تحقق ما يسعى الشاعر لاثباته في نفس المتلقي.

---

[1] شكلكم من الشّكل وهو الشّبه والمثل. اللسان مادة (شكل).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَشِـــــرارُهم لا يَختفُـــــونَ بِشَـــــرّهم وَصَـــلاحَ مُنتحلـــي الصَـــلاحَ ريـــاءُ

لقد تدفقت كلمات ابن العسّال حاملة صوراً مثيرة للوعة، تمثّل مـــا كـــان مـــن اعتـــداء للمشركين على تلك المدينة الأندلسية الحصينة، وما لحق بأهلها من تنكيل وإذلال وتقتيل.

ولقد عرض ابن العسال لما يراه من أسباب لتلك المصيبة العظيمـــة مؤكّـــداً أن ذنـــوب المسلمين، وما تجنيه أيديهم من كبائر، وما في نفوس حكامهم مـــن ضعـــف وجبـــن ومجـــاهرة بالمعصية داء يقف وراء هزيمتهم، وصوت ابن العسال ذو النبرة الحادة يمثّل الصـــوت القـــويّ الرافض للروح الانهزاميّة المتخاذلة، إذ تلمّس مواطن الضعف، وواجهها، متّخذاً مـــن الهزيمـــة وما جلبته من عارٍ وذلٍ مقدمةً يصل من خلالها إلى تحقيق مبتغاه من تحريك للنّفوس الضعيفـــة أو المتهاونة، وحثها على التصدّي والمواجهة، إن الإحساس الصادق بالمصاب العظيم يجعل مـــن صوت هذا الشاعر قوة تفوق الخوف والتردّد، فنراه موجهاً لما يجب القيام به غـــير مســـتجد ولا مستنجد، وهو في الوقت نفسه ناقد لاذع للحكّام والأفراد، إنّه يوجّه الاتهام ويبرز الأدلّة متحديّـــاً، لعله يسمع صوتاً يتصدّى له، ويثبت قولاً مغايراً لقوله واتهاماته، إنه التحريض بطريقـــة غـــير مباشرة.

وقد كان لابن العسّال ما أراد، إذ (تداعت ممالك الأندلس لاســـترداد مدينـــة "بربشـــتر". وجمع أحمد بن سليمان بن هود صاحب سرقسطة وجهاتها أهل الثغور، ونهد إليـــها فـــي جمـــع كثيف ذوي حدّ وجدّ، ففتحها الله عزّ وجل على يديه عنوة، وكان افتتاحها سنة ســـبعٍ وخمســـين وأربعمائة، ومن ذاك تسمى بالمقتدر بالله، وكانت مدة ملك النّصارى لها تسعة أشهر)[1].

ومن الملحوظ أنّ ابن العسّال في قصيدته لم يُشر للمدينة إلا من خلال عبارات قليلة مثـــل قوله: " هتكوا بخيلهم قصور حريمها "، و " كم موضع غنموه "، فلـــم يصـــور لنـــا مـــا لحـــق بالقصور، أو الدور، أو المساجد من تدمير وتخريب مقتصراً على تصوير حال سكّان المدينة.

ولعلّ ذلك يعود إلى أنّ ما أصاب المدينة يمسّ الوجود الإسلامي علـــى أرض الأندلـــس وهو بُعد أعمق أثراً في النفوس ممّا يحدثه تخريب مدينة أندلسيّة على يد الفتنة. فمصاب المدينـــة على يد العدو يحمل تهديداً بالزّوال أما مصابها على يد الفتنة فقد يخرج إلى فوز أحد الأطـــراف المتنازعة وهو في النهاية بقاء للإسلام في الأندلس.

---

[1] الحميري – الروض المعطار، ص٩١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإذا كان الاستسلام لفعل الزمن والخضوع لحكمه سمة مرافقة لقصائد رثاء المدن في أعقاب الفتنة – غالباً – فابن العسّال في هذه القصيدة يبرز شخصية ثائرة متمرّدة وصوته يشبه إلى حدٍ بعيد ذلك الصوت الذي عرضنا له في أثناء الحديث عن الفتنة، وكلاهما يعكس إيماناً قوياً بإمكانية العودة إلى سالف العهد، ويغلب عليهما الطابع الانفعالي والجرأة على النّقد. وهذا الصوت – في الغالب – يرافق الأحداث وهو مغاير لذاك الصوت المتأمّل الذي يصدر عن الشعراء عند وقوفهم على آثار المدن الأندلسية، إذ لا مجال للتمرّد أو الرفض.

• سقوط طليطلة: سنة ٤٧٨هـ

وتتعاقب الفواجع وتسقط مدينة طليطلة وهي أول المدن الأندلسية العظيمة ضياعاً، فقد استباحها النّصارى واستولوا عليها، " وأنزل العدو مَنْ بها على حكمه، وخرج ابن ذي النون منها على أقبح صورة، وأفظع سيرة، ورآه الناس وبيده اصطرلاب يأخذ به وقتاً يَرْحَلُ فيه، فتعجب منه المسلمون، وضحك عليه الكافرون، وبسط الكافر العدل على أهل المدينة، وحبّب التنصر إلى عامة الناس، فوجد المسلمون من ذلك ما لا يطاق حمله "[1].

ويلجأ المحتل إلى وسائل مختلفة في مخادعة الناس وإغرائهم، فهو يحاول جاهداً أن يتنصّر أكبر عدد من الناس بعد سقوط طليطلة، ويسقط في هذا الشرك بعض ضعاف النفوس. فقد جاء في المغرب: أنّ أبا القاسم بن الخيّاط " لمّا أخذ النّصارى طليطلة، حلق وسط رأسه وشدّ الزّنّار، فقال له أحد أصحابه في ذلك: أين عقلك! فقال: ما فعلت هذا إلا بعد أن كمل عقلي " وقال شعراً منه:[2]

تَلَوّن كالحرْباءِ حيْنَ تَلَوُّنِ ... وأبْصَرَ دُنياهُ بملءِ جُفونِهِ
وكُلٌّ إلى الرحمن يُومي بوجهه ... ويذكُرُهُ في جَهْرِهِ ويقينِهِ
ولَو أنَّ ديناً كانَ نفياً لخالَقي ... لما كنتُ يوماً داخلاً في فنونه

---

[1] النفح، ج٤، ص٤٤٧.

[2] ابن سعيد، المغرب، ج٢، ص١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأين هذا الصوت المتخاذل الذي أسرع بالتجاوز عن أصله ودينه مرتدياً ثياب الحربـاء، متلوناً تبعاً للحاجة الدنيويّة من صوتٍ لم يُعرف صاحبه وإن كان يطابق ما نتوقّع سـماعه فـي مثل هذه المحنة العظيمة من كلّ مسلم، فمدينة طليطلة ثغر من الثغور الحصينة، وفقدهـا يمثّـل مصاباً جللاً وفاجعة عظيمة أصابت المسلمين كافّة. فحقّ أن يقال فيها:[١]

لِثُكلِـكِ كَيْـفَ تَبْتَسِـمُ الثّغـورُ ... سُـروراً بَعْدَمـا سُـبِيَتْ ثُغـورُ
أمَـا وأبـي مُصَـاب هُـدَّ مِنْـه ... ثبـيرُ الديـن فـاتصل الثبـورُ[٢]
لَقَـد قُصِمَـتْ ظُـهورٌ حيـنَ قـالوا ... أمـيرُ الكـافرينَ لـهُ ظُـهورُ
تُـرى فـي الدّهـر مَسْـروراً بعيـشٍ ... مضـى عنّـا لِطيّتـهِ السـرورُ
أليْـسَ بِـها أبـيّ النّفـسِ شَـهْم ... يُديـرُ علـى الدوائـر إذ تـدور

يؤكّد الشاعر على أنّ الدّور الأعظم في هذه الهزيمة يقع عاتق الحاكم، وصاحب الأمـر في المدينة، لذلك نجده باحثاً عن قائد شهم يأبى الذلّ والخنوع بعدما هان العزيز، وخضع القـوي، وسامح الغيور بحريمه، يقول الشاعر:[٣]

لَقَـد خضَعَـتْ رِقـابٌ كُـنّ غُلبـاً ... وَزالَ عَتوّهـا ومضـى النّفـورُ
وهـانَ علـى عزيـز القَـومِ ذُلّ ... وسـامحَ فـي الحريـمِ فتـىً غَيـورُ
طليطلـة أبـاحَ الكُفـرُ منـها ... حماهـا، إنّ ذا نبـأ كبـير

ويتابع الشاعر قوله:[٤]

---

[١] النفح، ج٤، ص٤٨٣.

[٢] ثبير الدين: جبل بمكّة. - والثبور: الويل والهلاك. اللسان (ثَبر).

[٣] النفح: ج٤، ص٤٨٣.

[٤] النفح، ج٤، ص٤٨٣-٤٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَلَيْـسَ مثالــــها إيـــوانُ كســـرى	وَلا مِنْـها الخَوَرْنَـــقُ والسَّـــاديرُ
محَصَّنَــــــةٌ محسّــــنَةٌ بعيـــــدٌ	تناولَـــها ومَطْلَبَـــها عســـيرُ
ألــم تــكُ معقــلاً للديــن صَعْبــاً	فَــذَلـله كمــا شــاءَ القديــــرُ
وأخـــرجَ أهلَـــهَا مِنْـــها جميعــاً	فصاروا حيــثُ شـاءَ بــهم مصـيرُ
وَكـــانَتْ دارَ إيمـــانٍ وَعِلـــمٍ	معالمــها التـي طُمِســتْ تُنــيرُ

إنّ الشاعر بعد عرضه لصورة المدينة قبل المصاب ينتقل ليصوّر نقطة التحـول ومـا رافق ذلك العدوان من أحداث أطاحت بالحضارة الإسلامية، فقد عرض للشتات الذي لحق بـأهل المدينة وما أعقبه من تبديل للمعالم الإسلامية فيها، وقد تم تحويل المساجد إلـى كنـائس. يقـول الشاعر:[٢]

فَعَـــادَتْ دارَ كفـــرٍ مُصطفـــاة	قـد اضطربـت بأهليـها الأمــورُ
مســـاجِدُها كنـــائِسُ، أيّ قلــــب	عَلـى هــذا يَقَــرُّ ولا يطـيرُ؟
فيـا أسـفاه يـا أســفاه حُزْنــاً	يُكــرّرُ مــا تكــررّت الدّهــورُ
وينشــرُ كــلّ حُســنٍ ليْــس يطــوى	إلـى يـومٍ يكـونُ بــهِ النّشــورُ
أديلَـــتْ قـــاصراتُ الطّــرْف كــانت	مَصونـــاتٍ مســاكِنُها القُصــورُ
وأدركــها فتـــورٌ فـــي انتظــار	لســربٍ فـــي لواحظـــه فتــورُ
وكـــانَ بِنـــا وبالقينـــات أولـــى	لــو انضمّــتْ علـى الكـلّ القبــورُ
لقــد سَــخِنَتْ بحالتــهنّ عَيْــنٌ	وَكيــفَ يصــحّ مغلــوبٌ قريــرُ

(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص٤٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجاء في النفح أن النصارى قد شرعوا في تغيير الجامع إلى كنيسة في سنة ست وتسعين وأربعمائة".[١] ولعل هذه القصيدة قيلت بعد هذا التاريخ.

ويقف الشاعر على الرغم مما يعتمل في نفسه من أحزانٍ لا تفتر وأشجانٍ لا تغيب متصدياً للضعف والتهاون في أمور الدين، كاشفاً الستر عن العصيان والفجور، لنجده لسان صدقٍ يقف في مواجهة الواقع، وينطق بصوت الحقيقة مهما كان ذلك مؤلماً، إذ يقول متابعاً:[٢]

لئن غبنا عن الإخوانِ إنّا ... بأحزانٍ وأشجانٍ حُضورُ
نُذُورٌ كان للأيامِ فيهم ... بِمَهْلِكِهِمْ فقد وَفَتْ النّذورُ
فإنْ قُلْنا العقوبة أدركتهم ... وجاءهُمُ مِنَ الله النّكيرُ
فإنّا مثلهم وأشدُ منهُم ... نجورُ وكيْف يسلَمُ مَنْ يَجورُ
أنَامَنُ أنْ يَحلّ بنا انتقامٌ ... وفينا الفِسْق أجمعَ والفُجورُ
وأكْلٌ للحرامِ ولا اضطرار ... إلَيْهِ فَيَسْهلُ الأمْرُ العَسيرُ
ولَكنّ جرأةٌ في عُقْرِ دَارٍ ... كذلك يفْعَلُ الكَلَبُ العَقورُ
يزول السّترُ عَنْ قومٍ إذا ما ... على العِصْيانِ أرخيتِ الستورُ

ويبدو أنّ قائل هذه القصيدة ليس من أهل مدينة طليطلة وإن كان أكثر شعوراً بالمصاب الجلل من بعض أهلها. وإذا كان الشاعر يعلن أنّ ما لحق بالمدينة وأهلها عقوبة أدركتهم لما قدمت أيديهم فإنّه يحذّرُ من امتداد تلك العقوبة لتشمل مدينته الّتي صوّرها بما تحويه من فسقٍ وأكل للحرام وفجور محذّراً ومعتبراً. فالسفينة واحدة والغرق وشيك. ويلمح المتلقي لهذه القصيدة وحدة مشاعر أهل المدن الأندلسيّة وإنّ تفرّق حكامها، فهذا الشاعر يدرك وحدة الأسس والمرتكزات، ووحدة المصير فينطق بلسان المعتبر، فقد اتخذ الشاعر من مصاب طليطلة مدخلاً لنقد ما يحلّ بالمدن الأندلسيّة من أسباب الهزيمة هادفاً لتحريك النفوس باتجاه الجهاد والعودة إلى الإسلام لمواجهة هذا الخطر الذي يحدق بالجميع.

ويقف الشاعر مستصرخاً، إذ يخاطب كلّ مسلمٍ يرفض الذلّ والخضوع لغير الله بأن ينصر الدين ويثأر لمصابه ويختار الموت في سبيل الله على الرّضى بذلك الواقع المرير الذي جلب الخزي والعار.

---

[١] النفح، ج٤، ص٤٤٧.

[٢] المقري - النّفح، ج٤، ص٤٨٣-٤٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يطولُ عليَّ ليلي، ربَّ خطبٍ ... يطولُ لهولهِ الليلُ القصيرُ
خذوا ثأرَ الديانةِ وأنصروها ... فقد حامَتْ على القَتْلى النّسُورُ
ولا تَهِنوا وسُلّوا كُلَّ غضَبٍ ... تَهابُ مضارباً مِنهُ النّحورُ
ومُوتوا كُلّكُم فالموتُ أولى ... بِكُم مِنْ أن تُجاروا أو تَجوروا
أصَبْرا بَعْدَ سَبي وامتحانٍ ... يُلامُ عليهما القلبُ الصّبُورُ
فأُمّ الثّكلِ مِذكارٌ ولودٌ ... وأمُّ الصقرِ مِقلاتٌ نَزورُ
نخورُ إذا دُهينا بالرّزايا ... ولَيسَ بمعجَبٍ بَقَرٌ يخورُ
ونجبن ليس نزأر، لو شجعنا ... ولم نجبن لكانَ لنا زئيرُ
لقد ساءَتْ بِنا الأخبارُ حتّى ... أماتَ المخبرينَ بها الخبيرُ
أتَتنا الكُتْبُ فِيها كُلّ شرٍّ ... وبَشّرنا بأنحسِنا البشيرُ

وقد استطاع الشاعر أن يصوغ من أحداث الفاجعة صوراً تلمّ بالعديد من النواحي الماديّة والمعنويّة، فكانت قصيدته سجلاً تاريخياً عرض فيه لأسباب الكارثة وأحداثها وعواقبها حتى أنّه سجّل وقع تلك الفاجعة في نفوس أهل الأندلس عامّةً، وسكّان طليطلة خاصةً، الذين كانت لهم ردود فعلٍ مختلفة، يقول الشاعر في ذلك:[1]

وقِيلَ تجمّعُوا لفراقِ شملٍ ... طُليطلةٌ تملّكها الكَفُورُ
فقُل في خطّةٍ فيها صَغارٌ ... يَشيبُ لكَربِها الطفلُ الصغيرُ
لَقَدْ صمّ السميعُ فلم يعوّل ... على نَبأ كَما عميَ البَصيرُ
تجاذبنا الأعادي باصطناعٍ ... فَينْجَذبُ المخَوّل والفقيرُ
فباقٍ في الديانةِ تحتَ خزيٍ ... تثبّطهُ الشّوَيْهةُ والبَعيرُ
وآخر مارقٌ هانَتْ عليهِ ... مصائبُ دينهِ فلَهُ السعيرُ[2]
كفى حَزَناً بأنّ النّاس قالوا ... إلى أينَ التحوّلُ والمسيرُ
أنترك دورَنا ونفرّ عنها ... وليسَ لنا وراء البَحْرِ دورُ
ولا ثمّ الضياعُ تروق حسناً ... نباكرها فيعجبنا البكورُ
وظلٌّ وارفٌ وخريرُ ماءٍ ... فلا قرٌّ هناك ولا حَرورُ
ويؤكلُ من فواكهها طَريّ ... ويُشربُ من جداولها نميرُ
يؤدّى مَغرمٌ في كلّ شهرٍ ... ويؤخذُ كلّ صائفةٍ عُشُورُ

---

[1] المقري -النفح، ج٤، ص٤٨٥.

[2] مارق: هو الذي مرق من الدين والمروق: سرعة الخروج اللسان (مرق).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهم أحمى لحوزتنا وأولى | بنا وهُمُ الموالي والعشيرُ
لقد ذهب اليقينُ فلا يقينٌ | وغرّ القومَ بالله الغَرورُ
فلا دينٌ ولا دُنيا ولكن | غُرورٌ بالمعيشة ما غرورُ
رَضُوا بالرّقّ يالله ماذا | رآه وما أشار به مُشيرُ
مضى الإسلام فابكِ دماً عليه | فما ينفي الجوى الدمعُ الغزيرُ
ونُحْ واندبْ رفاقاً في فلاة | حيارى لا تحطّ ولا تسيرُ
ولا تَجنَحْ إلى سِلم وحارب | عسى أن يُجْبرَ العظمُ الكسيرُ

لقد عرضت القصيدة للواقع المؤلم، وقد وقف أهل طليطلة على أعتاب التشرّد، والذلّ، والضياع، تتعاورهم سبل الخضوع والرّضى جبناً وغروراً بالحياة الدنيا ونعيمها الزائل، لتكون الخاتمة خسارة في الدين والدنيا.

ولعلّ فيما عرضنا لذكره عند الحديث عن ذلك الصوت المتخاذل لأبي القاسم بن الخياط الذي اتخذ من التنصّر سبيلاً للبقاء، صورة من الواقع المؤلم الذي صُوّر بجلاء في هذه القصيدة المتميّزة، وشتان بين موقف ابن الخياط الذي يتلوّن كما الحرباء، وموقف هذا الشاعر المسلم الذي يفضّل الموت على كل أشكال الخضوع والاستسلام، ويحثّ على الثأر ومواجهة الموت لتوهب لأهل الأندلس الحياة.

ونجد أن هذه القصيدة التي قيلت في رثاء طليطلة لم تقتصر على عرض صورٍ من الواقع المؤلم بل جاء فيها توجيه، وحثّ لكيفية اجتياز هذا الخطر المحدق بالمدن الأندلسية، إذ يشير الشاعر إلى أمل قد يتحقق فيزيل هذا الكرب العظيم ويرتق الخرق الذي أصاب الأندلس قبل اتساعه، وهذا الأمل يتمثّل في قائد مسلم يأتي برأي أصيل وسيف قاطع فيحصد النصر مستعيناً بالله فإنّه نعم النصير ، يقول الشاعر في ذلك[1]:

أنَعْمَى عَن مَراشِدِنا جَميعاً | وما إن منهم إلا بصيرُ
ونَلقَى واحداً ويفرُّ جَمْعٌ | كما عن قانصٍ فرّت حميرٌ
ولو أنّا ثبتنا كان خيراً | ولكن ما لنا كرمٌ وخيرُ
إذا لم يكن صَبرٌ جميلٌ | فليس بنافع عددٌ كثيرُ

---

[1] المقري – النفح، ج٤، ص٤٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلا رجـــــلٌ لـــــه رأيٌ أصيـــــلُ ... بـــه ممـــا نُحـــاذِرُ نَسْـــتجيرُ
يكـــــرّ إذا الســـــيوف تناولَتْـــــهُ ... وأيْـــنَ بنـــا إذا ولّـــت كـــرورُ
ويطعـــن بالقنـــا الخَطّـــار حتـــى ... يقـول الرّمـح مـا هـذا الخطـيرُ
عظيـــمٌ أن يكـــون النـــاسُ طُـــرّاً ... بـــأندلسٍ قتيـــلٌ أو أســـيرُ
أذكـــر بـــالقراع الليـــث حرصـــاً ... علـى أن يقـرع البَيْـضَ الذكـورُ
يبـــادرُ خَرْقَـــها قبـــلَ اتســـاع ... لخطـبٍ مِنْـهُ تنخسـفُ البـدورُ
يوسّـــع للـــذي يلقـــاهُ صـــدراً ... فقـد ضـاقت بمـا تلقـى صـدورٌ
تنغّصـــت الحيـــاةُ فـــلا حيـــاةٌ ... وودع جـيرة إذ لا مجـيرُ
فليـــلٌ فيـــهِ هـــمٌ مســـتكنٌ ... ويـومٌ فيـه شـرٌ مسـتطيرٌ
ونرجـــو أن يتيـــح الله نصـــراً ... عليـهم، إنّـه نعـم النصـيرُ

من يقرأ هذه القصيدة يلحظ بوضوح أنّ جلّ الرثـاء والنـدب كـان للإسـلام، ولحـال المسلمين في طليطلة، وإن عرّج الشاعر على المدينة في بعض الأبيات فتناول مسـاجدها ومـا لحق بها من تدمير وتحويل إلى كنائس.

ولا نجد في هذه القصيدة ذكراً لفعل الزمان أو الأقدار أو تصويراً يعكس مقابلة بين حـال المدينة وما كانت تمتاز به قبل الفاجعة وما لحق بها من دمار وخسائر بعدها، كما هو الحال فـي قصائد رثاء المدن التي عرضنا لها. ولعلّ ذلك يعود إلى أن المدينة لم تفقد جمالها المعماري ولـم تصبح أطلالاً خربة، بل أنّها استحقّت الرثاء لسقوطها في يد الأعـداء وخروجـها مـن الحكـم الإسلامي، على الرّغم من بقاء معظم سكانها فيها. فالشاعر يرثي ما جرى علـى المدينـة مـن تحوّل لصالح الأعداء.

وهذا التحوّل يشمل بعض الرموز المعماريّة مثل المسجد ويمتدّ ليحيط بما جلبته الهزيمـة من تحوّل في نفوس سكان المدينة.

إن المدينة تشمل المكان وما يحويه من سكان وأشكال مختلفة لحضارتهم المتشكّلة فيـه، فالمدينة كالجسد روحه من سكنه. ومصاب الجسد عذاب للروح، وموت الجسد يعني الفراق بينـه وبين الروح وهو يعني دمار المدينة ورحيل من سكنها وحديث الشاعر عن أهـل المدينـة هـو تناول للمدينة من محور أساسي فيها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد كان تقريع الشعراء لأهل المدينة وكشفهم لمواطن الضعف، يعكس رغبة عنيفة بالمواجهة لذلك التقصير والتغلّب عليه، وإن ظهر القول بثياب من الحسرة واليأس والرثاء.

إنّ مصاب طليطلة ترك أثراً بالغاً في نفوس أهل الأندلس، وكان نذير شؤمٍ أحاط ببعض النفوس، يقول عبدالله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسّال[١] لما أخذت طليطلة:[٢]

يَـــا أهْـــلَ أندَلُـــسٍ حُثّـــوا مَطِيَّكُـــم ... فَمـــا المُقَـــامُ بِـــهَا إلاّ مِـــنَ الغَلَـــطِ
الثّـــوبُ يَنْسِـــلُ مِـــن أطْرَافِـــهِ وَأرَى ... ثَوْبَ الجَزِيْرَةِ مَنْسُـــولاً مِـــنَ الوَسَـــطِ
ونَحْـــنُ بَيـــن عَـــدُوٍّ لا يُفارِقُنَـــا ... كَيْفَ الحَيَاةُ مَع الحَيَّـــاتِ فـــي سَـــفطِ

ويروى صدر البيت الثالث هكذا.

مـــن جـــاورَ الشـــرّ لا يـــأمَنْ بوائقَـــهُ ... كيف الحياة مع الحيّـــات فـــي ســـفطِ

يحذّر ابن العسّال في هذه الأبيات من عاقبة الأمر، ويقرّع بصوت يتجاوز حدود طليطلة ليعمّ المدن الأندلسية، فمدينة طليطلة هي مسقط رأسه، ومصابها أعظم من أن يحتمل، وإذا كان ابن العسّال قد واجه سقوط مدينة (برابشتر) بنبرة حادّة ناقداً ومقرّعاً، فلا غرابة أن تنطلق حنجرته مزمجرة غاضبة ثائرة لما لحق بمدينته، وقد أشار د. إحسان عبّاس إلى هذه الأبيات بقوله[٣]: (إنّ هذا اللون السلبي من التعبير عن الحقيقة كان يومئذٍ مبالغة في التنبيه والتذكير). إذ تضع مثل هذه الأبيات جميع المدن الأندلسية على خطوط المواجهة معاً فالعدو واحد والمصير واحد وإن اختلف زمان سقوط المدينة فتقدّم أو تأخّر عن غيرها من المدن الأندلسية

وقد صدق ابن العسّال فيما أشار إليه، إذ تكالبت المصائب على أهل الأندلس، وتمكّن النصارى من الاستيلاء على مدينة بلنسية، وعاثوا فيها. يقول ابن خفاجة حينئذٍ:[٤]

---

[١] ابن العسال: الفقيه الزاهد أبو محمد عبدالله ابن فرج بن غزلون اليحصبي، المعروف بابن العسال، شاعر مفلق، توفي سنة ٤٨٧هـ. انظر في ترجمته ؛ المغرب، ج٢، ص١٨-١٩ ؛ النفح، ج٤، ص٣٥٢.

[٢] المقرّي ؛ النفح، ج٤، ص٣٥٢؛ ابن سعيد – المغرب، ج٢، ص٢١؛ رايات المبرزين، ص٧٩؛ أزهار الرياض، ج١، ص٤٦.

[٣] إحسان عبّاس – تاريخ الأدب الأندلسي، ص١٨٣.

[٤] ابن خفاجة – الديوان، ص٣٥٤؛ الذخيرة، ج٣، ص٦٢؛ النفح، ج٤، ص٤٥٥، الروض المعطار، ص٩٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عَـــاثَتْ بِسَـــاحَتِكِ العِـــدَى يَـــــا دَارُ وَمَحَـــا محاسِـــنَكِ البِلَـــى والنَّـــارُ
وإذا تَـــرَدَّدَ فِـــي جَنَـــابِكِ نَـــــاظِرٌ طَـــالَ اعتِبَـــارٌ فِيـــكِ واسْـــتِعْبَارُ
أرْضٌ تَقَـــاذَفَتِ الخُطُـــــوبُ بِأهْلِـــــها وَتَمَخَّضَـــتْ بِخَرَابِـــها الأقْـــدَارُ
كَتَبَـتْ يَـدُ الحَدَثَـــانِ فِـــي عَرَصَاتِـــهَا "لا أنْـتِ أنْـتِ وَلا الدِّيَـارُ دِيَـارُ"(١)

لقد جاءت هذه المقطوعة الشعرية في وصف حال مدينة بلنسية بعد إحراقها وتدميرهـا على يد النصارى، وكان ذلك عند خروجهم منها سنة خمس وتسعين وأربعمائة.

وقائل هذه المقطوعة هو ابن خفاجة ذلك الشاعر الذي عشق الأندلس فجعل من قصائده لوحات وصف وغزل لمعشوقته الفاتنة وأبدع في رسمه لطبيعتها الخلابة مبرزاً حسنها وجمالها، وهو يقف بعد تلك الفاجعة مذهولاً لما تراه عيناه، فقد تبدلّت الأحوال، فما عادت الديار هي الديار، وها هو شاعر الطبيعة (ابن خفاجة) يقف على أعتاب المدينة مجملاً بعد أن كان لحسنها مفصلاً.

وهذا الاختصار الشديد من ابن خفاجة يثير الدهشة في نفس المتلقي وقد قدّر د. إحسان عبّاس أن تكون قصيدة ابن خفاجة أكثر أبياتاً مما هي عليه وذلك لأنّ " بلنسية كانت جزءاً من معاهد الشاعر، وأمّ وطنه "شقر" فلا بدّ أن يكون ضياع بلنسية قد حزّ في نفسه ".(٢)

وعلى الرغم من فداحة المصاب إلاّ أنّ العثور على قصائد تندب مدينة بنلسية وترثي لحالها بات عسيراً، فباستثناء مقطوعة ابن خفاجة لا يكاد يعثر الباحث إلا على مقطوعة صغيرة قيلت في أعقاب الفاجعة، يقول فيها عبدالله محمد بن خلصة البلنسي:(٣)

وَرَوْضَـــةٍ زُرتَـــها للأنْـــسِ مُبْتَغِيـــاً فَأوحَشَـــتْني لذِكْـرَى سَـادةٍ هلكـــوا
تغـيّرت بَعْدهـــم حُزنـــاً وحَـــقّ لَـــها مكـان نُوارهـا أنْ ينبـت الحسـك(٤)
لـــو أنّـــهَا نَطَقَـــتْ قـــالت لفقدهُـــم "بان الخليطُ ولم يأووا لمـن تركـوا"(٥)

(١) تضمين من أبي تمام.
لا أنْتَ أنْتَ ولا الدّيار دِيارُ خفّ الهَوَى وَتَولّتِ الأوطَارُ
انظر: شرح ديوان أبي تمام – الخطيب التبريزي، ط١، دار الكتاب العربي – بيروت ١٩٩٢، ص٣١٧.
(٢) إحسان عباس – تاريخ الأدب الأندلسي، ص١٨٦.
(٣) الروض المعطار، ص٩٧.
(٤) الحسك: نبات له ثمرة خشنة تَعْلَق بأصواف الغنم واحدته حسكة.
(٥) تضمين من زهير، وعجز البيت "وزودوك اشتياقاً أية سلكوا". الديوان – ص .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي هذه المقطوعة ندب ورثاء لأهل المكان، إذ اتخذ ابن خلصة البلنسي من حلوله في تلك الروضة محفّزاً لإحياء ذكرى من سكنها في الماضي، ومن الملاحظ أنّ الشاعر يلبس المكان ثوباً من الوفاء لمن سكنه، فابن خلصة ينطق في هذه المقطوعة بلسان المكان معبّراً عن حزنٍ لا ينقطع وحنينٍ موجّه من المكان إلى أهله الذين ارتحلوا عنه وتشتتوا بعد الفاجعة.

• رثاء الدول الزائلة:

كان الشاعر يرثي المدينة وسكانها إذا ما ألمّت بها فاجعة ألحقت الدّمار بمبانيها أو خربّت عمارتها أو بدّلت حال أهلها إلى الذلّ والشتات، أو كان مصيرهم التقتيل. وامتدّ الرّثاء ليشمل ما قد يلحق المدينة من تغيّر إذ ما تبدّل حاكمها وزالت مملكته. فالحاكم الذي تمثّل قوّة جذب للشعراء فأحاطوا به وخلدوا مبانيه وقصوره في شعر الوصف. استحقّ أن يبقى محوراً للقصائد حتى في موضوع الرثاء ومن أكثر الحكّام الشعراء الذين تركت نكبتهم بفقد الملك أثراً في شعر الرثاء المعتمد بن عبّاد الذي قال متحدّثاً بلسان قصوره "لمّا تذكّر منازله فشاقته، وتصوّر بهجتها فراقته، وتخيّل استيحاش أوطانه، وإجهاش قصره إلى قطّانه، وإظلام جوّه من أقماره، وخلوّه من حُرّاسه وسماره"[١] فقال:[٢]

بكى المُبَارِكُ في إثْرِ ابنِ عَبّادِ ... بَكَى عَلى أثَرْ غزلانٍ وآسَادِ
بَكَتْ ثُرَيّاهُ لا غُمّتْ كَواكبُهَا ... بِمثْلِ نَوْءِ الثّريّا الرّائحِ الغَادي
بَكَى الوَحيْدُ، بَكى الزّاهي وقُبّتُهُ ... والنّهرُ، والتّاجُ كُلّ ذُلّه بَادي
مَاءُ السماءِ علَى أفيائِهِ دِرَرٌ ... يا لُجّةَ البَحْرِ دُومي ذَاتَ إزبادِ

يظهر في شعر المعتمد اتجاه معاكس لما تمّ عرضه من رثاء للمدن الأندلسية، فقد جعل من المدينة بما حوته من أمكنة عزيزة على نفسه ذكر منها: المبارك، والثريّا، والوحيد، والزاهي، كلّ تلك القصور تبكي في أثر المعتمد بن عبّاد، وحتى القبّة والنهر، جعلهما لسان ندب لعهده المنصرم.

---

[١] المعتمد بن عبّاد – الديوان، ص١٦١؛ المقري – النفح، ج٤، ص٢٧٤.

[٢] المقري – النفح، ج٤، ص٢٧٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فبعد أن كان الشاعر الأندلسي يبكي لفقد تلك الأمكنة ويرثي لمصابها ظهر الشاعر (الحاكم) محوراً للرثاء، يرثي لحاله على لسان المدينة التي كانت ملكاً له. فالموت قد لحق بعهده في المدينة. وقد تردّد في شعر المعتمد هذا الشكل من الرثاء على لسان المكان الذي يندب حاكمه، وقد جاء ذلك في شعر للمعتمد قاله في رثاء مصاب حاكم آخر. ومن ذلك "أنّ المعتمد بعد أن "أمر وزيره أبا بكر بن عمّار أن يطلق سراح ابن طاهر عند استلائه على مرسية (٤٧١هـ)، ولكن ابن عمّار لم يفعل، فتمكّن ابن طاهر من الفرار بمساعدة ابن عبدالعزيز صاحب بلنسية فملك الغضب ابن عمّار، ونظم قصيدة يحض فيها أهل بلنسية على الوثوب بابن عبد العزيز مطلعها:

خبّر بلنسية، وكانت جنّة ... أن قد تدلّت في سواء النار

وعلم المعتمد بالأمر، وبلغته قصيدة ابن عمّار، فغضب عليه؛ لأنّ ابن عبدالعزيز كان صديقاً له فقال المعتمد:[1]

تَبْكي عليهم شَنبوس بعَبرَة ... كأيَتيها المُتَدافع التَيار
يَبْكي لَهَا القَصْرُ المُنيفُ تلألأتْ ... شُرفَاتُه في خُضْرة الأشْجَار
ما ضاحَكَتْه الشّمس إلا خِلْتَه ... نُضَحَتْ جَوَانِبُهُ بِمَاء نُضَار
تبكي القِيَانُ تَجَاوبَت أوتارُها ... في سَاحتَيه تَجَاوُب الأطْيَار
يا شمسَ ذاكَ القَصْرِ كَيفَ تخلّصت ... فيه إليْك طَوَارقُ الأقْدار[2]
لَمّا تَنَلْك شُعُوبٌ جاورَت ... غُلْبُ الرّجال وَسَامِيَ الأوْسَار
كَمَا كَانَ مِن أُسْدِ هنالك خادرٍ ... لكَ حارسٍ بأسنّةٍ وشِفارِ

لقد رأى المعتمد أن المدينة والقصر أحقّ بالبكاء على حاكمها الراحل، لعمق العلاقة التي تربط بين المكان وصاحبه. والمعتمد في اختياره للقصور يؤكّد على أنّ ذلك الرّمز المعماري المحتوي لمعاني السيادة، ينهار إذا ما فقد مضامينه وإن بقيت عمارته.

---

(١) المعتمد بن عبّاد – الديوان، ص١٤١-١٤٢؛ الحلّة السيراء، ج٢، ص١٥٥.

(٢) جاء في الحلة، يريد بشمس: أم ابن عمّار.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لا بدّ من التنويه إلى أنّ حاكم المدينة يمثّلها، فإن تبدّل الحاكم فذلك مؤذن بتبدّل الأحوال في المدينة، وهذا التبدّل والتحوّل قد يتمثّل لمن ارتبط بذلك الحاكم فاجعة عظيمة تدفع الشاعر للندب والبكاء على عهد ذلك الحاكم.

والمعتمد بن عبّاد شاعر رثى مصابه على لسان مدينته، ورثى دولته الزائلة بعض من ارتبط به من الشعراء، يقول ابن اللبّانة حين زاره في أغمات:[1]

رَاحَ الحَيَا وَغَدا مِنهُم بِمَنْزِلَةٍ ... كَانَتْ لَنَا بُكَر فيها وَرَوحَاتُ
أرْضٌ كَأنّ عَلَى أقْطَارِها سُرُجاً ... قَدْ أوقَدَتهُنّ في الأذْهَانِ أنْبَاتُ
وَفَوقَ شَاطِئ وادِيها رِيَاضُ رُبَى ... قَدْ ظَلّلَتها مِنَ الأنسامِ دَوْحَاتُ
كَأنّ وَادِيها سِلْكٌ بِلَبّتِها ... وَغايَةُ الحُسْنِ أسْلاكٌ وَلَبّاتُ
نَهْرٌ شَرِبْتُ بِعَبْرَتِهِ عَلَى صُوَرٍ ... كانَتْ لها فيّ قَبْلَ الرّاحِ سوراتُ[2]
وكُنْتُ أُورِقُ في أيْكاتِهِ ورقاً ... تهوي ولي من قريض الشّعر أصْوَاتُ
وكَمْ جريت بشطي ضِفّتيهِ إلى ... مَحاسِنٍ لِلهوى فيهِنّ وَقفاتُ
وربما كُنْتُ أسمو للخليج به ... وفي الخليج لأهل الراح راحاتُ
وبالغَروسَاتِ لا جفّت مَنابِتُها ... مِن النّعيم غروساتٌ جنياتُ
مَعَاهِدُ لَيْتَ أنّي قَبْلَ فُرقَتِها ... قَدْ مِتّ، ولِتارِكوها لَيْتَهم مَاتوا

لقد كان فقد الحاكم لملكه يحمل معنى الموت للمجد بكل أبعاده معنى زوال عند بعض الشعراء الذين جمعتهم علاقات قويّة بذلك الحاكم، وليس أدلّ على هذا القول من موقف ابن اللبّانة الذي كان يظهر من الولاء للمعتمد ودولته ما يقوده إلى الارتباط بكل مكان يحلّه ممدوحه ارتباطه بالمدينة نفسها، فالمعتمد هو الذي يمنح المكان أهميّته فيما يدور حوله من شعر، يقول ابن اللبّانة وقد وقف على قبر المعتمد:[3]

مَلِكَ المُلوكِ أسَامِعٌ فأُنادي ... أما قَدْ عَداك عَنِ الجَوابِ عَوادِ
لَمّا خلت مِنْك القُصور ولَم تَكُن ... فيها كَمَا قَد كُنْتَ في الأعيادِ

---

[1] ابن اللبّانة – الديوان، ص٢٦؛ المقري – النفح، ج٤، ص٢٢٢-٢٢٣.

[2] سورات: جمع سَوْرَة وسَوْرة الخمر: حِدّتها. انظر (سور) اللسان.

[3] نهاية الارب في فنون الأدب، ج٢٣. الباب الخامس، القسم ٥، من الفن الخامس، ص٤٦٤ ؛ ابن اللبّانة، شعر ابن اللبّانة: ص

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قبِلْتَ فــي هَــذا الــثّرى لَــــك خاضعـــاً ... وتخِــذتُ قــبرك مَوْضِــعَ الإنشـــادِ

وقد أشاع ذلك الصمت والإقفار من هيبة الملك في القصور المعتمديّة بعد رحيله بواعث الرثاء والندب.

لقد أشار ابن اللبّانة إلى حال القصور بعد أن أقفرت من أصحابها، فرثى لما حلّ بها من مصاب أفقدها عزّها ومجدها ومثل هذا نجده في قوله سنة ٤٨٦هـ:(١)

حَبيـــبٌ إلــــى قَلْبــــي حَبيـــبٌ لِقَولِــــه ... عَسَـــى طَلَـلٌ يَدْنــو بِــهم ولعلّمـــا
صَباحُـــهُمْ كنّـــا بِــــهِ نَحْمَـــدُ السُّـــرى ... فَلمّا عَدِمْنَـــاهُم سَــرَيْنا علَـــى عَمَـــى
وكُنّـــا رَعَيْنـــا العِـــزّ حَـــولَ حِمـــاهُمُ ... فَقَدْ أجْدَبَ المَرْعى وقَد أقْفَـــرَ الحِمَـــى
قُصـــورٌ خَلَــتْ مِــن سَــاكِنِيها فَمـــا بِـــها ... سِوى الأدْمِ تَمشي حَولَ وَاقِفة الدُّمَـــى
يُجيـــبُ بَــها الـــهامُ الصَّـــدى ولَطَالمـــا ... أجـــابَ القِيـــانُ الطـــائرَ المترنّمـــا
كَـــأن لَـــم يَكــن فيـــها أنيـــسٌ ولا التَقَـــى ... بِها الوفدُ جَمْعا والخَميـــسُ عَرَمْرَمَـــا
حَكَيْـــتُ وقَـــد فَـــارقْتُ مُلكَـــك مَالِكـــاً ... ومِن ولَـــهي أحْكـــي عَلَيـــك متمّمـــا
مُصـــابٌ هَـــوى بِـــالنيّرات مِـــــن العُـــلا ... ولَم يُبق فـــي أرضِ المَكـــارمِ معلَمـــا
تَضيـــقُ علَــــيَّ الأرضُ حَتّــــى كَأنّمـــا ... خُلقـــتُ وإيّاهَـــا سِـــواراً ومِعْصَمـــا

إنّ المكان قد فقد خصبه بعد زوال الحاكم، إذ وصف ابن اللبّانة ما حلّ بالقصور من موت بعد أن كانت تشعّ بأشكال الحياة المترفة، فتبدّل الحال فكأنّ ما شهده ابن اللبّانة فيها، لم يكن.

ومن القصائد الشهيرة التي عرضت لزوال الأسر الحاكمة قصيدة "البسّامة"(٢) لأبي محمد ابن عبدون، وقد ندب فيها بني الأفطس. ومطلعها:

الدّهـــرُ يَفْجَـــعُ بَعْـــدَ العَيْـــنِ بـــالأثَرِ ... فمَا البُكاءُ علـــى الأشْـــباحِ والصُـــوَرِ

---

(١) المقري – النّفح، ج٤، ص٢٥٧-٢٥٨ ؛ شعر ابن اللبّانة، ص٨٨-٩٠.

(٢) المعجب في تلخيص أخبار أهل الأندلس، ص٧٦-٨٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد ارتدى ابن عبدون ثوب الوفاء، فكان رثاء بني الأفطس تخليداً لمآثرهم وحِفظاً لما أزالته يدِ الدّهر التي سطت على كلّ من سبقهم.

إنّ سقوط الأسر الحاكمة يمثّل منعطفاً قويّاً، ترك آثاره الواضحة في نفوس أهل المدينة، لا سيّما الشّعراء الذين ارتبطوا بتلك الأُسر، فتدافعت عواطفهم، أمام الحادث الجلل وتدفقت العبرات في قصائدهم التي ترثي مصابهم العظيم. ومثّل هذا الرثاء يحمل بُعداً فكرياً وعاطفياً، إذ يُثبت أنّ الكثير مما قيل في شعر المدن وصفاً أو رثاءً، قد تجاوز في عمقه ما يذكره البعض من سعيٍ لشعراء هذا العصر خلف رضا الحاكم المسيطر، فقد وصل بعض الشعراء إلى أعلى درجات الانتماء والارتباط بالحاكم ودولته.

وهكذا يمضي فصل الرثاء ليعكس عمق تلك العلاقة القائمة بين المدينة وسكّانها لا سيّما الشعراء منهم الذين كان بثّهم مؤشّراً جيداً عمّا رافق تلك النكبات المتعاقبة على الأرض الأندلسيّة من عوامل نفسيّة، كان لها أثرها في ردود الأفعال والنتائج.

لقد جاء تجاوب القصيدة الأندلسيّة – في عصر ملوك الطوائف – مع مصاب المدن بعمارتها وأهلها وحكّامها بصورةٍ تفوق ما قدّمته قصيدة رثاء المدن عبر العصور السابقة، إذ تمثّل نتاج شعراء هذا العصر بالغزارة وعمق العاطفة، وإذا جاءت بعض القصائد بنبرة تصدر عن نفوس مسلوبة الإرادة تشيع عجزها آهاتٍ وحسرات، فإنّ تردّد صرخات الرفض والاستنهاض التي حثّت على الاعتبار ومعالجة أسباب الهزيمة والتأهّب لمواجهة داعي الخراب احتلّت حيّزاً يميّزها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الرابع

الدراسة الفنية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الدراسة الفنية

- **اللغة والأسلوب:**

اللغة ظاهرة اجتماعية ينفرد بها الإنسان دون غيره من المخلوقات، وتتمثّل اجتماعيّتها في كونها تتوسّط النشاط الاجتماعي للإنسان، فهي أداته التي يتوسّلها في التفاهم مع أعضاء مجتمعه الآخرين.

وإذا كانت اللغة في إطارها العام تهدف إلى التواصل، فإنّ لها وظائف كثيرة تتأدى لها على أنحاءٍ متفاوتة، فهي وسيلة المبدعين في رغبتهم الأكيدة لإعادة تشكيل العالم وفق رؤى فكريّة ونفسيّة متعددة.

ولعلّ أهم ما تتميّز به اللغة ثراؤها المعجمي وتنوّعها الأسلوبي وقدرتها على التعبير عن معانٍ كثيرة بألفاظ قليلة تكثّف من خلالها العديد من المضامين والإيحاءات.

وتطرح اللغة نفسها أمام المبدعين والشعراء فتقدّم لهم خيارات لغوية وأبنية تركيبية ومفردات معجميّة تبعاً لما يمتلكه المبدع من إمكانات معرفية تتيح له اختيار ما يتناسب مع غرضه الذي يطمح إلى تحقيقه.

ومن هنا تبرز قدرات الشاعر تبعاً لغزارة روافده المعرفية وقدراته الانتقائية بما يتناسب والموضوع، ليتفاوت الشعراء في كيفية رسمهم للوحة الشعرية وبنائها.

وهذه المهارات تكشف عن ملامح أسلوبية عامة تسم الشاعر، إذ أنّ الأسلوب الجيّد المصقول هو الأقدر على تبليغ الشعراء ذروة الإجادة في الطرح الذي ينمّ عن شخصية صاحبه وقدراته على التفاعل مع المحيط تأثّراً وتأثيراً.

وحين ينظم الشاعر قصيدته يتراءى أمامه مجموعة من الألفاظ والمترادفات، فيختار بحسّه وموهبته منها ما يتناسب ومعجمه الشعري ضمن الموضوع المطروح الذي ينظم فيه. فلكلّ موضوع لغة خاصة به وألفاظ يكثر ترددها فيه، وقلّما ترتبط بغيره من المواضيع بعيدة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصلة. وقد أدرك الشاعر الأندلسي عمق الأثر الذي يتركه معجمه اللفظي في نتاجه الشـــعري، فجعل من الألفاظ والمعاني مداراً لاهتمامه، فاستأثرت بعنايته وجهوده.

وتبعاً لهذا القول فإنّ المتلقّي لشعر المدن في القرن الخامس الهجري يجد تفاوتاً واضحـاً في الأسلوب بين الشعراء، إذ لم يحافظ الشعراء على مستوىً واحدٍ من الإجادة والرصانة. فلكـل شاعر طريقة يؤدّي بها أفكاره ومشاعره المرتبطة بالمدينة تبعاً لما توافر لديه من إمكانات فـــي معطياته الثقافية التي يستمدّها من واقع المدينة وروافده الثقافية المختلفة.

- **<u>روافد الشعر الذي قيل في تصوير المدن الاندلسية :</u>**

هناك ظواهر أسلوبية ولغوية عامّة تلقي ظلالها علىالشعر الذي تناول المدن الأندلسـيّة، وتعكس الروافد الثقافية المشتركة بين شعراء هذا العصر والتفاوت الأسلوبي في توظيفها.

ولتتبّع الناحية الأسلوبية في ما قيل من شعر في هذا الموضوع ، لا بدّ من إلقاء الضـــوء على أهم الروافد التي تسهم في إخراج العمل الأدبي من خلال استقراء النصوص التـــي تتطـق بالمحتوى الفكري لصاحبها، إذ تشير إلى ما لديها من مخزون فكري تراكمي يستمدّه من تجاربـه الذاتية عبر المراحل السنيّة المختلفة، وممّا وصله من ثقافاتٍ مختلفةٍ دينية، وأدبيّـة، وتاريخيّـة، ولغوية.

فالقصيدة تعبّر عن ذلك المزيج القابع في أعماق نفس الشاعر الذي يتجاوز به العديد مـن قيود الواقع، ليخضعه لانتقائيّة تعكس نظرة خاصة فريدة لا يمكن تكرارها.

ومن أهم الروافد التي يستقي منها شعراء الأندلس أسلوبهم ولغتهم:

١. **<u>الموروث الديني:</u>**

يشكّل الموروث الديني الجزء الأعظم من شخصيّة الشاعر الأندلسي، إذ كـــان الإســلام حجر الأساس الذي قامت عليه المدن الأندلسيّة، والشخصية الأندلسيّة، وهو بمثابة حصن يحمـــي أهل الأندلس، ويمنحهم قوّة ذاتية في مواجهة أعداء الدين بعد أن شطّ بهم المكان، وتوّعرت سـبل الاتصال بمدن الشرق الإسلامية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد برز أثر الموروث الديني جليّاً في شعر المدن الأندلسيّة وصفاً ورثاءً وحنيناً، من خلال تأثر الشعراء بما يلي:

أ. القرآن الكريم:

أفاد شعراء الأندلس من أسلوب القرآن الكريم ولغته بما يتناسب والموضوع. ففي موضوع رثاء المدن -مثلاً- تنوّعت طرق الاقتباس عند الشعراء، إذ اقتبس بعض الشعراء من ألفاظ الذكر الحكيم ومعانيه ما يمكن أن يتوسّل به لتبليغ المعنى إلى جانب حُسن الأداء الذي يزيد من فضل أسلوب الشاعر ووقعه في نفس المتلقّي. يقول أبو إسحاق الإلبيري في رثاء مدينة إلبيرة:[١]

وأنْ قَدْ قَسَتْ أكبادُكُمْ وقُلوبُكُمْ ... وما فيكُمُ داعٍ إلى الله راغِبُ

ولعلّ الإلبيري قد اقتبس هذه الألفاظ من قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ ولا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُون** ﴾.[٢]

لعلّ إيراد الإلبيري لبعض ألفاظ هذه الآية القرآنية هو بمثابة استشهاد بما جاء في كتاب الله لاثبات استحقاق أهل المدينة الأندلسيّة لما حلّ بهم، وتوظيف هذه الألفاظ دون غيرها يدلّ على عمق نظرة الإلبيري الذي انتقى من قوله تعالى " قست قلوبهم " وقسوة القلب ممّا قد يرافق طبيعة الحياة المدنيّة، إذ يصيب أهلها أسباب التنعّم، ورغد العيش، فيشغلهم ذلك عن ذكر الله، ومثل هذا الاقتباس يضع المتلقّي من أهل المدينة الذي يلمّ بأسباب نزول هذه الآية القرآنية في موضع المعاتب على تقصيره، فقد جاء في سبب نزول هذه الآية القرآنية أنّ المؤمنين حين قدموا المدينة المنوّرة "وأصابوا من لين العيش ورفاهيته، فتروا عن بعض ما كانوا عليه،

---

[١] أبو إسحاق الإلبيري - الديوان، ص٨٣.

[٢] الحديد، آية ١٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فعوتبوا ونزلت هذه الآية[١]، ومن هنا يبدو لنا أنّ الإلبيري قد أصاب لبّ القول وغايته بما اقتبسه من القرآن الكريم من لفظٍ كثّف فيه العديد من المعاني.

ومن هذا القبيل في المضمون وإن اختلف في طريقة الاقتباس قول الشاعر:[٢]

وَفي سُورَةِ الحَشْرِ آياتٌ مُفَصّلَةٌ ... في شَأنِكُمْ أُنْزِلَتْ لَمْ تعْدُكُمْ أحَدَا
نَعَمْ وفي الكَهفِ في العِشْرينَ خَاتِمَةٌ ... تَقْضي عَلَيْكُم بِأنْ لا تَفْلَحوا أبَدَا

لقد اكتفى الشاعر بالإشارة إلى اسم السورة متخذاً من ذلك سبيلاً للتعبير عمّا في نفسه من مضامين، إذ يكثّف التفاصيل في لفظة واحدة يُفهم من خلالها مراد الشاعر، ومثل هذه الإشارة هي بمثابة إحالةٍ تحمل في طيّاتها معنى الحضّ على العودة إلى كتاب الله لمواجهة الواقع المرير، المتمثّل بالنفاق والخداع، وهي تؤكّد على أنّ القرآن الكريم هو السبيل إلى الخلاص.

وقد اقتبس الشعراء بعض ما جاء في القرآن الكريم من آياتٍ تصوّر المكان. يقول ابن حزم في رثاء قرطبة:[٣]

تَرَاهَا كَأنْ لَمْ تَغْنَ بِالأمْسِ بَلْقَعا ... ولا عُمِّرَتْ مِنْ أهْلِها قَبْلَنا دَهْرا

لقد اقتبس ابن حزم "لم تغنَ بالأمس" من قوله تعالى في سورة يونس: **﴿... حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيْداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾**.[٤]

لقد وظّف ابن حزم هذه الآيةَ التي جاءت في وصف زوال الحياة الدنيا وقِصر مدّة التمتّع بها للتعبير عمّا يكتنف مدينة قرطبة من زوال بعد أن ظنّ أهلها أنّهم قد أمنوا تغيّرها، ومثل هذا

---

[١] عبدالحق بن عطية الاندلسي – المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ط١، تحقيق السيد عبدالعال، ١٩٩١ . ج١٤،ص٣٠٨.
[٢] ابن عذارى – البيان المغرب، ج٣، ص١١٠
[٣] لسان الدين – أعمال الاعلام، ص ١٠٦
[٤] يونس، آية ٢٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الاقتباس يغوص بالمتلقّي الملمّ بآية الذكر وتفسيرها إلى عمق لفظي ومعنوي يتجاوز ظاهر القصيدة.

لقد أجاد شعراء الأندلس في اقتباس الآيات القرآنية التي تتلاءم مع موضوع رثاء المدن وأصابوا فيما اقتبسوا من آياتٍ في شعر الوصف والحنين.

وإذا كان الشاعر الأندلسي يحلّق نحو الارتقاء بالمدينة الموصوفة إلى أعلى صور الكمال فلا بدّ من أن يفيد ممّا جاء في كتاب الله من ذكرٍ للأمكنة، ولعلّ أوّل مكانٍ يتبادر إلى الأذهان الطامحة نحو نماذج الحسن يتمثّل بما جاء في وصف الجنّة التي هي بمثابة نموذج الكمال المكاني.

فقد سعى شعراء هذا العصر للوصول إليها في وصفهم للمدن الأندلسيّة، فاقتبسوا من كتاب الله العديد من الألفاظ والمعاني والصور التي تحقّق لهم غايتهم. يقول خلف بن فرج الإلبيري المعروف بابن السّميسر:[١]

بَلَنسِيَةٌ جَنَّةٌ عَالِيَه ظِلالُ القُطُوفِ بِهَا دَانِيَهْ
عُيونِ الرَحيقِ مَعْ السَلْسَبيـلِ وعَيْنُ الحَياةِ بِها جارِيَة

وفي هذه الأبيات نرى ابن السميسر قد اقتبس آيتين من القرآن الكريم، من قوله تعالى: ﴿ **فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ** ﴾[٢]، بالإضافة لاقتباس لفظة " السلسبيل " وهو بذلك يجمع بين أكثر من آية قرآنية، وفي كل آية يعتمد شكلاً من أشكال الاقتباس.

هذا وقد اقتبس الشعراء بعض الآيات القرآنية لوصف القصور، ومن ذلك قول في وصف قصر الجعفري:[٣]

ونَرَى نَمارِقَ[٤] صُوِّرتْ مصفوفة مَوشِيّةَ الأقْطارِ والأرْجاءُ
أرْضٌ دَحاهَا حُسْنُها مِن سُنْدُسٍ متهلّل كَالرّوضَةِ الغَنّاءُ

---

[١] معجم البلدان، ج١، ص٤٩١.

[٢] سورة الحاقّة آية ٢٢ + ٢٣.

[٣] روضة المحاسن، ص٨٥.

[٤] نمارق: الوسائد يتكأ عليها اللسان (نمرق).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي هذين البيتين اقتباس من قوله تعالى: ﴿ **وَنَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ** ﴾[١]، ولعله اقتبس " أرْض دحاها " من قوله تعالى: ﴿ **والأرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا** ﴾[٢]. وإذا ما تتبعنا ما في البيت الثاني من ألفاظ وجدناها لا تخرج عن الموضوع، فلفظ السندس ممّا جاء في كتابه تعالى في صفة الجنّة.[٣]

ومن أشكال الاقتباس ما جاء في شعر المدن الأندلسيّة من اقتباس لقصص القرآن الكريم. يقول ابن الحدّاد:[٤]

بِلادٌ غَدَتْ يأجوجُ فيها فَأفسَدَتْ ... فَكُنْتَ كذي القَرنَيْنِ والجَحْفَلُ السَّدُ

وفي قول ابن الحدّاد اقتباس من قصة قرآنية جاءت في ذكر يأجوج ومأجوج. يقول تعالى: ﴿ **قَالُوا يَا ذا القَرْنَيْنِ إنَّ يَأجُوجَ وَمَأجُوجَ مُفْسِدُونَ في الأرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أنْ تَجْعَلَ بَيْنَنا وبَيْنَهُمْ رَدْما** ﴾.[٥] فذكر ابن الحدّاد السدّ العظيم وهو (سدّ يأجوج ومأجوج الذي تتازع النّاس في بنائه).[٦]

وقد وظّف الشعراء في الأندلس ما جاء في القرآن الكريم من أماكن ذات قداسة في شعر المدن لتعظيمها وإسباغ ثوب من الوقار والقداسة عليها. يقول ابن حمديس:[٧]

مُقَدَّسَةٌ لَو أنّ مُوسَى كَلِيمَهُ ... مَشَى قُدُماً في أرْضِها خَلَعَ النَّعْلا

كَأنَّ سُلَيْمَانَ بن داودَ لم تُبَح ... مَخَافَتُه للجِنّ في شِيْده مَهْلا

---

[١] سورة الغاشية آية ١٥.

[٢] النازعات، آية ٣٠.

[٣] انظر سورة الكهف، آية ٣١.

[٤] ابن الحدّد - الديوان، ص٥٣.

[٥] سورة الكهف، آية ٩٥.

[٦] مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط١، تحقيق الأمير مهنّا، مؤسسة الأعلى للمطبوعات - بيروت، ١٩٩١. ج٢، ص٢٧١. انظر: زكريا بن محمد بن محمود القزويني - آثار البلاد وآثار العباد ، ط١ ، دار صادر بيروت. ص٥٩٦.

[٧] ابن حمديس - الديوان، ص٣٧٨-٣٧٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد اقتبس ابن الحدّاد في البيت الأول مضمون قصة موسى عليه السلام، ليربط بين الواد المقدّس وبين القصر الموصوف.

لقد أفاد ابن حمديس من الألفاظ والمعاني القرآنية وأعاد ترتيبها بطريقة تدور بالتقديس حول القصر، فقد اقتبسها من قوله تعالى: ﴿ **إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوى** ﴾.(١)

ولم يكتفِ ابن حمديس باقتباس قصة قرآنية واحدة في قصيدته، بل عمد إلى قصّة سيدنا سليمان الذي سخّر الله له الإنس والجنّ وجمع له النّبوة والملك، فكان ملكه يفوق الوصف، إلاّ أنّ هذا الملك العظيم يقع في قصيدة ابن حمديس بين ما عُجّل بناءه فلم يأخذ نصيبه من التأنّي في صنعه، إذ جعل الشاعر للقصر الموصوف درجة فضل على ما بناه الجنّ لسليمان عليه السلام.(٢)

وقد اقتبس الشعراء أسماء العديد من الأبنية التي جاء ذكرها في كتاب الله لوضعها في ميزان التفاضل مع المدينة، وتلقي مثل هذه الألفاظ صفة العظمة على المكان الموصوف. يقول الحُصَري:(٣)

فَتَحتَ مَعاقِلاً لو أبْصَروها ... لَقالوا أنْتَ لُقْمانُ بنُ عادِ
وفي سَرَقُسْطة لكَ دارُ مُلْكٍ ... زَرَيْتَ بها على ذاتِ العِمادِ(٤)

ونجد أنّ ذكر إرم ذات العماد يتكرّر في العديد من القصائد لتترك بصمات الإبداع المعماري من هلال وضع صورتها في مقابل ما شيّد في الأندلس. ومن قبيل هذا التوظيف لها قول الحُصَري من قصيدة للمعتمد بن عبّاد:(٥)

---

(١) سورة طه، آية ١٢.

(٢) انظر سورة النّمل، آية ٤٤.

(٣) الذخيرة، ج٤، ص١٥٨.

(٤) إرَما ذاتِ العمادِ: " بين صنعاء وحضرموت، من بناء شداد بن عاد وروي أنّ شداد بن عاد كان جبّاراً من الجبابرة، لما سمع بالجنّة، وما وعد الله فيه أولياءه من قصور الذهب والفضة والمساكن التي تجري تحتها الأنهار، والغرف التي فوقها غرف. قال: إنّي متّخذ في الأرض مدينة على صفة الجنّة، وجعل تراب المدينة من المسك والزعفران ". انظر: القزويني - آثار البلاد وآثار العباد، ص١٥-١٧.

(٥) ابن بسّام، الذخيرة، ج٤، ص١٥٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نَافَسَتْ بِقَصْرِهِم إرَمَا   فَكَأنّ أُمَيّةَ لَمْ تَشِدِ

أشار القرآن الكريم إلى إرم ذات العماد في العديد من السور القرآنية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ * الّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البِلادِ ﴾[1]. ولم يقف توظيف الشعراء على الألفاظ والمعاني، بل نجد أنّ الشاعر الأندلسي قد اقتبس بعض السمات الأسلوبيّة إلى جانب الألفاظ ومن ذلك ما جاء في قول أبي محمد بن الطلاء المهدوي على لسان مدن الأندلس:[2]

نَادَتْكَ هَيْتَ لَكَ البِلادُ بِأسْرِهَا   فتّح أسيرُكَ مَن يُنادي غلّق

وفي هذا البيت أورد المهدوي اسم فعل الأمر "هيت" بمعنى تعال وهلمّ وهو لفظ مستمد من قول امرأة العزيز ليوسف عليه السلام، اذ جاء في قوله تعالى: ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ... ﴾.[3]

وأفاد الشاعر من الأسلوب القصصي الذي يقوم على الحوار، بما يخدم موضوع النّص الشعري، وهذا التوظيف حسن لما له من أثر يعزّز من دور المدينة وفاعليتها في الأحداث، فهي التي تقدم وتنتقي، ومن هذا القبيل في اقتباس هذه الآية القرآنية في المعنى نفسه. قول ابن اللبّانة:[4]

تَرَاوِدُكَ الدّنيا إلى ذاتِ نَفْسِهَا   فلا دَولةَ إلاّ تُنادِيكَ: هَيْتَ لَكَ

واقتبس شعراء هذا القرن بعض أحكام القرآن الكريم في أشعارهم فجاءت على الغاية من الإقناع والتأثير في نفس المتلقي ومن ذلك قول ابن خفاجة:[5]

وَقَبّلْتُ رَسْمَ الدَّارِ حُبّاً لأهْلِهَا   وَمَنْ لَمْ يَجِدْ إلا صَعِيداً تَيمَّمَا

---

[1] الفجر، آية ٧ + ٨.

[2] الذخيرة، ج٤، ص٢١٦.

[3] يوسف، آية ٢٣.

[4] ابن اللبّانة – شعر ابن اللبانة ، ص٧٤.

[5] ابن خفاجة – الديوان، ص٢٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد ربط ابن خفاجة بين صورة من يسعى إلى لثم بقايا ديار الأحبة بصورة توحي بالسعي خلف الطهارة التي تتحقّق وإن فُقدت وسيلتها الحقيقية، فلكلّ شيء بديل يستعاض به، فجعل من حكم التيمّم برهاناً يثبت فيه شرعية تقبيله لآثار الديار بعد أن أقفرت من أهلها فمن لم يجد الماء فصعيداً طيباً.

ولعلّ في ما تقدّم من أمثلة ما يؤكّد على عمق الأثر الذي تركه القرآن الكريم في تشكيل أسلوب شعراء هذا العصر ولغتهم. لا سيما الآيات القرآنية والقصص ذات الصلة بموضوع المدن.

٢. الحديث النبوي:

لم يقتصر بروز الأثر الديني في شعر المدن الأندلسيّة على اعتماد القرآن الكريم رافداً بل أفادوا مما جاء في السنّة النبوية الشريفة – وخاصّة فيما يتعلّق بوصف الجنّة. يقول أبو جعفر بن مسعدة:[١]

هِيَ الفِردَوسُ فـي الدّنيا جَمَالاً   لسَاكِنِها مُكارِهـا البَعُوضُ

ولعلّ في هذا القول التي تكرّر استخدامه في شعر الأندلس تأثر واضح بقول الرسول صلى الله عليه وسلم:[٢] " **وحفّت الجنّة بالمكاره** ".

كما أفاد الشاعر من لفظة "الفردوس"[٣] ليكشف من خلالها سمات الكمال والجمال في المدينة الأندلسيّة، وعرّج على لفظة "المكاره" التي جاءت في الحديث النبوي ليتمكّن من توجيه نقده للمكان بأسلوب يحفظ للمدينة فضلها ولا يسلبها حسنها.

---

(١) القلائد، ج٢، ص٥٧٢ ؛ النفح، ج١، ص١٨٠.

(٢) جامع الترمذي، كتاب الجنّة، باب ما جاء في احتجاج الجنّة والنار، ط١، بإشراف ومراجعة الشيخ صالح بن عبدالعزيز بن محمد آل الشيخ، دار السلام، الرّياض، ١٩٩٩م، ص٥٨٢.

(٣) الفردوس: أواسط الجنّة، وأعلى الجنّة، وفوقها عرش الرحمن ومنها تتفجّر أنهار الجنّة. انظر موسوعة الأحاديث في الجنّة وأحوال أهلها، ص٢٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد شاع في شعر المدن استخدام الألفاظ والتراكيب الدّالة على عظمة المكان لما فيها من نفاسة وندرة ومثل تلك الألفاظ كانت تنبع من ثقافة وحضارة أهل الأندلس. فكان الشاعر ينطق بلسان ابن المدينة المترفة الباحث عن العظمة، فتميل نفسه إلى كل ثمين ونادر وجميل، لنجده، يتقصّى تلك الألفاظ الثمينة ويصبّها في شعر وصف المدن الأندلسيّة، ومن تلك الألفاظ ما شاع ذكره من مسمّيات لجواهر نفيسة ومعادن ثمينة وأقمشة وروائح عطريّة إلى غير ذلك مما يحسن وقعه في النّفس الإنسانية فتلذّ لامتلاكه. وقد استقى الشاعر -أحياناً- هذه المسمّيات ممّا جاء في وصف جنّة الرضوان في القرآن والحديث. يقول ابن سفر المريني:(١)

أنـهارُها فِضَـةٌ، والمِسْـكُ تُرْبَتُـها ... والخزُّ رَوْضَتُـها والـدُّرُّ حَصْبَـاءُ

ويقول ابن السيد البَطَلْيَوسي:(٢)

يـا منظـراً إن نَظَـرْتَ بَهْجَتَـهُ ... أذكَرَنـي حُسْـنَ جَنَّـةِ الخُلْـدِ
تُرْبَـةُ مِسْـكٍ، وجـوُّ عَنْـبَرَةٍ ... وغَيْـمُ نَـدٍّ، وطـشُّ مـا وَرْدِ

فإذا كانت تربة الأندلس مسكا فهذا يجعل منها جنّة. يقول رسول ﷺ:(٣) " **بَيْنَما أنَا أسير في الجنّة إذا بنهرٍ حافّتاه قِبَابُ الدُّرّ المُجَوّفِ. قُلتُ: ما هذا يا جبريل. قال: هذا الكوثر الذي أعطَاكَ رَبُّكَ فإذا طينُهُ مِسْكٌ أذفَرُ**(٤)". لقد ذكر رسول الله ﷺ في أكثر من حديث شريف وصفاً لتربة الجنّة، وأكّد على أنّها بيضاء وهي طيّبة الرائحة، يقول ﷺ : " **وإذا ترابها المسك**(٥)".

إنّ شيوع الألفاظ المستقاة من معجم ألفاظ الجنّة إلى جانب ما نجده من الألفاظ والتراكيب والمصطلحات الدينيّة مثل: (مفروض، واجب، فسق، معقلا للدين، النكير،

---

(١) النفح، ج١، ص٢٠٩.

(٢) النفح، ج١، ص٦٤٣ ؛ أزهار الرّياض، ج٣، ص١٠٧.

(٣) الإمامان البخاري ومسلم – موسوعة الأحاديث الصحيحة في الجنّة وأحوال أهلها في الدنيا والآخرة، ط١، تصنيف وشرح أبي ياسر عصام الدين بن غلام حسين، مؤسسة الكتب الثقافية، ١٩٩٧.باب تراب الجنّة، ص٢٦٠.

(٤) مسك أذفر: شديد الرائحة الطيبة.

(٥) المصدر السابق، ص٢٢٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المارق، السعير، ذنوب المسلمين، الكبائر)، وهذه الألفاظ تبرز عظم الأثر التي يتركه الموروث الديني في لغة شعر المدن.

اذ تمتّع شعراء هذا القرن بثقافة دينيّة جيدة مكنّتهم من رفد موضوعاتهم بما يناسبها لغة وأسلوباً.

٣. الثقافة التاريخيّة:

إذا كان ابن طباطبا قد جعل من المعرفة بأيام النّاس وأنسابهم ومناقبهم ومثالبهم[١]، شرطاً ثقافياً يلزم الإلمام به قبل البدء بمراس الشعر، فإنّ للشعر الذي قيل في وصف المدن معايير ثقافية أخرى يحسن الإحاطة بها قبل الخوض في نظمه، فغاية الشاعر تحدّد ما ينتقيه من روافده الثقافية، ولأنّ المدينة مكان وعمارة، فإنّ شعراء الأندلس الذين تناولوها أكثروا من استخدام الألفاظ التي تردّدت من عمق التاريخ ليسمع صداها في أشعارهم متمثّلة بأسماء الدول والملوك وما اشتهرت به من آثار دالّة على عظمة الحضارة وما فيها من إبداع معماري.

واستقراء شعر المدن الأندلسيّة يدلّ على تبصّر شعراء هذا القرن بماضي الأمم وسعة إطلاعهم على أخبار الدول القديمة وآثارها، مما أتاح لهم رافداً قويّاً لألفاظهم ومعانيهم، فاتخذت بعداً جديداً.

وممّا وظّف في هذا الموضوع من الآثار المعماريّة والمباني العجيبة التي قامت عبر التاريخ في مختلف بقاع المعمورة قصر "غمدان"[٢] في بلاد اليمن، الذي ذكره ابن الحدّاد عند وصفه لقصر أبي يحيى الصمادحي بقوله:[٣]

فَمْن ابن ذي يزنٍ وما غَمَدانُه النّقل شكٌّ والعيانُ يقينُ

---

[١] كتاب نقد الشعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا، ص٢٢٣.

[٢] غمدان: قصر في صنعاء، أسّسه آزال بن قحطان، وكان الضّحاك قد بناه فخرّبه عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقد قيل: " إنّ ملوك اليمن كانوا إذا قعدوا في أعلى هذا البنيان بالليل واشتعلت الشموع رأى النّاس ذلك من مسيرة ثلاثة أيّام ". انظر: المسعودي – مروج الذهب، ج٢، ص٨٣.

[٣] ديوان ابن الحدّاد: ص٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكثر النقل حول حسن قصر صنعاء "غمدان" وما فيه من تماثيل لأسود يسمع زئيرها إذ ما هبّت الريح وسقفٍ من رخامة واحدة وارتفاع في البنيان(١). ولعلّ مثل هذا البناء قد تمثّل للعديد من الملوك نموذجاً عند بنائهم القصور في الأندلس، إذ أكّد بقاء ذكر تلك الأمكنة والأبنية على أنّ عظمة الأمم تقاس بما شيّدت وعمّرت، فما كان من معظم ملوك الطوائف إلاّ المبالغة والإسراف في عمارة قصورهم، ليخلّد ذكرهم من خلال آثارهم وما قيل في وصفها، وقد عرض شعر المدن لهذا البعد النفسي.

وتتردّد صنعاء في العديد من القصائد، ولعلّ للصلة التاريخيّة التي تربط أهل الأندلس باليمن دوراً في ذلك، فصنعاء مهد حضارة للعديد منهم. يقول ابن درّاج:(٢)

يُنسي بناؤُكُمْ صَنْعَاءَ بَلْ إرَمَا ... ذاتَ العمادِ وسِنْدَانَ وَغُمْدَانا
والأبْلَقَ الفَرْدَ والأبْرَاجَ مِن أجَإٍ ... والسَّيْلَحِينَ وسَدًّا كانَ مَا كَانَا

لقد اكتفى ابن درّاج بذكر الفعل "ينسي" الصّادر عن البناء ليحشد إلى جانبه ألفاظا دالّة على أسماء العديد من الأبنية التاريخيّة العظيمة ابتداءً من صنعاء وختاماً بقصرها غُمْدَان في البيت الأول الذي يتخلّله ذكر لإرم ذاتِ العِماد وسِنْدانَ.

وذكر ابن درّاج في البيت الثاني ما عظم بناؤه من الأبراج مثل "الأبلق" حصن السموأل ليعود مقترباً من اليمن في ذكره للقصر الذي بناه "الحارث الرائش أحد ملوك اليمن بين صنعاء ومأرب".

ومثل هذا الحشد يرتدّ بالمتلقّي إلى أعماق متفاوتة تبعاً لمدى إلمامه بما تشكّله تلك الأمكنة في نفس الشاعر أو صاحب القصر الموصوف وهي في الوقت نفسه تمثّل دلالة واضحة على المستوى الثقافي الجيّد فالإحاطة بمعرفة الحضارات وآثارها يعين على إبراز العديد من المضامين والمشاعر. فهناك فرق بين تسجيل الشاعر لأسماء أبنية هي من تشييد الأجداد وبين ذكر أبنية لدولٍ عظمى لا صلة لها بالحضارة العربية وإن بدا التوظيف متشابها في القصائد.

---

(١) آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٥٠

(٢) ابن درّاج – الديوان، ص٢١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الأمم التي اشتهرت بعظيم البناء الذي خلد حضارتها فعظمت بعين من يرى آثارها الفرس والروم والصين، وتمتعت هذه الأسماء بمكانة مرموقة في الشعر، إذ كثر ترددها على ألسنة الشعراء عند وصفهم للمدن الأندلسية أو أحد قصورها. ومما قال الشعراء:[١]

دع عنك حضرة بغداد وبهجتها ... ولا تعظم بلاد الفرس والصين

ويقول ابن حمديس في ذكر إيوان كسرى بحسنه وبهائه الذي خفت عند وضعه في مقابل ذلك القصر الموصوف:[٢]

نسيت به إيوان كسرى لأنني ... أراه له مولى من الحسن لا مثلا

ويتكرر اثبات نسيان كل مكان عظيم في مقابل تألق البناء الأندلسي الموصوف في الذاكرة المخلدة لكل عظيم، وكأن الشاعر ينتقي موضع "التخزين" - إذ جاز القول - في ذاكرته، فمثل هذه المقابلة بين البناء الأندلسي وعظيم بنيان الأمم، تبرز سمة أسلوبية في أغلب قصائد شعر الوصف. يقول ابن دراج:[٣]

نسي الصبيح مع المليح بذكره ... وسما ففاق خورنقا وسديرا
ولو أن بالإيوان قوبل حسنه ... ما كان شيئا عنده مذكورا
أعيت مصانعه على الفرس الألى ... رفعوا البناء وأحكموا التدبيرا
ومضت على الروم الدهور وما بنوا ... لملوكهم شبها له ونظيرا

ويكثر ذكر أسماء حكام تلك الأمم وعلمائها وحكمائها، إذ يطالعنا شعر وصف المدن بأسماء العظماء والمشاهير، لتكتمل لوحة الكمال. يقول ابن الحداد:[٤]

وكأن هرمس بث حكمته به ... وأدار فيه الفكر أفلاطون
وكأن راسم خطه إقليدس ... ومحجن تقديسه التحجين[٥]
لو أبصرته الفرس قدس نوره ... كسرى وأخبت نارها شيرين

---

[١] النفح، ج١، ص٤٥٩.

[٢] ابن حمديس - الديوان، ص٣٧٩.

[٣] ابن دراج - الديوان، ص١١٨. النفح، ج٢، ص١٩٠.

[٤] ابن الحداد - الديوان. ص٨٤ ؛ العماد - الخريدة، ق٤، ج٢، ص١٩٠-١٩٢.

[٥] التحجن: هو اعوجاج الشيء. اللسان مادة (حجن).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أو لَــو بَــدَا للـــروم معجـــز صنعـــه   أبـدا السـجود إليــه قســـطنطين

ذكر ابن الحدّاد ثمانية ألفاظ لمسميات الأمم وحكّامها ومشاهير علمائها في ثلاثة أبيـــات من الشعر الذي جاء في وصف قصر أندلسي. ولم يكن إيراد تلك الأسماء دون سِـواها إلا مـــن باب عمق المعرفة لدى ابن الحدّاد الذي أحسن الانتقاء بما يتناسب وموضع المدن فذكـــر مثـــلاً: المهندس إقليدس ذا الباع الطويل في فن الهندسة والعمارة، وذكر كِسرى الذي أحكم البنيان وشـيّد القلاع والحصون، وذكر أيضاً الذين أبدعوا في تشييد البيوت ذائعة الشهرة.

• التأثّر بالشعراء السابقين:

إنّ الشعر الأندلسي يمثّل امتداداً في بناء الشعر العربي، يقوم عليه ويرتقي مـــن خـــلال ارتباطه به.

وأشار عدد من الدارسين إلى تأثر شعراء الأندلس بمن سبقهم من شعراء العرب، ونظـــر بعضهم إلى ذلك في باب التقليد دون التفات إلى أنّ ذلك الالتقاء يتيح للشعر الأندلسي شكلاً مـــن الارتقاء على أسسٍ قويّة تنمّ عن أصالته. فقد كان أسلوب الشعراء في تناولهم للمـــدن الأندلســـيّة مثلاً: نابعاً – في الغالب – من ديوان الشعر العربي، ولا غرابة أن نجد في شعرهم عـــدد مـــن السمات الأسلوبية المطروحة في الموضوع نفسه عند من سبقهم. فقد سخّر الشـــاعر الأندلســـي موروثه الأدبي لبلوغ مقاصده وغاياته في شعره.

فالإلمام بالشعر العربي يمثّل أداة من أهم ما يجب إعداده قبل نظم الشـــعر يقـــول ابـــن طباطبا:[1] " وللشعر أدوات يجب إعدادها قبل مراسه ومنها الوقوف على مذاهب العـــرب فـــي تأسيس الشعر والتصرّف في معانيه في كل ما قالته ".

وشكّل البعد المكاني عن منابع العربيّة باعثاً قوياً زاد من تشبّث أهل الأندلس بكـــل مـــا يعزّز اتصالهم بالمشرق وبالتراث الأدبي لأجدادهم.

---

(1) نقد الشعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا العلوي، ص٢٢٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولقّب العديد من شعراء الأندلس بأسماء شعراء المشرق، فقد لقّب ابن زيدون – مثـلاً – بالبحتري، وذلك لتقارب أسلوبيهما، فقد امتاز بحسن اختيار الألفاظ وسبك التراكيب، كمـا لقـب ابن خفاجة بصنوبري الأندلس لموضوعات شعره التي كان يطرقها صنيع نظيره المشرقي أبـي بكر الصنوبري.

اتّخذ الشاعر الأندلسي من ديوان الشعر العربي ينبوعاً يفيض بكل سلسبيل عذب، فكـان الشاعر يبرز عظم ثروته الأدبيّة ونبوغه وقدراته الشعريّة من خلال سلكه سبل الالتقاء مع مـن سبقه من شعراء العربيّة، وشجّعهم على ذلك حكّام المدن الأندلسيّة الذين سعوا لامتلاك ناصيـة المجد والتفوّق في المجالات الأدبيّة، فساهموا في توجيه الشعراء لمنافسة ذوي الفضل والتمـيّز ممن سبقهم من الشعراء العرب.

وتتعدّد الأسباب التي تقف خلف تأثّر الشعر الأندلسي بالشعر المشرقي وهي في الغـالب أسباب نفسيّة مبعثهما حنين لا ينقطع نحو تراث الأمّة الإسلامية، " فقد رحلـوا بأجسـادهم عـن الشرق، ولكنّ تراث أمّتهم وتراب جدودهم بقيا ماثلين في شغاف قلوبهم، ويشدّهم إلى ذلك رصيـد عاطفي وثقافي لا يحد ".[١]

وقد عكس شعر المدن الأندلسيّة ضروباً مختلفة لمظاهر التأثّر بالشـعر العربـي يقـف التضمين على رأسها.

- **التضمين:**

لقد أشار ابن رشيق في باب التضمين والإجازة إلى أنّ التضمين هو " قصدك إلى البيـت من الشعر أو القسيم فتأتي به آخر شعرك أو في وسطه كالمتمثّل ".[٢]

ومن هذا القبيل. قول أبي إسحاق الإلبيري:[٣]

لَسَـــاءَلْتُ عَنْـــهُمْ رَسْـــمَها فَأَجَـــابَني " ألا كُلُّ شَيءٍ مَـا خَـلا الله بَـاطِلُ "

---

[١] عمر الدقاق – ملامح الشعر الأندلسي، ط١، دار الشرق العربي – بيروت، ملامح الشعر الأندلسي، ص٤٣.

[٢] العمدة، ص٨٤.

[٣] أبو إسحاق الإلبيري، الديوان، ص٧٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعجز البيت مأخوذ من قول لبيد:[١]

ألا كُـلّ شَـيءٍ مَـا خـلا الله بَـاطِلُ وكُـلّ نَعيـمٍ لا مُحالـةَ زَائِـلُ

لقد قصد أبو إسحاق الإلبيري إلى صدر بيت لبيد ليورده على لسان المدينة، وكأنّ مثـل هذا القول أضحى لساناً ناطقاً لكل الرسوم البالية والآثار الباقية. ومن هذا القبيل فـي التضميـن الذي يأتي به الشاعر على لسان المدينة قول. أبي عبدالله بن خلصة البلنسي:[٢]

لـو أنّـها نَطقَـتْ قـالَتْ لِفَقدِهـم " بانَ الخَليطُ ولَم يأووا لمـن تركـوا "

وعجز البيت تضمين من بيت لزهير :[٣]

" بـانَ الخَلِيـطُ ولَـم يـأووا لمـن تركـوا " وزوّدوكَ اشـتياقاً أيـة سـلكوا

وضمّن ابن خفاجة صدر بيت لأبي تمام فجعله ممّا خططته يد الحدثان فـي المكـان. إذ يقول:[٤]

كَتَبَـتْ يَـدُ الحَدَثـانِ فـي عَرَصَاتِـها " لا أنْـتِ أنْـتِ وَلا الدّيَـارُ دِيَـارُ

وهو من قول لأبي تمام:[٥]

" لا أنْـتِ أنْـتِ وَلا الدّيَـارُ دِيَـارُ خَـفّ الـهوى وتوالـت الأوطـارُ

---

[١] لبيد – الديوان، ص٢٥٦.

[٢] الروض المعطار، ص٩٧.

[٣] زهير بن أبي سلمى – الديوان، ص٤٠.

[٤] ابن خفاجة – الديوان، ص٣٥٤.

[٥] أبو تمام – الديوان، ص٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونجد في هذا العصر من حشد أكثر من قسيم وضمّنه في قصيدة واحدة، ومن هذا القبيل ما جاء في وصف الدار الخراب التي كفت على ابن عبدون فقال فيها مقطوعة ضمّنها أكثر من قسيم من قصائد مختلفة جاءت في وصف الأطلال، وفيها قوله:(١)

يقولُ لَها لمَّا رأى مِن دُثُورِها   " ألا عم صَباحاً أيُّها الطَّلَلُ البالي "

وفي هذا القول تضمين مأخوذ من شعر زهير بن أبي سلمى:(٢)

فَلَمّا عَرَفْتُ الدّارَ قُلْتُ لِرَبْعِها   ألا عِمْ صَباحاً أيُّها الطَلَلُ واسْلَمِ

وقد أبدل الشاعر لفظة " واسلم " بلفظة " البالي " ليتخلّص مما قد توحي به لفظة زهير بن أبي سلمى من معانٍ نفسيّة مبعثها الحنين والانتماء للمكان.

ومن مثل هذا النوع من التضمين الذي يداخله بعض التغيير في ألفاظه قول ابن زيدون:(٣)

بِقُرطُبَةَ الغَرّاءِ دارِ الأكارِمِ   بلادٌ بها عَقَّ الشبابُ تمائمي

إذ نلمح في هذا البيت شيئاً ممّا قاله أبو زياد الطائي:

بلادٌ بها نيطَتْ عليّ تمائِمي   وكان بِها عصرُ الصِّبا نَضيراً رَغَدا

وهذا القول يتكرر بين شعراء عصر ملوك الطوائف وكأنه اصبح في تركيبه جزءا من لغة القول في موضوع الحنين . يقول أبو بكر ابن عمّار:(٤)

كَساها الحَيا بُرْدَ الشَّبابِ فَإنَّها   " بِلادٌ بِها عَقَّ الشَّبابُ تَمائمي

(١) ابن خاقان – القلائد، ج٢، ص٤٢٣ ؛ المقري – النفح، ج٣، ص٤٥٤.
(٢) أبو عبدالله الزوزني: شرح المعلقات السبع، دط، المكتبة التجارية الكبرى – مصر، ١٩٦١. ص٨٧.
(٣) ابن زيدون – الديوان، ص٨٠.
(٤) الحلة السيراء، ج٢، ص١٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم يقف تأثر شعراء الأندلس بديوان الشعر العربي عند أبواب التضمين المذكور، بل تعداه ليظهر من خلال وقوف شعراء الأندلس في عصر ملوك الطوائف على العديد من الألفاظ والمعاني والصور التي جاءت في الشعر العربي وتوظيفها في شعر المدن، بما يتناسب والموضوع المطروق، ومن هذا القبيل قول ابن العسال:[١]

ولكم رضيع فرقوا عن أمه ... فله إليها ضجة وبغاء
ومصونة في خدرها محجوبة ... قد أبرزوها ما لها استخفاء

وتأثر بقول ابن الرومي:[٢]

كم رضيع هناك قد فطموه ... بشبا السيف قبل حد الفطام
كم فتاة بخاتم الله بكر ... فضحوها جهرا بغير اكتتام

التقى ابن العسال مع ابن الرومي في الموضوع واللغة والأسلوب والصور، وهذا يعكس تأثرا واضحا بابن الرومي ويتردد مثل هذا التأثر في شعر رثاء المدن ففي رثاء قرطبة في أعقاب الفتنة رد الشاعر الأندلسي ما أصاب المدينة إلى العين بقوله:[٣]

ابك على قرطبة الزين ... فقد دهتها نظرة العين

وهوتأثر بقول عمرو بن عبدالملك الوراق الذي رثى بغداد أثناء الفتنة بين الأمين والمأمون. فقال في ذلك:

من ذا أصابك يا بغداد بالعين ... ألم تكوني زمانا قرة العين
ألم يكن فيك قوم كان مسكنهم ... وكان قربهم زينا من الزين

فقد التقى الشاعران في الموضوع وفي بعض الألفاظ مثل: "العين" و "الزين"، ويبرز هذا الشكل من التضمين ما كان في شعر المدن من تأثر بمعاني الشعراء السابقين، ويمتد فعل التأثر

---

[١] الحميري – الروض المعطار، ص٩٠.

[٢] ابن الرومي – الديوان، ص٧٥

[٣] ابن سعيد– المغرب، ج٣، ص١١٠.؛ انظر فصل رثاء المدن، ص

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والتأثير ليجمع بين العديد من شعراء عصر ملوك الطوائف، فإذا ما سمعنا قول أبي إسحاق الإلبيري:[١]

لعَهْدي بِهَا مُبْيضة الليل فاغتدت وأيّامُها قَد سَوّدَتْها النَّوائِبُ

ففي هذه الصور التي تجمع بين الأضداد ، يلوح في أذهاننا قول ابن زيدون:[٢]

حَالت لِفَقْدِكُم أيّامنا فَغَدت سوداً وكَانَتْ بِكُم بيضاً لَيَالِينا

وقد سبق شاعر مشرقي الى هذه المعاني والألفاظ. إذ يقول أبو تمّام:[٣]

ضوء من النّار والظّلماءُ عاكفة وظلمةٌ من دخانٍ في ضُحَى شحِبِ

وأولع شعراء الأندلس بمتابعة أهل المشرق في معانيهم وألفاظهم، وتأثّروا بالشعر العربي في عصوره المختلفة، وخاصّة الشعر الجاهلي، إذ أقبلوا على دراسته فترك آثاره المبينة في قصائدهم، ولعلّي أختلف مع ما قاله غرسيه غومس: من أنّ شعراء الأندلس كانوا يرون في الشعر الجاهلي " شيئاً أثرياً قديماً، فلم يكن له في نفوسهم أثر فعّال "[٤]، إذ إنّ في مثل هذا الحكم بعدا عن الحقيقة الماثلة في أشعارهم، التي تنبع من معين الإعجاب والتّقدير للشعر الجاهلي وما تبعه من شعر في العصور التالية.

---

[١] الديوان، ص٧٢.

[٢] ابن زيدون – الديوان، ص١٤٣.

[٣] أبو تمام – الديوان، ص ٣٩.

[٤] تاريخ الفكر الأندلسي، ص٣٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

• الأمثال:

اتكأ شعراء ملوك الطوائف على ما في جعبتهم من أمثال استعانوا بها في أشعارهم لتكثيف المعاني، والتوطئة لها في ذهن المتلقّي الذي يُظنّ به الإلمام والمعرفة بالغاية من المثل المضروب، ليتّسع البعد المعنوي للألفاظ، وقد وظّف الشاعر الأندلسي في شعر المدن من الأمثال ما له صلة بالبناء والعمارة. يقول ابن الحدّاد:[١]

وكَأنّ بَانيهُ سِنمّارُ فما ... يَعْدُوه تَحْسينٌ ولا تَحْصينُ
وجَزاؤُهُ فيه نَقيضُ جزائهِ ... شتّانَ ما الإحياءُ والتحيينُ

عرض ابن الحدّاد المثل القائل " جزاء سِنمّار " وسنمّار هو اسم لعلم ذاعت شهرته لإبداعه المعماري، وقد بنى بنياناً هو من العظمة بمكان، فلمّا أتمّه، كان جزاؤه الرمي من أعلى البناء خشية أن يبنى مثله لملك آخر[٢]. وابن الحدّاد في توظيفه لهذا المثل استمدّ منه أبعاداً دلالته مغايرة لما ضرب فيه من جزاء ضدّي ما يقدّم من خير، فاستثمر لفظة " سنمّار " في البيت الأول ولفظة " جزاء " في البيت الثاني ليرتقي من خلال هذا الطرح بالبناء الموصوف ويمدح حاكمه، وهذا من التوظيف الحسن، إذ تدارك ابن الحدّاد " ما قد يوحي به هذا المثل من مضامين مغايرة لما يريد من طرحه له، فذكر مقدار التباعد في الجزاء فأفاد من ذلك زيادة في مدح صاحب القصر الموصوف.

ويورد الشاعر مثلين في بيت واحد، ومن هذا القبيل قول ابن خفاجة:[٣]

وما كُلُّ بَيْضاءٍ تَرُوقُ بِشَحْمَةٍ[٤] ... ولا كُلُّ مَرْعىً ترتعيهِ بِسَعْدَانِ[٥]
فَيَا لَيْتَ شِعْري هَلْ لِدَهْري عَطْفَةٌ ... فَتُجْمَع أوطاري عَلَيَّ وَأوْطَاني

---

[١] ابن الحداد - الديوان، ص٨٤.

[٢] الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الملقب الجاحظ - كتاب الحيوان، ط٣، شرح يحيى الشامي، منشورات دار ومكتبة الهلال، ١٩٩٧م. ج١، ص٢٤.

[٣] ابن خفاجة الديوان، ص٣٤٥

[٤] أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني - مجمع الأمثال - ط٢، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل - بيروت، ١٩٨٧، ج٣، ص٢٧٥.

"مَا كُلُّ بَيْضا شَحْمَةً، ولا كُلُّ سَوْداءَ تمرةً ".

[٥] المصدر السابق، ج٣، ص٢٦٥، " مَرْعَى وَلاَ كالسَّعْدَان، قال بعض الرّواة: السَّعدان أحْثَرُ العُشْبِ لبناً، وإذا خَثَرَ لبنُ الراعية كان أفضل ما يكون وأدسمَ ليضرب ...

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إنّ مثل هذا التناول للأمثال في الشعر يتيح للقصيدة شكلاً من أشكال الذيوع والتّداول والحفز في الذاكرة، إذ إنّ سماع القصيدة يحدث تداعيات مختلفة ذات صلة بما يقال، فإذا ما ارتبطت أبيات القصيدة بقول مألوف يكثر ترداده مثل " الأمثال "، فإنّ هذا يعجّل في حفظ الأبيات ذات الصّلة ويزيد من فرصة تردادها واستدعائها، وخاصةً إذا ما سنحت الفرصة لضرب المثل بالعلاقة ويصبح ضرب ذلك المثل بمثابة إحياء لما ارتبط به من شعر.

وممّا قيل من شعر أفاد من الأمثال المضروبة قول ابن الحدّاد:(١)

صَدَعَ الزّمانُ جميعَ شَملي جائِراً   إنّ الزّمانَ مُمَلّكٌ لا يَسْجحُ(٢)

لقد أبرز ابن الحدّاد تملّك الزمان لأمره، لما ألحقه به من تبدّل بالأحوال دونما قدرة منه على التصدّي لفعل الزمن الذي لا يعفو، فاستخدم مفردات المثل بما يتناسب وما يريد، ومثل هذا الاستخدام شائع في الشعر الذي تناول المدن الأندلسيّة، فللأمثال أدوار تؤدّيها فتزيد من إيحاء الألفاظ وذيوع القصيدة إذا ما تمّ اختيارها وتوظيفها في المكان المناسب.

يقول ابن عمّار:(٣)

ولَعلّ يَوْماً أن يَصيّر نَعتُه   في ظينة التّقْديم والتَأخيرِ
وتَرَى بَلَنسِيّة وأنْتَ قِدارها   سَيَنالُها التَدْميرُ مِن تُدْميرِ

وقُدار رجل من ثمود يذهب المفسّرون إلى أنّه من أشار على قومه بعقر ناقة صالح، وفي الأمثال يقال " أشأم مِن قُدار ".

وقد يبرز الطابع الإنشائي سمة أسلوبيّة مميّزة في موضوع البحث، واستخدام الشعراء له يعكس تفاوتا واضحاً، إذ شاع استخدامه في موضوع رثاء المدن والحنين إليها بصورة تفوق ما كان في موضوع الوصف، ومثل هذا التباين يدلّ على ثراء أسلوب الشعراء في الأندلس، ومقدار

(١) ابن الحدّاد – الديوان، ص١٨١.
(٢) الإسْجاح: حسن العفو، وفي المثل " مَلَكْتَ فَأسجِح " أي ملكت الأمر فاحسن العفو عني. انظر مجمع الأمثال، ج٢، ص٢٧٨.
(٣) الحلّة السّيراء: ج٢، ص١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعيهم في اختيار الأساليب المشاكلة للموضوع، فقد استخدم الشعراء أساليب الاستفهام، والنـداء، والأمر، والتعجّب، وغير ذلك ...، فجاءت معبّرة وموحية لتعمّق من الأثر النفسي لدى المتلقّي.

- **أسلوب الاستفهام:**

استخدم شعراء عصر ملوك الطوائف أسلوب الاستفهام في غير موضوع، وقـد خـرج الاستفهام – في الغالب – عن معناه الحقيقي إلى معانٍ مختلفة بين استنكار، وتعجّـب، وتمنّـي، وتقرير وتهكّم وسخرية. وفي معنى الإنكار أفادوا ممّا جاء فـي كتـاب الله تعميقـاً لمضـامين المطروحة في أشعارهم وما تتركه من أثر في النفوس. ففي قول الشاعر:[١]

أتَبْنـي بِنَـاء الخَـالِدينَ وإنّمـا بَقـاؤكِ فيـها لَـو عَلِمـت قليـلُ

استفهام يدلّ على الاستنكار، غير أنّ الشاعر ينكر مغالات الحاكم في البنـاء والعمـارة، فيستعين بأسلوب الاستفهام الذي جاء في كتاب الله معبّراً عن المعنى نفسه فـي قولـه تعـالى: **﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُون * وتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُـدُون * وإذا بَطَشْـتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارين ﴾**.[٢]

وفي هذا الاستفهام تنبيه للغافل الذي أمعن في التماس نعيم الحياة الزائـل وتقريـع لـه وإنكار لأمر المسرفين في البناء والعمارة، ومثل هذا الاقتباس في الشـعر الأندلسـي لأسـاليب الاستفهام يزيد من قوّة الفكرة المطروحة وأثرها في نفس المتلقّي. وقد جاء في النفح أنّ الحـاكم لم يلبث بعد سماعه لهذا البيت إلا أيّاماً ثم مات.[٣]

وقد شاع استخدام هذا الضرب من الاستفهام. يقول ابن حمديس منكراً على أهل المدينـة تركهم لأرضهم والاستغناء عنها:

أعَـنْ أرْضِكُـم يُغنيكُـمْ أرْضُ غـيرِكُمْ وكَمْ خالةٍ جَدّاءُ لَـمْ تُغْـنِ عـن أمّ[٤]

---

[١] المقري – النفح، ج٣، ص٥٢٩.

[٢] الشعراء، الآيات: ١٢٨-١٣٠.

[٣] المقري – النفح، ج٣، ص٥٢٩.

[٤] ابن حمديس – الديوان، ص٤١٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذا الاستفهام الإنكاري قد يقود إلى خضوع الأسى والحزن لما قد يوحي به من إنقطاع لأسباب الرجاء. يقول الشاعر في رثاء طليطلة:[١]

كَفَى حزَناً بِأنّ النّاسَ قَالوا ... إلى أيْنَ التّحولُ والمَسيرُ
أنَتْرُكَ دُورَنا ونفرّعنها ... ولَيْسَ لَنا وراء البحر دورُ

فكأنّ أفكار أهل طليطلة لمواجهة الفقد يقودهم إلى الرضى بالعبوديّة فخسروا الدين والدنيا.

وقد أنكر أبو إسحاق الإلبيري على أهل زمانه من شعراء الأندلس إغفالهم لندب مدينة إلبيرة في قوله:[٢]

أتَنْدَبُ أطْلالُ البِلادِ ولا يُرَى ... لإلبيرَةِ مِنْهُمْ على الأرْضِ نَادِبُ

ويحمل هذا الإنكار إشارة قويّة لما تحتلّه تلك المدينة من مكانة في نفس الشاعر الذي يواجه شعراء زمانه معاتباً ومقرعا لهم لإغفالهم ندبها، وفي هذا الاستفهام مقدار من الألم والتوجّع والحضّ والاستثارة.

وقد يخرج أسلوب الاستفهام إلى معنى التّمني. يقول ابن زيدون:[٣]

ألا هَلْ إلى الزّهراء أوبة نازِحٍ ... تقضّى تنائِها مَدامِعَهُ نَزْحا

فابن زيدون يتمنّى الحلول في الزهراء التي شطّ المزار عنها، فيبث أمنياته من خلال أسلوب الاستفهام الذي يوحي بصعوبة بلوغه ما يتمنّاه، فطرحه بهذا السؤال يقود إلى القول بأنّ الأمور قد خرجت عن إرادته وقدراته، فالنّفس تحنّ والواقع يقيّد، ومن هذا القبيل قول أبي بكر المخزومي:[٤]

---

[١] المقري – النفح، ج٤، ص٤٨٥.

[٢] أبو إسحاق الإلبيري – الديوان، ص٧١.

[٣] ابن زيدون – الديوان، ص٤١٧.

[٤] النفح، ج١، ص١٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أقُرْطُبَـــةَ الغـــرّاء هـــل لـــي أوبـــة إليكِ، وهل يدنـــو لنـــا ذلـــك العـــهدِ

ويعدّ شعر الحنين ميداناً واسعاً لمثل هذا الأسلوب الاستفهامي الذي يتلاءم وطبيعة النّفس المستحنّة إلى الوطن.

وبما أنّ الشعر الذي يدور في محيط المدن يتّخذ من المكان – غالباً – محوراً له، فـــإنّ تردّد اسم الاستفهام "أين" بين ثناياه أمر متوقع، ومن هذا قول ابن حزم:[١]

أيـــن أقصـــى الغَـــربِ مـــن أرْضِ حَلَـــــبِ أملٌ فـــي الغـــرب موصـــول التعـــب

وقول أبي الحزم بن جَهْور:

قُلْـــتُ يومـــاً لـــدار قـــوم تفـــــانوا أيْـــنَ ســـــكانك الغِـــرارُ علينـــا

إنّ شيوع أسلوب الاستفهام في موضوع رثاء المدن والحنين إليـــها، يعـــبّر عـــن ذلـــك الصّراع الداخلي الذي يعتمل في نفس الشاعر الأندلسي، فيبرز مـــن خـــلال بعـــض الســـمات الأسلوبية المعبّرة عن تفجّر شعوري يتدفق من خلال الحوار المبتور – أحياناً –، إذ قد يطـــرح السؤال فلا تسمع الإجابة، ممّا يضيف للنّص بعداً نفسياً في ذهن المتلقّي.

- **أسلوب النداء:**

ومن الأساليب المستخدمة في شعر المدن أسلوب النداء الذي وظّف لتحقيـــق غايـــة ذات قيمة فيا لعمل الأدبي. يقول ابن شهيد متوجّهاً بالخطاب إلى المدينة المنكوبة:[٢]

يَـــا جنّـــة عصفـــت بِـــها وبأهلـــها ريـــحُ النّـــوى فتدمّـــرت وتدمّـــروا
يـــا مـــنزلاً نزلـــت بـــه وبأهلـــه طـــيرُ النّـــوى فتغـــيّروا وتنكّـــروا

٥٢٥٢٠٠

---

[١] النفح، ج٢، ص٧٦.

[٢] الديوان، ص١١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إنّ استخدام ابن شهيد لأداة النداء " يا " قد يومي إلى البعد الزماني أو المكاني، فهو يخاطب آثار المدينة بعد تدميرها بلفظة " يا جنّة "، وهذه الجنّة غدت بعيدة المنال على أرض الواقع الذي محا معالمها بما جرّته عليها يد الزمن، فالمنادى يكمن في الذاكرة على بعد زماني، وإنْ بدت آثاره للعين. وقد ظهر المنادى نكرة، ولعلّ لذلك بعداً نفسياً يتمثّل فيما يبدو للعين من آثار تستسيغ الذاكرة مقابلته بما ارتبط به من صور مختزنة من الماضي.

والقول بالبعد المكاني والزّماني ليس غريباً على الرغم من وقوف الشاعر على آثار المدينة المرثيّة، وذلك لأنّ الشاعر عند رثائه للمدينة يشعر برحيلها أو لنقل موتها، وأي شيء أبعد من الميّت، وإنْ كان جثمانه بين أيدينا. يقول السميسر:

فَقُلْتُ يا زهراء ألا فارجعي   قالت: وهل يرجع من ماتا

وقد ظهر تكرار في ذكر أداة النداء " يا " في شعر الرثاء، بما يوحي بشكل من أشكال النّدب المرافق لنفس أرهقتها أسباب الضياع والألم. يقول أبو محمد بن حزم:

فَيا دارُ لم يُقفِرك مِنّا اختيارُنا   ولَو أنّنا نستطيعُ كُنْتِ لَنَا قَبْرا[1]
ويا دَهْرُ لا تَبْعُدْ ويا عَهْدُ لا تَحُلْ   ويا دَمْعُ لا تَجمدْ ويا سُقْمُ لا تَبرا

أمّا في شعر الحنين فالمنادى في الغالب معرفة ويستخدم الشعراء أداة النداء للقريب، على الرغم من البعد المكاني، وفي هذا يتجلّى البعد النفسي الذي يتمثّل بمعانقة نفس الشاعر لمدينته وإن ارتحل عنها. يقول ابن زيدون:

أقُرْطُبَةُ الغرّاءُ هل فيكِ مطمَحُ   وَهَلْ كبدٌ حرّى لِبينك تُنْقَعُ

- **أسلوب الأمر:**

ويبرز الطابع الإنشائي من خلال أسلوب الأمر الذي اتّخذ في شعر هذا العصر لمعانٍ شتى، إذ اتّخذ للاستثارة وللتوجيه والحض. يقول الشاعر في رثاء طليطلة:[2]

---

[1] أعمال الأعلام، ص١٠٦.

[2] النفح، ج٤، ص٤٨٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- **الضرورات الشعريّة:**

لقد تجاوز عدد من الشعراء قواعد اللغة العربية كي لا ينكسر الوزن. يقول ابن الحدّاد:[١]

فَقَضى بَحطّي عَنْ سَمَائي واقْتضى رِحَلا تُطيعُ رَكائِبي وتَطَلّعُ

إنّ ابن الحدّاد تجاوز في لفظة " رِحَلا " قواعد العربية، فالأصل القول: " رِحَالا " وبهذا اللفظ ينكسر الوزن ممّا كان من ابن الحدّاد، إلاّ أنّ غلّب الوزن على القاعدة اللغويّة، وقد تكرّر له ذلك في قوله:[٢]

وَرَأيْتُما مَلِكَ البَريَّةِ فاهْنآ ووَرَدْتُما أرْضَ المريَّةِ فاحططا

لقد جعل همزة القطع في لفظه " أحْططا " همزة وصل لكي لا ينكسر الوزن، وهذه الضرورة الشعرية دفعت ابن درّاج إلى تجاوز آخر في قواعد العربيّة في قوله:[٣]

وهاتيكَ جَنّتُا والتي حَبَانا بِها سيّدُ المنعمينا

فقد جمع أداتي ربط بقوله "والتي" ووجه العربية أنْ يقال: التي لأنه لا يجوز اجتماع أداتي ربط في العربية، وإنّما جاز للضرورة الشعريّة.

وفي قول أبي محمد بن حزم:[٤]

سَأنْدب ذاك العَهْدَ ما قَامَتْ الخَضْرا على النّاسِ سَفْا واستقلّت بنا الغبرا

---

[١] ابن الحدّاد – الديوان، ص٤٨.

[٢] ابن الحدّاد – الديوان، ص٦٨.

[٣] ابن درّاج – الديوان، ص٢٣٥.

[٤] ابن الخطيب – أعمال الأعلام، ص١٠٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- **التكرار:**

للتكرار "مواضع يحسن فيها، ومواضع يقبح فيها، فأكثر ما يقع متى ما يحسن التكـــرار في الألفاظ دون المعاني، وهو في المعاني دون الألفاظ أقل[١]".

ويتسم الشعر الذي قيل في المدن بالإقبال على التكرار في الألفاظ، إذ شغف شعراء هــذا القرن بتوظيف التكرار اللفظي بمختلف ضروبه من تكـــرار فـــي الـــتراكيب أو الكلمـــات أو الحروف في مختلف مواضيع هذا الشعر.

ويأتي التكرار اللفظي على وجوه مختلفة تبعاً للغايـــة المتوخـــاة منـــه فـــي الموضـــوع المطروق، إذ قد يأتي على " وجه التوجّع " إنْ كانَ رثاءً .[٢] فينسجم في نغمتـــه مـــع المعنـــى والموضوع ليعكس أبعاداً نفسيّة عميقة، إذ يخلّد الشاعر في هذه الظـــاهرة الأســـلوبيّة انفعالاتـــه ومشاعره فيلقي الضوء من خلال التكرار على أهم المفاتيح اللفظية في قصيدته.

ويورد الشاعر الأندلسي تكراراً في الأفعال، ومن هذا القبيل ما جاء مـــن تكـــرار فـــي قصيدة[٣] المعتمد بن عبّاد للفعل " بكى " الذي ورد ذكره أربع مرّات في ثلاث أبيات.

وهناك تكرار في الأسماء والحروف. يقول ابن شهيد في رثاء قرطبة:[٤]

أيَّـــامَ كـــانَتْ عَيْـــنُ كُـــلِّ كَرامَـــةٍ ... مِـــنْ كُـــلِّ نَاحِيَـــةٍ إلَيْـــها تُنْظِـــرُ
أيَّـــامَ كـــانَ الأمْـــرُ فِيْـــهَا وَاحِـــداً ... لأميرِهـــا وَأمِـــيْرُ مَـــنْ يَتَـــأمّرُ
أيَّـــامَ كَـــانَتْ كـــفُّ كُـــلِّ سَـــلامَةٍ ... تَسْـمُو إلَيْـــهَا بِالسَّـــلامِ وتَبْـــدُرُ

إنّ تكرار ابن شهيد لذكر الأيام التي كانت وكلّ ما كان فيها يومي إلى عظمة تلك الأيـــام وعمق الأثر الذي ينجم عن زوال ذلك العهد، وتكرار لفظة "الأيّام" يحمل دلالة زمانيّـــة، وهـــذا الربط بين "الأيّام" وبين صور المدينة ومن فيها يحملها على عاتق فترة زمانيّـــة جزئيـــة، ممّـــا

---

[١] ابن رشيق – العمدة، ص٧٢.

[٢] المصدر نفسه، ص٧٣.

[٣] المعتمد بن عبّاد – الديوان، ص١٦١.

[٤] ابن شهيد – الديوان، ص١١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقضي بالحكم بتبدلها وتغيّر حالها، وذلك لأنّ الزمان متغيّر لا يمكن الوقوف عليه، وخاصـــةً أنّ "الأيام" قد ارتبطت بالفعل الماضي الناقص "كان".

ويشيع التكرار في موضوع رثاء المدن الأندلسيّة، ولا غرابة في ذلك لأنّ "أوّل ما تكـوّر فيه الكلام باب الرثاء؛ لمكان الفجيعة وشدّة القرحة التي يجدُها المتفجّع ".[١]

ولعلّ في تكرار الشاعر للكلمات والحروف ما يخفّف من حدّة ذلك الاشـــتعال الداخلـــي فيجد في الألفاظ متنفّساً يزداد سعة تبعاً لامتدادها التكراري.

وقد لا يكتفي الشاعر بتكرار ألفاظه بل يضيف إليه معنى الامتداد والديمومـــة متصدّيـــاً للزمان، مخلّداً لذكر ما كان في مدينته. يقول الشاعر متحسّراً:[٢]

فَيَـــا أسَـــفاهُ يَـــا أسَـــــفَاهُ حُزْنـــــاً يُكـــرَّرُ مَـــا تَكَـــرّرتْ الدّهـــورُ

ويقول أبو إسحاق الإلبيري:[٣]

فـآهٍ ألوفـــاً تقتضـــي عَـــدَدَ الحَصَـــا عَلَى عَهْدِها مـــا عاهَدَتْـــها السـحائِبُ

وفي قصيدة ابن حزم[٤] أورد لفظة " الدّار " ثلاث مرات، فكـــان فـــي ذلـــك التعظيـــم والترسيخ لذكرها، هذا وقد ظهر تكرار لأداة النداء " يا "، فقد ورد ذكرها في عشر مواضع، بـــدأ بها منادياً الدار وانتهى إلى مناداة السقم.

يبرز ذلك النداء إيقاعا متقطّعا يكشف عن أنفاس مرهقة متتابعة توحي بقيمة الهدوء الـذي يلبي غاية النداء ويمنح لتلك الرّوح المعذّبة شكلاً من أشكال السكينة.

---

(١) ابن رشيق – العمدة، ص٧٦.

(٢) المقري – النفح، ج٤، ص٤٨٣.

(٣) أبو إسحاق الإلبيري – الديوان، ص٧٢.

(٤) أعمال الأعلام، ص١٠٦–١٠٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وممّا تكرّر في مختلف مواضيع الشعر في هذا البحث " كم الخبريّة "، فحيث التمستها من شعر المدن وجدتها.[١]

يقول أبو إسحاق الإلبيري في خراب إلبيرة[٢]: " وكم من مجيب "، و " كم بلغت فيها الأماني "، " وكم فَرَسَتْ فيها الظباء "، و " كم صَرَعَتْ "، و " كم من نجيب أنجبته وعالم ". وهنا تتردّد "كم" في قصيدة الإلبيري بنبرة الألم فاستطاع أن يعبّر عن هول المصاب الذي ألمّ بأهل إلبيرة.

وتتكرّر "كم" الخبرية في قصيدة لابن درّاج يقول فيها:[٣]

وَكَمْ أظَلَّ مَقِيلي وَسْطَ جَنَّتِهِ ... بِكُلِّ فِرعٍ حمامُ الأيْكِ فارِعُهُ
وَكَمْ وَفى لِيَ فيهِ مِن حَبيبٍ هَوىً ... خَلَعْتُ فيه عِذَاري فَهْوَ خالِعُهُ
وَكَمْ صَدَعت فؤادَ الليلِ عَنْ قمَرٍ ... لهُ هوىً في صميم القلب صادِعُهُ

وفي هذا الأسلوب إشارة إلى العجز عن الإحاطة بذكر الذي كان أو حصره، فما مضى يفوق كل التوقعات.

ومن الألفاظ التي تتكرّر حاملة حسرة وحرقة لا تنفك ملازمة لموضوع رثاء المدن والحنين إليه. " الآه ". يقول ابن خفاجة:[٤]

آه من غُربَةٍ تُرَقْرِقُ بَثّاً ... آهٍ مِنْ رِحلَةٍ تَطُولُ نَوَاها
آه مِن فُرقَةٍ لغير تَلاقٍ ... آه مِن دارٍ لا يجيب صَدَاها

ومثل هذا التكرار يرتبط بأسلوب النّدب والتحسّر، وله أثر فاعل في نفوس الشاعر والمتلقّي معاً.

---

[١] العمدة، ص٧٦، "إفادة من عبارة، لابن رشيق".

[٢] الإلبيري – الديوان، ص٧١.

[٣] ابن درّاج – الديوان، ص١٣٨-١٣٩.

[٤] ابن خفاجة – الديوان، ص٣٦٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أمّا في شعر الوصف فإنّ التكرار يأتي على سبيل التعظيم ، فقد كرّر العديد من الشعراء أسماء المدن والقصور في قصائدهم "تنويهاً بها، إشادة بذكرها، وتفخيماً لها في القلوب والأسماع".

ومن هذا القبيل ما جاء في قصيدة ابن زيدون[1]، التي قالها في وصف عدد من قصور المعتمد بن عبّاد، فذكر " الثّريّا " – وهو اسم قصر من تلك القصور – ثلاث مرات في القصيدة نفسها. وتتكرّر الألفاظ الدّالة على المكان في شعر المدن الأندلسيّة على اختلاف مواضيعه.

[1] ابن زيدون – الديوان، ص٢٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصورة الشعرية:

عندما ينسج الشاعر أبياته، وتنساب الكلمات في بوتقة الشعر المعبّر عن أفكاره، تبرز في هذا النسيج صور تأخذ الإنسان إلى عالم متمازج يشكل لوحاته الواقعُ، والخيال المنساب المنطلق سابحاً في ثنايا عقل الإنسان وتجاربه .

وقد حظيت الصورة الشعرية بجمالياتها بحضور متميز في الشعر الذي خلّد المدن الأندلسية، ذلك أنّ الصورة المستمدة من المدينة الأندلسية تعكس تلك الطبيعة الساحرة والعمارة العظيمة. وإذ يرزح الأندلسيون تحت وطأة هذه الطبيعة الأخّاذة، كان خيالهم المبدع يرسم أجمل الصور.

وتعدّ الصورة الشعرية من أهم سبل التواصل الفكري، ذلك أنها تسهم في إيضاح وتجلية المعاني، وتقريب الأفكار المعبرة عن التجربة الشعرية وما يرافقها من مشاعر إلى المتلقي الذي يعيد صياغة تلك التجربة مما فهمه من معطيات تحدد عمق الأثر الذي تركته تلك التجربة في نفسه، ومدى تفاعلها معها. وإذ لا ينسلخ الأندلسيون من الشعر العربي القديم، فإن روافد الصورة الشعرية في شعر المدن الأندلسية تمثل هذا الامتداد بين المشرق والمغرب، فالصورة الشعرية صورة تراكميّة، وليست جديدة مبتدعة تماما.

وقد أفاد شعراء الأندلس من معارفهم الدينيّة والأدبيّة والتاريخيّة، في تشكيل الصورة الشعرية في قصائدهم، فجاءت صورهم موحية ومعبّرة بدقة بليغة تدلّ على سعة الاطلاع والحذاقة في الربط بين مختلف الصور التي تنسجم في لوحةٍ شعريّة قد تلمّ بصور متعدّدة جديدة مبتكرة أو قديمةٍ منتزعة من التراث لتتّخذ شكلاً جديداً يعتمد بإبداعه على حسن الانتقاء وبراعة التوظيف.

إذن فالشاعر الأندلسي يستمد صوره من روافد متعددة شكلت مخزونا فكريا استعان به في رسم لوحة المدينة، وقد سبق الحديث عن هذه الروافد في" اللغة والأسلوب "[1] غير أن أهم تلك الروافد المشكّلة للصورة الشعرية المبدعة في هذا الموضوع تتمثل في الواقع وما يتركه من تأثير في نفس الشاعر. والمدن الأندلسية بطبيعتها وعمارتها وما تمثله للشاعر الأندلسي من

[1] انظر: الفصل الرابع، اللغة والأسلوب، ص١١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نموذج الكمال، فرضت نفسها على الواقع، فكانت الأبرز، ولأن المدينة الأندلسية تمثل نموذج الكمال -غالباً- كان من الطبيعي أن تنصبّ صور الجمال المكاني على المدينة الموصوفة، لتغدو المدينة في شعر هذا القرن لوحة فنية شُكّلت من صور جزئية تعكس جهد صانعها الذي مازج بين الأجزاء ليرسم لوحته على درجة من الإبداع، ذلك أن صورة المدينة الأندلسية عندهم تمتلك الحد الأقصى من كل فضل حتى يقع في ظن المتلقي -غالباً- أن مثل هذه الصورة لا مثيل لها على أرض الواقع. وقد تشكلت الصور الشعرية التي عكست مدن الاندلس عند شعراء هذا العصر من عدة عناصر تناغمت لتكون الصورة الكلية . ومن أبرز هذه العناصر:

أولاً: التشخيص :

يبرز " التشخيص " في الشعر الذي تناول المد الأندلسية ليقوم بتفعيل دور المدينة ؛ فقد اتخذه الشعراء وسيلة قوية استطاع من خلالها ان يمنح المدينة حضوراً يلائم أهميتها ومكانتها في نفس الشاعر الأندلسي، فقد مازجوا بين حالتهم النفسية وما يتمثل لهم من مشاهد المدينة؛ فجعلوا من المدينة وعمارتها وآثارها أشخاصا تثور وترفض، وتحب وتقبل، وتفكر وتبوح بما في أعماقها؛ ومن أكثر الصور التي جسّدت فيها المدينة تصويرالمدينة للمرأة، ولعل من الضروري عند تناول هذه الصورة أن نجتاز حد ما قد يتبادر إلى الأذهان من مسلّمات في محاولة للبحث عن البعد النفسي الذي يبرز تلك العلاقة الأزلية بين الرجل والمرأة، إذ تشكّلت منه فنزع الرجل إليها باحثا عمّا يتمم ما تركته من نقص يعتري نفسه بما فقد. وهو في الوقت نفسه تشكل من الأرض، فشعر بها أمّا له وسعى لتمثلها نموذجاً للكمال. وقد يكون الشاعر في بحثه عن الحسن في المرأة والفضل والكمال في المدينة يسير في رحلة بحث عن ذاته المترامية عبر أشكال مادية مختلفة؛ ذلك أنه يبحث عن الارتقاء والتسامي بما يناسب روحه الطامحة، ولعل هذا ما يجعل المدن الأندلسية تظهر بصورة المرأة؛ إذ أكثر شعراء الأندلس من التغني بالمرأة فأصبحت موضوعا حيويا يرفد الشاعر بالصور المؤدية إلى شتّى المعاني، فلم يتردد الشاعر بحشد كل ما يرتبط بالمرأة ويحيط بها ليكسو به مدينته.

فقد ظهرت المدينة بصورة المرأة الحسناء عند كثير من شعراء الأندلس وأجمل ما يمكن أن يتخذ نموذجا لذلك ما قاله ابن سفر المريني في وصف الجزيرة الأندلسية مصوراً إحاطة البحار بها – وما يلازم ذلك من الحركة – بصورة المرأة الحسناء التي بدت لمن عشقها فأخذ قلبه بالخفقان وجداً وحباً:[1]

---

[1] المقري – النفح، ج١، ص٢١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

دَارَتْ عَلَيْـــها نِطَاقَـــاً أبْحُـــرٌ خَفَقَـــتْ وجْداً بِها إذ تَبَـــدّتْ وَهِـــي حَسْـنَاءُ

وقد ظهرت كذلك المدن الأندلسية بصورة الفتاة البكر وذلك عند وصف الشاعر الأندلسي لغلبة أحد الحكام عليها فكانت هذه الصورة تثبت مناعة المدينة الاندلسية وحصانتها، فجاءت قصائد المديح معززة من شأن المدينة وقوة العلاقة التي تربطها بالحاكم الجديد؛ يقول أبو الحسن الحصري في وصف غلبة المقتدر على مدينة دانية:[١]

كَـــذَا تُفْتَـــضّ أبْكَـــارُ البِـــلادِ وَلا مَـــهْر سِـوى البِيـضُ الحِـــداد

وفي هذا القول إشارة إلى العلاقة الزوجية التي تكوّنت بعد أن أمهر الفاتح المدينة السيوف لتصبح حليلة له. ولم يقف التصوير عند تصوير المدينة زوجة للفاتح الغالب، ومهرها السيف بل يظهر السيف أداة لتطهير المدينة من الأعداء الذين لوثوها بدناستهم فكانت طهارتها منهم بالدم الذي استعاض به الشاعر عن الماء.

وفي ذلك يقول ابن خفاجة مصوراً تخليص بَلَنْسية من يد العدو:[٢]

وَطَـهّرَ السّـــيْفُ مِنْـــهَا بَلْـــدَةً جُنُبَـــاً لَمْ يَجْزِهَا غيرُ مَاءِ السّـــيفِ مُغْتَسَـلا

وصورت المدينة عروسا جميلة؛ إذ يقول الشاعر في وصف غِرْنَاطَة[٣]

غِرْنَاطَـــةٌ مَـــا لَـــها نَظِـــيْر مَا مِصْـرُ مَـا الشّـامُ مَـا العِـرَاق
مَـــا هِـــيَ إلاّ العَـــرُوس تجلـــى وَتِلْـكَ مِـنْ جُـمْلَة الـــصَدَاق

فنحن نرى أن الشاعر – بدوافع نفسية – جعل غرناطة عروسا تستحق أن تمهر بما عظم من مدن الشرق، وفي هذا إعلاء من شأنها وإعلاء من مكانتها.

---

[١] الذخيرة، ج٤، ص١٥٨.

[٢] ابن خفاجة – الديوان، ص٢٠٩.

[٣] المقري – النفح، ج١ ، ص ١٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم يكتفِ الشاعر الأندلسي بتصوير المدينة بصورة المرأة الحسناء والفتاة البكر، بل منحها الشاعر دوراً فاعلاً، فظهرت بصورة المرأة ذات الكيد الذي يوصلها إلى مبتغاها. يقول محمد بن سليمان ابن القصيرة في مدح المعتمد:[١]

ويَا شَدَّ مَا أغْرَتْهُ قُرْطُبَةٌ وَقَدْ ... أبْشَرتها خَيْلُنا فَكَانَ لَها الدُرُّ

فها هي مدينة قرطبة تظهر في محاولة منها لإغراء الحاكم، ومثل هذه الصورة ترافق تصوير الشاعر للعديد من الأمكنة من مدن أو قصور، إذ توصف بما شاع من صفات المرأة كحب التزيّن -مثلاً- غير أنها قد تنتظر من يهدي إليها ما تتزين به. ومن ذلك قول ابن الحدّاد في وصف غلبة المعتصم على وادي آش سنة "٤٥٥ هـ": [٢]

وَمَا زَالَ شَرقِيُّ المَرِيَّةِ عَاطِلاً ... إلى أنْ عَلاهَا مِن رؤوسِهمُ عِقْدُ

وقد وُظّف العقد بصورة أخرى، فإذا كان العقد في البيت السابق مكتسبا من صورة رؤوس الأعادي التي أحاطت بالمدينة إحاطة العقد بالعنق وفي ذلك دلالات كثيرة منها كثرة ما وقع للأعداء من قتل، ومن دلالات هذا التصوير كذلك أن العقد كأنما كان مقدمة للارتباط بين المدينة والممدوح الذي قدم العقد هدية تزيد من حسن المدينة كأنما هو مهر لها ونلاحظ أن صورة العقد استمدت من عناصر غير محببة للنفس متمثلة بجثث قتلى ولو كانوا من الأعداء.

بينما وظّف بن السيد البَطَليوسي العقد في إشارة للممدوح، ففي وصفه لمجلس النّاعورة قال:[٣]

تراه يزهو إذا يحل به ... مأمون زهو الفتاة بالعقد

إذ صور المجلس بصورة الفتاة التي تزهو بعقدها الجميل، وجعل من المأمون في المجلس بمثابة العقد من الفتاة يزينها ويزيد حسنها.

---

[١] الإحاطة، ج٢، ص٥١٨.

[٢] ابن الحدّاد - الديوان، ص١٨٥.

[٣] المقري - النفح، ج١، ص٦٤٣ ؛ المقري - أزهار الرياض، ج٣، ص١٠٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد تعدى تصويرهم لزينة المرأة الحلي ليصوروا ما يخطف الأبصار من لباس بديع، فنرى مثلا مدينة قرطبة تزهو بثياب العروس في الصباح، ويستعير لها الشاعر ثيابا صفراء لترتديها المدينة العروس مساء، وفي ذلك حسن توظيف لتأثير الضوء في المدينة تبعا للوقت. يقول ابن خفاجة:[١]

أحسن بقرطبة فقد حملت به ... حسن الفتاة ولين خلق العانس
وتخايلت عزا به في عصمة ... صحت بها من كل داء ناخس
تزهى بربط للصبيحة أبيض ... ينـدى، وبرد للعشية وارس

غير أن هذه الأبيات تظهرصفات اخرى للمرأة غير حب التزين، فنلحظ صفة "لين خلق العانس" وفي هذا ربط بين المدينة في رقتها وجمالها وبين الفتاة التي تأخر زواجها في رقة حديثها ودقيق إيحاءاتها.

وبالإضافة إلى تلك الصفات الخلقية التي أفاد منها الشعراء ظهرت صفات خلقية، حيث وظف الشاعر الأندلسي الخال في وجنة المرأة – وهو من دلائل الحسن المحببة للشاعر العربي –. إذ نجد ابن زيدون قد وصف قصري المعتمد جاعلا من قصر المبارك وجنة ازدانت حسنا بخال جميل توسطها:[٢]

وتأمل القصر المبارك وجنة ... قد وسطت فيه الثريا خالا

وقد تابع الشاعر الأندلسي توظيفه للعلاقات الاجتماعية المرتبطة بالمرأة في تصويره للمدينة الأندلسية، ومن ذلك أنه جعل المدينة بصورة الأم، فوظف هذه العلاقة السامية بين الأم وأبنائها للتعبير عن عمق الارتباط بين أهل الأندلس ومدنهم . فظهرت المدينة بهذه الصورة في قول ابن حمديس الذي عبر فيه عن العلاقة التي تربطه بمدينته في مقابل تلك التي تربطه بغيرها من المدن بقوله:[٣]

أعن أرضكم يغنيكم أرض غيركم ... وكم خالة جداء لم تغن عن أم

---

[١] ابن خفاجة – الديوان، ص٢٣٠.
[٢] ابن زيدون – الديوان، ص٣٥٣.
[٣] ابن حمديس – الديوان، ٤١٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فنرى المدينة بصورة الأم، والأم معطاء دائما لا كالخالة التي ظهرت في البيت السابق منقطعة العطاء، فهي جدّاء لا خير فيها.

ونرى من شعراء الأندلس من أظهر المدينة بصورة رحم الأم الذي يمثل له الحياة بكل ما تحمل من معان، إذ يقول السميسر في وصف غرناطة، مدينته:[١]

غَرنَاطَــة مَثْــوى الجنيــن، يَلــذّ ظلمتــه الجنيــن

كما وظف الشعراء الخطبة التي هي إحدى علاقات المرأة الاجتماعية في طرحهم لصورة المدينة وعلاقتها بالحاكم، فقد أفاد الشاعر مما تثبته هذه الصورة من معان تعلي من شأن الخاطب وتظهر اقبال المخطوبة، باعتبارها تنظر إلى الممدوح خاطبا مستحقا للزواج بها؛ بعد أن كانت متمنعة رافضة لكل من سبقه، وفي مثل هذا المعنى يقول المعتمد في فتح قرطبة:[٢]

خطبـت قرطبــة الحســناء إذ منعــت   من جاء يخطبــها بــالبيض والأسـل

لقد استطاع الشاعر الحاكم أن يجني الرضا من قرطبة الحسناء التي أضحت ملكاً له.

وقد امتدّت يد التصوير المبدع لإظهار المدن الأندلسية التي يحل بها الشاعر بعد فراق مدينته بصورة زوجة الأب "الضرّة"، إذ ظهرت مدينة الشاعر بصورة الأم فلا عجب أن يتصوّر أي مدينة منافسة لها من خلال ما يحيط بالمرأة من علاقات ذات صلة. وفي مثل ذلك يقول أبو إسحق التطيلي:[٣]

إنْ تَجْـفُ حِمْـصَ فَتَجْفـو غَـير ذي رَحِـم   تَعَصُبــاً لِبَنِيــها فيــهِ إذ مَجُــدَا
وغَاظَــها أن رأتْ إنْجــابَ ضرتِهــا   ومَــنْ رأى كَرَمَــاً فــي نِــدّهِ حَقَــدَا

---

(١) ابن بسّام – الذخيرة، ج١، ٥٥٥.

(٢) المعتمد بن عبّاد – الديوان، ص٦٥.

(٣) ابن الأبار، تحفة القادم، ص٤٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويعد الطلاق من العلاقات التي اعتمد عليها الشعراء في تصوير علاقة المدينة الأندلسية بالحاكم حيث وظف الشاعر الأندلسي هذا المصطلح بما يحمل من مضامين لتصوير شكلا من أشكال الجفاء والانقطاع الذي قد يقع بين المدينة والحاكم.

وقد جعل الطلاق وسيلة للخلاص تعود إليه المدينة لتتحرر من حاكمها الذي تلازمه زوجاً غير مرغوب فيه مقارنة بالحاكم الممدوح وفي ذلك قول أبو محمد ابن الطلاء المهدوي:[١]

مَا دَولَةٌ إلاّ ونَادَتْ بَعْلَهَا ... وافاك مقتضّ البلاد فطلق
نَادَتكَ هيت لك البلاد باسرها ... فتح اسيرك من ينادي غلّق

ونختتم ما جاء من تصوير يجمع بين المرأة والمدينة بصورة المدينة أرملة ترتدي ثوب الحداد. ومن ذلك قول ابن سارة الأندلسي في بعض ملوك العرب وكان قد فتح قرمونة:[٢]

أطلّ على قرمونة متجليا ... مع الصبح حتّى قلت كانا على وعد
فارملها بالسيف ثم أعارها ... من النّار ثوب الحداد على النّقد

لقد وظّف شعراء الأندلس قدرتهم الفنية العالية في إبداع صورهم الفنية بشكل دقيق عند رسمهم صور مدنهم.

فكانت قدرة الأندلسيين في المزج بين الأصالة والإبداع في الصورة الشعرية واضحة، فنرى صورهم الشعرية توظف الإمكانات البلاغية المختلفة كالاستعارة والتشبيه والمجاز والكناية.

ثالثاً: الاستعارة:

لقد وظّف الشاعر الأندلسي الاستعارة لتزيد من حسن الصور ووقعها في النفوس، ولو توقّفنا عند هذا اللون لطال بنا الأمر، ولكنّنا نكتفي بإيراد نماذج دالّة، منها قول أبي

---

[١] الذخيرة، ج٤، ٢١٦.

[٢] معجم البلدان، ج٤، ص٣٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بكر بن مذحج:[١]

ولمـــا رأى حمـــــــص اســــتخفت بقــــدره على أنـــــها كـــانت بـــه ليلـــة القـــدر

فنرى حمص غدت امرأة تستخف بقدر الشاعر، على سبيل الاستعارة المكنية.

ومن هذا القبيل فالاستعارة قول أبو الصلت أميّة في وصف قصر:[٢]

أنـــاف علـــى شـــم القصـــور فلـــم تـــزل تتــهد وجـــدا للقصـــور وتتـــهد

وها هو التنافس يبدو بصورة جليّة بين القصور، وقد صاغه الشـــاعر مـــن خـــلال مـــا تصدره قصور الأرض من تنهدّات وجد أمام ذلك القصر الموصوف لعجزها عن بلوغ أســـباب فضله.

فنرى قصر طايطلة ينيف على القصور الشمّاء، ولعـــلّ فـــي هـــذا توظيـــف للمكـــان، والمقصود ضمناً الإعلاء من شأن سكّانه.

أمّا الاستعارة التصريحيّة فهي واسعة الانتشار في شعر المدن، ومن هذا القبيل قول أبـــي بكر بن القاسم عند فراقه المشرق ودخوله الأندلس:[٣]

فــلا تســـــألوني عـــن فـــراق جـــهنم ولكن سلوني عن دخولي إلـــى عـــدن

لقد جعل الشاعر من مدن المشرق جهنّم لما لقيه فيها من إذلال فارتدّ إلى جنانه الأندلســـيّة ليمتلك من خلال عودته إليها جنّة عدن. فهو يجعل المشرق جهنم والأندلس عدنا، علـــى ســـبيل الاستعارة التصريحيّة.

---

[١] النفح، ج٣، ص٤٧١.

[٢] الذخيرة - ج٤، ص٢١٢ ؛ النفح، ج١، ص٥٢٩.

[٣] النفح، ج٢، ص٩٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رابعاً: التشبيه:

لقد شبّه الشاعر الأندلسي المدينة بما تحويه من مظاهر العمارة بأشياء محسوسة من الواقع، فكان بارعا في تشبيهاته التي تنّم عن الثّراء المعرفي والخيال المتوقّد . وكان وصفه للمدينة الأندلسيّة التي بلغت ذروة الفضل بجمالها يستدعي ذلك الغوص خلف ما عرف من آيات الكمال الماديّ ليوظّفه في تصويره لمدينته.

وقد رافق هذه الحضارة العظيمة والمدنيّة المزدهرة اتساع في المعاني بما يشاكل رفاهية الواقع المادي للمدينة الأندلسيّة بسحر طبيعتها وامتداد عمرانها فكان ذلك من اسباب النعيم فيها في اتساع المعاني وموافقتها لطابع الرفاهية المرتبط بالمدينة.

ويمكن القول إنّ الإنسان يمتلك في المدينة من أسباب التميّز ما ينعكس في كلّ ما يصدر عنه، فالمرء ابن البيئة التي يعيش فيها، ينطق بلسانها ويصوّر ما تحويه.

"ومن هنا حكي عن ابن الرومي أنّ لائما لامه فقال : لم لا تشبّه تشبيه ابن المعتز، وأنت أشعر منه: قال: أنشدني شيئا من قوله الذي استعجزتني في مثله، فأنشده في صفة الهلال:

فانظر إليه كزورق من فضّة قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال زدني، فأنشده:

كأنّ آدريونها والشمس فيه كاليّة
مداه من ذهب فيها بقايا غالية

فصاح: واغوثاه، يا الله، لا يكلّف الله نفسا إلا وسعها، ذلك إنما يصف ماعون بيته،لأنه ابن الخلفاء، وأنا أيّ شئ أصف ؟ ولكن انظروا إذا وصفت ما أعرف اين يقع الناس كلهم"[١].

وفي هذا القول تأكيد من ابن الرومي أنّ تشبيهات الشعراء وصورهم تنمّ عن بيئتهم. وكم كانت تشبيهات أهل الأندلس وثيقة الصلة بالحياة المدنيّة المترفة والطبيعة الساحرة. إذ يكثر التشبيه بكل نفيس امتازت به أرض الأندلس، ومن ذلك ما جاء في وصف المرية:[٢]

---

[١] ابن رشيق – العمدة، ص٢٣٦-٢٣٧.

[٢] النفح، ج٣، ص٢٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أرْض وَطئــت الــــدرّ رضراضــــا بـــها   والــترب مســك والرّيـــاض جنـــان

وتكثر التشبيهات في قول ابن السيد البطليـوسي الذي وصف مجلس المنية فاستمد صــوره من الحياة المدنيّة التي يشيع فيها الغناء والطرب، وبهذا جاء المشبه به منسجما مع الواقع الـــذي يعيشه الشّاعر الأندلسي.(١)

وكان الشاعر الأندلسي يستوحي من الطبيعة ما يشبه به عمارة الديار الأندلسيّة ومــا فيــها من إبداع معماري قلّ نظيره ويدور تشبيه المدينة بمظاهر الطبيعة في ثلاثة محاور:

المحور الأول: تشبيه المدينة الأندلسيّة وما فيها من عمارة بالسماء وكواكبها والفلك ومثــل هــذا التشبيه يشيع في شعر المدن لما يضفيه المشبه به من فضل في المكان وســموّ وامتــلاك لنــور يستقطب كلّ من ضلّ به السبيل. كما في قول عيسى بن وكيل في وصف مدينـــة طليطلـــة، إذ جعل من القصور نجوما.(٢)

المحور الثاني: تشبيه المدينة وعمارتها بالطبيعة الأندلسيّة من رياض وانهار فكـــانت الطبيعـــة نموذجا يستمدّ منه الشّاعر الأندلسي صوره في رسم لوحة المدينة الأندلسيّة . ومن هــذا القبيــل قول أبي الحسن غلام البكري في وصف بناء المعتمد:(٣)

كـــــأنّ أعاليــــــــه روضــــــــة   ومرمــــــر أســــــفله جــــــدول

شبّه البكري أعالي القصر بالرياض الأندلسيّة، كما شبه المرمر بالجدول المتلألئ. فشــكل بذلك صورة لحديقة غناء هي في واقعها بناء امتاز بالحسن والابداع. ومن هـــذا القبيــل قــول عبدالجليل بن وهبون في وصف القصر الزاهي:(٤)

---

(١) انظر: فصل الوصف، ص١٠.

(٢) انظر: ابن سعيد المغرب، ج٢، ١١١ ؛ المقري – النفح، ج١، ١٧٠.

(٣) الذخيرة، ج٢، ص٣٣٥.

(٤) ابن بسّام – الذخيرة، ج٢، ص٣٠٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقـــورٌ مثـــل رُكـــن الطّـــود ثَبْـــتٌ ومختـــالٌ مـــن الحســـن اختيـــالا
ســـماءٌ ترتمـــي بعبـــاب بحـــرٍ كـــأنّ بـــه إكامـــاً أو تـــلالا

يشبه الشاعر عمارة المدن وهندسة البناء فيها بالجسد، يختار من الجسد ما يتفق والمشبه في المكانة، ومن ذلك أنّ ابن الحداد قد شبه المجلسين عند وصفه لقصر أبي يحيى الصمادحي بالمقلتين أو اليدين. وفي مثل هذا الجمع بين العمارة وأعضاء الجسد ما يدلّ على القوّة الخياليّة المتميّزة لدى الشّاعر الأندلسي. يقول ابن الحدّاد:[١]

والمجلِســـانِ النـــيّرانِ تآلفـــا هـــذا لـــهذا فـــي البَـــهاءِ قَريـــنُ
كـــالمقلتينِ أو اليديـــنِ تـــأيّدا والحســـنُ يعضـــدُ أمـــرهُ التحســـينُ

من هذا القبيل قول ابن سارة الشَنْتَريني:[٢]

لله مســـجورة فـــي شـــكل نـــاظرة مـــن الأزاهـــر أهـــداب لـــها وطـــف

لقد شبّه الشاعر البركة بالعين مستخدماً تشبيهاً مركباً، إذ تابع تشـبيه الأزاهـر بـالأهداب وأجد في هذه الجمع بين الصورتين غلبة للبعد، إن جمع بينهم في بعض النواحي.

ومن الجدير بالذكر أن التشبيه يرتبط بموضوع وصف المدن والحنين إليـها أكـثر مـن ارتباطه بموضوع رثاء المدن الأندلسية.

رابعاً: الكناية:

وظّف الأندلسيون الكناية في الصورة الشعرية لتكون متكأ للحديث عن موصوف أو صفـة لا يفضلون التصريح بها، لسبب أو لآخر، أو لعلّ الكناية تحمل إشارةً تومي إلى عمق يلـذّ فـي

---

[١] ابن الحدّاد – الديوان، ص٨٤.

[٢] القلائد، ج٤، ص٨٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نفس المتلقّي لما قد تحمل من رموز تختزل فيها العديد من المضامين. يقول ابن درّاج في وصف رحلة إلى الأندلس:[٣]

ستنسون أهوال العذاب ومالكا إذا ضمّكم في جنّة الفوز رضوان

فمالك وأهوال العذاب كناية عن النار وما فيها قاصدا بذلك الرحلة، ووصولهم إلى بلاط خيران العامري هو بمثابة دخول الجنّة. ويقول ابن حمديس محذراً من الاغتراب:[١]

وَللهِ أرْضٌ إنْ عَدِمتُمْ هَواءَها فَأهْواؤكُم في الأرْضِ مَنْثورة النّظمِ

مكنياً بـ "عدمتم هواءها" عن الاغتراب والبعد عن الأرض التي يعيش فيه الشاعر وبذلك نرى أن الشعر الذي تناول المدينة الأندلسيّة في عصر ملوك الطوائف قد بلغت العناية به مبلغا عظيما إذ حشد له الشعراء من الإمكانات الفنية والأسلوبية ما أثرى نصوصه وبلغ به درجة من الإبداع.

وهذا الشعر بما أتيح له من إمكانات استطاع أن يخلّد المدينة الأندلسيّة بحسن طبيعتها وعمارتها وما ألمّ بها من أحداث جسام، فظهرت المدينة نقطة تفجر الإبداع ، ونظم الصور الجميلة.

---

[٣] ابن درّاج – الديوان، ص٩٠-٩١.

[١] ابن حمديس – الديوان، ص٤١٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد استطاع الشاعر الذي أدرك الأندلس من خلال إحساسه المرهف أن يوظّف قدراته الفنيّة العالية في إبداع صور فنيّة بشكلٍ وفّق في رسمه لصورة المدينة بعمارتها وطبيعتها، وقد امتزجت مكوناته في صور حركيّةٍ وشمّيةٍ وسمعيّةٍ وبصريّة وغيرها لتكوين مشهد المدينة الفنّي كي تمنح المتلقّي شعوراً بحيويّة المشهد وجماليّته الفنيّة الأخّاذة.

• الصورة البصرية:

تعد الصورة البصرية أقوى أثراً في المخيلة والذاكرة، إذ يلعب البصر دوراً بارزاً في تحديد الصور الشعرية فيعبر الشاعر بألفاظه عما في جعبته من صور تضع المتلقي في أجواء التجربة الشعرية وتترك في نفسه أثرا هو بمثابة الغاية من القول.

وقد أجاد الشاعر الأندلسي في البناء التصويري إجادة محكمه، فاستوحى من طبيعة الأندلس الزاهية ألوانها، ومن السماء أنوارها، لتفيض صورة المدينة حسناً وبهاء، فالصورة البصرية مزيج من الصورة الضوئية والصورة اللونية.

وللون دلالاته المختلفة، إذ يعبّر عن أبعاد نفسيّة واجتماعيّة وثقافيّة.
وتشكّل تلك الدلالات معرفة تراكمية مستمدة من التراث الفكري والديني حيناً ومن واقع المدينة الأندلسية حيناً آخر. ولأن الضوء يشكّل مصدر الألوان فأن الصورة الضوئية تستطيع إمداد اللوحة الشعرية بتفاصيل تنقل المتلقي الى عمق المشهد، ولا يتأتى ذلك الا بممازجة الضوء بما يشكل الجانب السلبي له الذي يتمثل بالظلام ليقف اللون الأبيض (النور) في مقابل اللون الأسود (الظلام) معبّراً عن ثنائية ضدية تبرز كلا الجانبين بصورة حادة، وقد أفاد الشاعر الأندلسي من هذه الصور في موضوع المدن. يقول أبو إسحاق الإلبيري:[1]

لَعَهْدي بِها مُبْيَضَّةَ الليلِ فَاغْتَدَتْ وأيّامُها قَد سَوَّدَتها النَّوائِبُ

لقد جاء البياض بمعنى الضوء ليحمل دلالة الخير والسعادة، ولعلّ أهم ما يقصد إليه في توظيف الصورة الضوئيّة يتمثّل بما يرتبط بالنور من قوّة حضور في عين من يشهده، بل لعلّ الصورة الضوئيّة تحتوي الصورة البصرية والصورة اللونيّة أيضاً.

---

[1] الإلبيري – الديوان، ص٧٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد وظّف الشاعر الأندلسي الصورة اللونيّة في رسم لوحة المدينة، وبرزت الألوان من خلال الصورة الضوئية، وهي كما ذكرنا مصدر الألوان، وأصل وجودها. وقد جعل شعراء الأندلس من الصورة الضوئية وسيلة يحدّد من خلالها، مركز اللوحة الشعريّة وموضوعها الرئيسي، ومثل هذا يقترب إلى حدّ كبير من توظيف النور في لوحة الرسام إذ يفيد منه في إبواز ما يخدم موضوعه ويكثف مضامينه.

استعان الشاعر الأندلسي بمجموعة من العناصر التي جعلت من لوحته الشعريّة مصدراً متألّقاً نوراً وبهاءً، فقد حشد في قصائده نجوم السماء وكواكبها، وأفاد من عناصر بيئته التي لها قدرة على عكس الضوء ليصل إلى العيون متألّقاً، فأسهم في إلقاء الضوء على ما يجاورها، لتوحي بأنّها مصدر يستضاء به، إذ وظّف المعادن من ذهب وفضّة والحجارة من رخام ومرمر والجواهر لتحقيق تلك الغاية، وحتى الماء كان له دور بارز في تألّق الصورة الضوئية من خلال ما يعكسه من أشّعة.

وأفاد الشعراء ممّا كان للنور من قداسة عند بعض الأمم مثل "الفرس" فكان توظيفهم للصورة الضوئية في لوحة المدينة الأندلسيّة وأبنيتها يمثّل بعداً يتجاوز فيه الشاعر غاية حدود الجمال، ليصل إلى معانٍ مختلفة، قد تتمثّل بإبراز القيمة الماديّة إلى جانب القيمة الجماليّة. أنظر قول ابن الحدّاد في وصف قصر أبي يحيى الصمادحي:[1]

مُتَلألِئٌ فكأنّما سَالَ المَها ... فيهِ وذابَ اللؤلؤُ المَكْنُونُ
وكَأنّ مُبْيَضَّ الخُدُود وضَّاءَةٌ ... صَخْتٌ لها، لا المرمرُ المَسْنونُ
تَغْشَى بُمذْهَبِ لَمْعِهِ، فَكَأنّما ... أبْدى لَدَيْهِ كنوزه قارُونُ
هُوَ ثَالِثُ القَمَرَيْنِ فِي ضَوئيهِما ... منه تضيءُ لنا الليالي الجونُ
لَو أبصرته الفرس قدّس نوره ... كسرى وأخبت نارَها شيرين

استطاع ابن الحداد ان يثبت من خلال استخدامه للصورة الضوئية ما يزيد من قوّة التأثير في النفس التي تبحث في الظلام عمّا تهتدي به فجمع ابن الحدّاد بين الضدين ليبرز قيمة القصر وعظم مكانته.

---

[1] ابن الحدّاد – الديوان، ص٨٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعلّ في مَيل أهل الأندلس إلى تبييض بيوتهم ما يعكس تلك النزعة الإنسانيّة إلى الضوء وانعكاساته، فكان للون الأبيض وهو الأقدر على بث ما يصله من أشعة الضوء وقع يميّزه فشاع استخدامه في المدن الأندلسيّة وفي القصائد التي تناولتها، ففي وصف قبّة بيضاء يحيط بها نهرٌ يتلألأ. يقول الشاعر:[١]

حُفِظْتِ من قُبّةٍ بَيْضَاءَ حُفَّ بِهَا نَهْرٌ تَفَضَّضَ يَجْري بَيْنَ دَوْحَاتِ

ومثل هذه الصورة تذكّر بقول ابن الحمارة[٢] حين صوّر ترامي البيوت الأندلسيّة البيضاء بين أحضان الطبيعة التي ربط لونها بلون الزبرجد، فكانت تلك الخضرة تبرز حسن البيوت.

وقد صوّر الأعمى التطيلي أحد الحمامّات الأندلسيّة وما فيه من رخام أبيض فقال:[٣]

وابْيَضّ مِنْ تَحْتِهِ رُخَام كَالثّلجِ حِيْنَ ابْتَدا يَذوبْ

ولعل الأعمى التطيلي سمع هذه الصورة من أحدهم فصاغها شعراً إذ يصعب تصوّر الكيفية التي وصل من خلالها إلى الربط بين صورة الرخام وما فيه من تموّجات في الخطوط وصورة الثلج الأبيض حين يبدأ بالذوبان، فمثل هذه العلاقة لا يدركها إلا مبصر متبصّر.

أمّا اللون الأخضر فله مكانة تميّزه، إذ جاء معبّراً عن معانٍ خيّرة محببة للنفس، فارتبط بالخصب والحياة السعيدة. يقول ابن شهيد:[٤]

عَهْدي بِها والشّمل فِيْهَا جَامِعٌ من أهْلِها والعَيْشُ فِيها أخْضَرُ

---

[١] القلائد، ج١، ص٣٣٨.

[٢] المقري - النفح، ج١، ص٢٠٥.

[٣] الروض المعطار، ص٨٥.

[٤] ابن شهيد - الديوان، ص١٠٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد ظهرت المدينة مرتدية ثوبها الأخضر الموشّى الذي يثبت حسن طبيعتها وأرضها الخصبة.

ومُدَّت بها للروض أبرادُ سُندس تطرّزها كفُّ الغمام وترقُمُ

ولم يقف الربط بين اللون الأخضر والطبيعة بل رافق وصف لجج البحر عند ابن درّاج،[1] ولعلّ في هذا ما يحمل على الظنّ بوجود مقدار من الأمل في الوصول إلى تحقيق الآمال المتوخاة من هذه الرحلة.

وقد استعار بعض الشعراء الألوان الزاهية المنسجمة من الطيور التي امتازت بفتنة ألوانها مثل الطاووس ليمنح المدينة رداء تتيه به وتفاخر لما يحويه من جمال واستحواذ على القلوب والأبصار. وهذا نجده عند ابن اللبّانة في قوله:[2]

بَلَدٌ أعارَتْهُ الحمامَةُ طَوقَها وكَسَاهُ حُلّةَ ريشِهِ الطَاووسُ

وقد ازدانت اللوحة بمزيجٍ من الصور اللونيّة، فوظّف الشاعر جميع الألوان من أحمر وأزرق وأصفر بما يتناسب والمعاني المطروحة. يقول ابن زيدون في حنينه إلى قرطبة:[3]

هُناكَ الجِمامُ الزُرْقُ تُنْدَى حِفافُها[4] ظِلالٌ عَهِدتُ الدّهْرَ فيها فَتَىً سَمْحَا

- **الصورة الشميّة:**

إن لأرض الأندلس رائحة عبقة في أنوف سكّانها مبعثها خصب وإزهار يمدّ مخيّلة الشاعر بمعين لا ينضب من الجماليات الحسيّة والمعنويّة ليستمر ذلك في امتداده عبر الزمان،

---

(١) ابن درّاج – الديوان، ص٩٠.

(٢) النفح، ج١، ص١٦٩ ؛ المغرب، ج٢، ص٣٨٠.

(٣) ابن زيدون – الديوان، ص١٦١.

(٤) الجِمَام: المياه الغزيرة، وزرقتها ناجمة عن غزارها وانعكاس زرقة السماء عليها. انظر: الديوان، ص١٦١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإن تبدّلت الأحوال وبعدت المسافات، وإذ تترك حاسّة الشمّ مخزونا في ذاكرة الشاعر يبرز في قصائده ليشعل جذوة الشوق ويزيد من حرّ الفؤاد. يقول ابن زيدون:[١]

بالأفق المهدي إلينا طيبا تعطرت منه الصبا جيوبا

وقد ظهرت الصورة الشمية في وصف المدن والحنين إليها، فكان المكان يتمازج مع مختلف أنواع الروائح العطرية. يقول ابن السيد البطليوسي في وصف مجلس الناعورة:[٢]

تربة مسك وجو عنبرة، وغيم ند، وطش ما ورد

يقول أبو بكر بن رحيم:[٣]

عليك مني ريحان السلام كما حيتك مسكة داريّ ينفحات

وقد وظف بعض الشعراء الصورة الشمية لتصوير عهد السعادة المنصرم في المدينة المنكوبة، ومن ذلك أن ابن شهيد في قصيدة رثاء قرطبة عقد مقابلة بين صورة المدينة في مجدها، وبين ما آل اليه أمرها، فاستعان بالصورة الشمية ليعود إلى ماضي المدينة ويلقي بأثر ذلك النعيم في نفس المتلقي، فتكتنفه تصورات لما كان من خير يعم الجميع. يقول ابن شهيد:[٤]

وريّاح زهرتيها تلوح عليهم بروائح يفتر منها العنبر

وهكذا فإن تردد أريج الأندلس لا ينقطع فيما قيل فيها من شعر، فيبقى عبقه حتى بعد غروبها. يقول ابن زيدون في حنينه إلى بلنسية:[٥]

أفضيض مسك أم بلنـ سية لرياها نميم

---

[١] ابن زيدون – الديوان، ص١٥٥.

[٢] النفح، ج١، ص٦٤٤ ؛ أزهار الرياض، ج٣، ص١٠٧.

[٣] القلائد، ج١، ص٣٣٧.

[٤] ابن شهيد – الديوان، ص١١٠.

[٥] ابن زيدون – الديوان، ص١٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

• **الصورة السمعيّة:**

لقد ظهرت الصورة السمعيّة في شعر المدن الأندلسيّة بما يتناسب والموضوع المطروق، إذ استخدم الشاعر الصورة الصوتيّة للتعبير عمّا كان من أهل الأندلس من تقصير بحق المدينة بعد أن اجتاحتها جيوش الأعداء. فقال الشّاعر في رثاء طليطلة:(١)

نَخُورُ إذا دُهينا بالرّزايا ... ولَيْس بمعجَبٍ بَقَرٌ يَخُورُ

لقد استخدم الشاعر صوت الحيوان "الخوار" للدلالة على الضعف والهزيمة، ويعود في القصيدة نفسها فيكثّف معنى الشجاعة من خلال صورة سمعية تتمثل بزئير الأسد وهو صوت يحمل العديد من المضامين من مثل القوة والشجاعة والتصدي. ليضعه في مقابل الجبن في قوله:(٢)

ونَجْبَنُ لَيْسَ نَزْأرُ، لَو شجعنا ... ولَم نَجْبُن لَكان لَنا زَئيرُ

وتبرز الصورة السمعيّة في العديد من القصائد التي شاع فيها البكاء والندب، تردّد آهات الشعراء.

ويتكرّر تناول الصورة السمعية عند المقابلة بين ماضي المدينة وما حلّ بالمدن من إقفار بعد أن كانت تعجّ بالحياة. فهذا ابن اللبّانة يرثي المعتمد وقصوره التي أقفرت، فيستعين بالصورة السمعيّة في قوله:(٣)

قُصُورٌ خَلَتْ مِنْ سَاكِنِيها فَمَا بِها ... سِوى الأدم تَمشي حَولَ وامِضَةُ الدّمى
يُجيبُ بِها الهَامُ الصّدى ولَطَالما ... أجَابَ القِيَانَ الطَائرَ المُتَرنّم

وفي هذه المقابلة بين الصورة السمعيّة قبل المصاب، وبعده يومي الشاعر إلى ما يجتاح النفس في لحظة صمت، جعلته يرتدّ إلى الماضي مستحضراً تلك الصور السمعيّة الحيّة التي

---

(١) النفح، ج٤، ٤٨٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ابن اللبّانة – شعر ابن اللبّانة، ص٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كانت تنبض بالنعيم ليضعها إلى جانب صمت الحاضر، الذي يكاد يخلو إلا من تردّد لصوت قد انقطع، ومثل هذه المقابلة بين الصور السمعيّة وأصداء الصور، يكثر في شعر الحنين إلى المدن أيضاً. يقول ابن زيدون:[١]

تَعَوَّضْتُ مِنْ شَدْوِ القِيَانِ خِلاَلَهَا صَدَى فَلَوَاتٍ قَدْ أَطَارَ الكَرَى ضَبْحَا

ولعلّ الإحاطة بما جاء من صور حسيّة أمر عسير، فنكتفي بما أشرنا إليه من أمثلة موجزة تبرز جماليّة مشهد الأندلس وتعيد الحياة إليه.

وآمل أن أكون قد وفّقتُ فيما عرضتُ له سيّما أنّني قد بذلت ما في وسعي.

والله ولي التوفيق

[١] الديوان، ص١٦١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخاتمة

لقد وصل البحث إلى العديد من النتائج:

- أكثر شعر القرن الخامس الهجري من التغنّي بالمدن الأندلسية وذكر محاسنها واستطاعوا تخليدها في أشعارهم.
- صورت المدينة في العديد من القصائد تابعاً للممدوح ترتدي ثوباً من صفاته، إذ قد يزيدها سناً وتألقاً، أو قد يزري ببهجتها. ويمكن القول أن الشاعر الأندلسي قد وظّف المدينة، لخدمة نصه الشعري حتى باتت مرآة تعكس انطباعاته عن حاكمها.
- كانت كل مدينة أندلسية مميزة في نظر شعرائها يباهون بها وينافسون غيرها من مدن الأندلس وقد امتدت منافسة الشعراء بمدنهم فاجتازت الحدود الزمانية والمكانية لتشمل عدداً من مدن الأرض العظيمة في شتى البقاع والعصور. ومثل هذه المنافسة بني المدن تعكس أبعاداً سياسية ونفسية واجتماعية.
- احتلت المدينة الأندلسية موقع الوطن، فكان الشاعر يعلن عن غربته إذا ما تجاوزها إلى مدينة أخرى، إلا أننا نجد العديد من الشعراء الذين نظروا إلى الأندلس وطناً واحد.
- وقد يتخذ الشاعر الأندلسي قرار الرحيل عن مدينته مرغماً غالباً -، ويجدر الإشارة إلى أن شعراء الأندلس قد أكثروا من ذكر تنكر المدن الأندلسية لهم متخذين من ذلك دافعاً للرحيل.
- إن تنكر المدينة للشاعر يمثل شرخاً في بناء العلاقات الاجتماعية التي سعى الشاعر لإقامتها، ويحمل التنكر في طياته شعوراً بالاضطراب.
- إن التحوّل المكاني يقود إلى صراع داخلي، فالمدينة الجديدة لا تمتلك قوة جذب مساوية أو قريبة من تلك القوة التي تمتلكها المدينة (الوطن).
- نجد مقداراً من التفاوت في ردود أفعال الشعراء إزاء مواجهتهم لتجربة الغربة، إذ قد يحاول بعضهم التصدّي لتلك التجربة القاسية فيتمكّن من مواجهتها، وقد ينهزم البعض دون إقرار منهم بذلك، أو قد يصرّح البعض بالندم ليكشف لنا عما يعتري نفسه من صراعات.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- إن الحنين والشوق إلى المدينة يجعل منها رمزا للسعادة فيعمل الشـــاعر مخيلتـــه ليرسم لوحة الماضي جنة الفردوس.
- عند تجاوز الشاعر الأندلسي لحدود الأندلس يتدفق الحنين صوب الأندلـــس وطنـــا تتوحد فيه قيمة كل المدن الأندلسية.
- يمكن القول إن الحنين إلى المدن الأندلسية يتسم بالتفاوت في قوته بين الشـــعراء، فضلا عن تفاوت في نفس الشاعر اتجاه المدن الأندلسية المختلفة.
- لقد استأثر عصر ملوك الطوائف منذ بدايته التي قامت على أنقاض الدولة الأمويـــة بالعديد من قصائد رثاء المدن، وقد ساعد على ذلك ما رافق هذا العصر من أحـــداث جسام ونكبات متواصلة ألحقت الدمار بالعديد من المدن.
- احتل الحديث عن أهل المدن الأندلسية المنكوبة وما لحق بها حيّزاً مهماً في قصائد الرثاء.
- لقد جاء تجاوب القصيدة الأندلسية – في عصر ملوك الطوائف – مع مصاب المدن بصورة تفوق ما قدمته قصيدة رثاء المدن عبر العصور السابقة، إذ تمثـــل نتـــاج شعراء هذا العصر بالغزارة وعمق العاطفة.
- ظهر عند العديد من شعراء هذا العصر نزوع نحو المدن المشرقية، إلا أنّ التجربـــة أثبتت أن الأندلس هي الوطن.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المصادر والمراجع

- ابن الأبار، أبو عبدالله محمد بن الأبار، " ت٦٥٨هـ" – تحفة القادم، تحقيق إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلامي – بيروت، ١٩٨٦م.
- المقتضب من كتاب تحفة القادم، ط٣، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري – القاهرة، ١٩٨٩م.
- الحلة السيراء، ط٢، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، ١٩٨٥م.
- أعتاب الكتّاب، ط١، تحقيق صالح الأشتر، ١٩٦١م.

أبو إسحاق الإلبيري، إبراهيم بن مسعود بن سعد التجيبي، "ت ٤٦٠هـ" – الديوان، ط٢، تحقيق محمد رضوان الدّاية، دار قتيبة، ١٩٨١م.

- ابن بسّام، علي بن بسّام الشنتريني "ت ٥٤٢هـ" – الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ط١، ٤م، تحقيق سالم مصطفى البدري، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٩٩٨. ج٤، ص١٥٨.
- البكري، أبو عبيد البكري "ت ٤٨٧هـ"، ط١، تحقيق عبدالرحمن علي الحجة، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت، ١٩٦٨م.
- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة الترمذي – سنن الترمذي، ط١، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧.
- أبو تمّام، حبيب بن أوس – الديوان، تحقيق محيي الدين الخيّاط، المركز العربي للبحث والنشر، القاهرة، "د.ت".
- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب – كتاب الحيوان، ط٣، شرح يحيى الشامي، منشورات دار ومكتبة الهلال، ١٩٩٧م.
- ابن الحدّاد، أبو عبدالله بن الحدّاد، "ت ٤٨٠ هـ" – ديوان ابن الحدّاد، ط١، تحقيق منال منيزل، مؤسسة الرسالة – بيروت، ١٩٨٥م.
- الحصري ، علي أبو الحسن بن عبدالغني الحصري الفهري، الضرير، "ت ٤٨٨هـ"– المعشرات واقتراح القريح واجتراح الجريح، ط٢، تحقيق محمد المرزوقي الجيلاني ابن الحاج يحيى، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٤.
- ابن حمديس، أبو محمد عبدالجبار بن حمديس الصقلي، "ت ٥٢٧هـ" – الديوان، تحقيق إحسان عبّاس، دار بيروت للطباعة والنشر، دار صادر – بيروت، ١٩٦٠م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

. الحميري ، محمد بن عبدالمنعم ، "ت -٧هـ" – الروض المعطار في خبر الأقطار، ط ٢، تحقيق إحسان عبّاس، مكتبة لبنان – بيروت، ١٩٨٤م.

. الحميدي، أبو محمد بن أبي نصر الأزدي الحميدي الأندلسي، " ت ٤٨٨هـ " – جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، ط١، تحقيق روحية عبدالرحمن السويفي. منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٩٩٧م.

. ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبدالله قيس الإشبيلي، "ت ٥٢٩هـ" – قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ط١، ٢م، تحقيق حسين يوسف خريوش، مكتبة دار المنار، الزرقاء، ١٩٨٩.

. ابن خاقان – مطمح الأنفس ومسرح التأنّس في مُلَح أهل الأندلس، تحقيق محمد علي شوابكة، دار عمّار، "د.ت".

. ابن الخطيب، لسان الدين السلماني، "ت ٧٧٦هـ" – الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبدالله عنان،ط٢، مكتبة الخانجي – القاهرة، ١٩٧٣.

. الخطيب التبريزي–شرح ديوان أبي تمام، ط١، دار الكتاب العربي – بيروت ١٩٩٢.

. ابن خفاجة، أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة، "ت ٥٣٣ هـ" – الديوان، ط٢، تحقيق السيد غازي، منشأة المعارف – الاسكندرية، ١٩٧٩م.

. ابن الزقّاق البلنسي، أبو الحسن علي بن إبراهيم بن عطيّة الله بن مطرف اللخمي، توفي في حدود سنة ٥٢٨هـ – الديوان، ط١، تحقيق عفيفة محمد ديراني، دار الثقافة – بيروت، ١٩٦٤م.

. زكريا بن محمد بن محمود القزويني – آثار البلاد وأخبار العباد ، ط١ ، دار صادر بيروت ، "د.ت" .

. زهير بن أبي سلمى – الديوان، تحقيق كرم البستاني، دار صادر – بيروت، ١٩٦٠م.

. ابن زيدون، أبو الوليد أحمد بن عبدالله بن أحمد بن زيدون المخزومي الأندلسي "ت ٤٦٣هـ" – ديوان ابن زيدون ورسائله، ط١، تحقيق علي عبدالعظيم ، دار نهضة مصر للطباعة – القاهرة ، "١٩٥٧".

. ابن سعيد ، علي بن موسى بن محمد بن عبدالملك الغرناطي الأندلسي "ت ٦٨٥هـ" – المغرب في حلى المغرب، ط١، ٢م، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٩٩٧م.

. ابن سعيد الأندلسي، علي بن محمد بن سعيد، " ت ٦٨٥هـ " – رايات المبرزين وغايات المميزين، تحقيق النعمان عبدالمتعالى القاضي، مطابع الأهرام التجارية – القاهرة، ١٩٧٣م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

. السرقطســي، أبو عبدالله بن مطروح، "روضة المحاسن وعمدة المحاسن"، تحقيق منجد مصطفى بهجب، مطبعة المجمع العلمي – ١٩٨٨م.

. شــهاب الديــن أحمد بن عبدالوهاب النّويري، "ت ٧٣٣هــ " – نهاية الإرب في فنون الأدب، تحقيق د. أحمد كمال زكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م.

. شهاب الدين المقرّي التلمساني "ت ٥٤٤هـ" – أزهار الرّياض في أخبار عيّاض، ط١، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبدالحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٧٨.

. ابــن شــهيد – أبــو عامر أحمد بن عبدالملك " ت ٤٢٦هــ " – الديوان، ط١، تحقيق يعقوب زكي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، "د.ت".

. صــحيح البخاري مع شرح فتح الباري، ط١، تحقيق عبدالعزيز بن باز، دار السلام – الرياض، دار الفيحاء – دمشق، ١٩٩٧.

. الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، " ت ٥٩٩هــ " – بغية الملتمس في تاريخ رجــال أهــل الأندلــس، ط١، تحقيق إبراهيم الابياري، دار الكتاب المصري – بيروت، ١٩٨٩.

. عبد الحق بن عطية الأندلسي – المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ط١، تحقيق السيد عبدالعال ، ١٩٩١.

. أبو عبدالله الزوزني: شرح المعلقات السبع، المكتبة التجارية الكبرى – مصر، ١٩٦١.

. ابــن عــذارى، محمــد المراكشي، "ت ٦٩٥هــ" – البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ط٣، تحقيق ج.س كولان و إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة – بيروت، ١٩٨٣.

. العمــاد الأصفهاني، عبدالله بن محمد "ت ٥٩٧هــ" – خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيــق عمــر الدسوقي وعلي عبد العظيم ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر – الفجّالة، القاهرة، "د.ت".

. عمر الدقاق – ملامح الشعر الأندلسي ،ط١ ، دار الشرق العربي – بيروت ، " د.ت" .

. ابــن اللبّانة: أبو بكر محمد بن عيسى بن محمد اللخمي، "ت ٥٠٧" – شعر ابن اللبّانة الداني، ط١، جمع وتحقيق محمد مجيد السعيد، جامعة البصرى، ١٩٧٧.

. لــبيد بــن ربيعة – ديوان لبيد بن ربيعة ، تحقيق د . إحسان عباس ، وزارة الارشاد والأنباء – الكويت ، ١٩٦٢ .

. أبــو محمــد الرشاطي "ت ٥٤٢هــ" وابن الخراط الإشبيلي "ت ٥٨١هــ" – الأندلس اقتــباس الأنوار وفي اختصار اقتباس الأنوار، تحقيق اميليو مولينو، وخاتينتو بوسك بيلا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، معهد التعاون مع المعهد العربي – مدريد، ١٩٩٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

. محمد عبد حتاملة – موسوعة الديار الأندلسية، ط١، عمان، ١٩٩٩.

. محمد قطب ، دراسات في النفس الإنسانية ، دار القلم ، القاهرة ، " د.ت " .

. المعتمد، المعتمد بن عبّاد ملك إشبيليّة، " ت ٤٨٨هـ" – ديوان المعتمد بن عبّاد، تحقيق رضا الحبيب السويسي، دار تونس للنشر، ١٩٧٥م.

. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، "ت ٣٤٦هـ"، –مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط١، تحقيق الأمير مهنّا، مؤسسة الأعلى للمطبوعات – بيروت،١٩٩١.

. المقري، أحمد بن محمد "ت ١٠٤١هـ" – نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ط ١، تحقيق إحسان عبّاس، دار صادر – بيروت، ١٩٨٨م.

. هنري بيرس – الشعر الأندلسي في عصر ملوك الطوائف " ملامحه العامة وموضوعاته الرئيسية وقيمته التوثيقية " ، ط١ ، ترجمة أحمد مكي ، دار المعارف ، ١٩٨٨ .

. ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبدالله الحموي الرومي البغدادي، "ت ٦٢٦"– معجم البلدان، ط١، ٥م، دار صادر – بيروت، ١٩٨٦م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ABSTRACT

Andalusian Cities in the Poems of Al-Tawif Kings` Era (Fifth C.H.)

This Study deals with the Andalusian cities in the poems of the fifth century of Hijrah. Such a study aims at revealing the relationship between the cities and their inhabitants as reflected in the poems of that era.

Hence, the study will be set out in an introduction and four chapters:

(a) The first chapter deals with the description of the Andalusian cities.
(b) The second chapter tackles the question of yearling to the cities.
(c) The third chapter is devoted to studying the elegiac poetry of the cities.
(d) The fourth chapter discusses the artistic and stylistic matters together with the pectorial of the poems.

According to the poems of that era, the Andalusian cities appeared in a distinctive image. The poems portray the cites as a home for those who were born and grew up there.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit